قواعد في
السلوك إلى الله تعالى
أو
السير على المنهاج

من كلام الإمام العالم العارف عماد الدين الواسطي
المتوفى سنة ٧١١ هـ

اعتنى بها
محمد بن عبد الله أحمد
أبو الفضل القونوي

دار البشائر الإسلامية

قواعد في

السلوك إلى الله تعالى

أو

السير على المنهاج

من كلام الإمام العالم العارف عماد الدين الواسطي

المتوفى سنة ٧١١ هـ

اعتنى بها

محمد بن عبد الله أحمد

أبو الفضل القونوي

(١)

قاعدة مختصرة في طريق الفَقر على منهاج الرَّسول ﷺ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّر

الحمدُ لله الذي اختار مِنْ خلْقِه صفوةً أرادهُم لِقُرْبِه فأرادُوه، وأحَبَّهم فأحبُّوه، فقهروا بذلك النُّورِ وساوِسَ النَّفْسِ ورُعُوناتِها، ونزغاتِ الشياطين وإراداتها.

أقامهُم بين يديهِ في مقامِ العبودية، وصَفَّهُم في مصافِّ الخِدْمة، فهُم بين يديه أبدًا يتنعَّمون بأنوار مشاهدته، ووظائفِ خدمته، يعبدونه كأنهم يرَوْنه، ويتْلُون كلامه كأنهم يسمعون منه، ويقْتَفُون آثار نبيِّهم مُحمَّد ﷺ، ويعكُفون على استماع سُنَّتِه بقلوبٍ حاضرةٍ، وأسماعٍ واعية، ويستعينون بمولاهم على القيام بمأموراتِ ربِّهم، والانتهاء بمناهِيه.

فلَمْ تزَلْ هذه طريقة تسِيرُ بِهم، وكان مُنتهاها أنْ طهّر الله عزَّ وجلَّ فيها بواطنهم عن المحرَّمات والمكروهات، وكساهم كسوة اتباع المأمورات والطاعات، وكاشفَ أسرارهم بحقائق المشاهدات.

وكان شيخُهم في هذه الطريقةِ وإمامُهم رسولَ الله ﷺ المبعوث إليهم بالرَّحمة العامّة، والكتاب المنزل، الذي فيه موعظةٌ من ربهم وشفاء لما في الصدور، وهُدًى ورحمة للمؤمنين.

فسبحان مَنْ وفّقهم بفضله لتحقيق المحاسبة في ظواهرهم، وإتقان المراقبة في بواطنهم، فصفّاهُم له باطنًا وظاهرًا، فصلحوا لِقُرْبِهِ، ومناجاة حضرتِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وصلوات الله على نبيِّ الهُدى وإمام التُّقى مُحمَّد النَّبيِّ الأُمِّيِّ وآله، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وبعدُ:

فإن بعض الإخوان التَمس أنْ أُعلِّق له قاعدةً مختصرة في طريق الفقر المحمَّدي، فأقررتُ له بقِصر العبارة، وقلَّة البضاعة.

ثمَّ رأيتُ المسارعة إلى إجابة سؤاله على قدر الإمكان أوْلى، وبالله المستعان.

اعلم ـ أيُّها الأخ وفَّقنا اللهُ وإيَّاك ـ أنك إنْ أردتَ الفقرَ المحمَّدي الصحيح، الذي له أصلٌ ثابتٌ، وفرعٌ شامخٌ، فعليك بالفقر المُحمَّدي، فإنَّه مأخوذٌ مِنْ رأس العَين، وإيَّاكَ أنْ تأخذَ الفقرَ مِنْ أسفل، وتَتْرُكَ الشُّربَ مِنْ رأس العين، وتشرب مِنَ المياهِ البعيدةِ عن منبوعها، التي قد خالَطَها السِّباخُ المالحةُ، واصفرَّتْ ألوانُها لِبُعْدِ مائها عن منبوعها، فصارت مغايرةً للون المنبوع، منحرفةً عن سواء السبيل ـ وأنتَ تفهمُ هذا الرَّمز، لأني شرحتُه لك مشافهةً ـ.

فإن أنت سلكتَ طريقةَ الفقرِ المحمَّديِّ رجوتُ أن تلْتَحِق بالسَّابقين الأولين، أصحابِ نبيِّك محمَّد ﷺ، فتُحشر يوم القيامة معهم ومعه، تحت سنجقِه ولوائه، إذا حُشِر الفقراءُ تحت سناجق شيوخهم، فتُحشر أنت تحت سنجق نبيِّك وشيخِك محمَّد ﷺ.

فعليك بهذه الطريق لا تخْرُجْ عنها، وانصحْ بها مَنْ أحببته مِنْ إخوانك ليعملوا بها، فإني أرجو بذلك أن تلتحقوا جميعًا بشيخكم ونبيِّكم رسول الله ﷺ.

واعلم أنَّ الفقر المُحمَّديَّ لا يتَّسِعُ لكمالِ شرحِه مجلداتٌ، لكني أشرحُ لك في هذه القاعدةِ أصولَه، فمَنْ وقَع على الأصول يُرجى له الصعودُ ـ بعون الله ـ إلى الفروع، وبالله التوفيق.

الفصل الأوَّل

من الطريقة **أن يشتغل قلبك بمحبة الرَّسول ﷺ**، وتتخذه شيخًا وإمامًا، وتعتقدَ محبته، والانجماع بشؤونك عليه، دون كلِّ أحد، وتُكثر الصلاة عليه، وتكون منزلتُه مِن قلبك منزلةَ المشايخ من قلوب الفقراء، ألا تراهم أنهم إذا ذُكِرَ شيخُ أحدهم يَهتَزُّ ويضطربُ، وذلك لعظمته في قلبه، ومنزلته منه.

فاجعلْ أنتَ نبيَّك مُحمَّدًا ﷺ في قلبك كذلك، بحيث تملِك محبَّته قلبَك، ويصير تمثالُه بين عيني فؤادِكَ دائمًا، إذا ذُكر تجدُ لذَّة ذِكْره وتعظيمه في قلبك، بخلاف ذِكْر كل أحد.

فإذا توجَّهت إليه بهذه الصورة، وأكثرتَ من الصلاة عليه،

فواظب المواعيد التي تُتلى فيها سنّته، وأخباره، وسيرته، ومعجزاته، وكراماته، كلما سمعت معجزة من معجزاته، مثل انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، حتَّى توضأ منه الجيش كلهم، ومثل حنين الجذع إليه، وإطعام النفر الكثير بالطعام القليل، ومثل ما فعل بقتادة بن النعمان حين انقلعت عينه حتَّى سالت، فردّها ﷺ حتَّى عادت كما كانت، ومثل اشتكاء البعير إليه، ومثل انفتاق عين تبوك ببركته بعد أن كانت كالشراك، وغير ذلك من المعجزات.

فكلَّما سمعت حديثًا من أحاديثه، أو معجزة من معجزاته، تبقى كأنك تراه بعين قلبك، فيزداد حبك له، وتعظيمك إياه، واتباعك لهديه وطريقته، فتصير بذلك من أتباعه حقيقة، حيث ترى الناس أتباع زيد وعمرو، وكذلك كلَّما سمعت حديثًا مرويًّا عنه ﷺ مضمونه الترغيب في أمر أو الحضِّ عليه، أو النهي عن شيء أو الذمّ له، استعنت بالله، وطالبت نفسك بالعمل بما حضّك عليه، واجتناب ما نهاك عنه، وبالله التوفيق.

الفصل الثَّاني

من هذه الطريقة: أن تجدِّد الوضوء، وتروح إلى مكان خالٍ لا يراك فيه أحد، ثمّ تجدِّد التوبة بينك وبين مولاك وخالقك، الذي بعث هذا النبيَّ الكريم، وأنزل عليه الكتاب العزيز، فتكشف رأسك بين يدَيْ مولاك، بعد أن تصلِّي ركعتين، بحضور، وخشوع، وبكاء، ثمَّ تقول: يا ربِّ جئتك تائبًا إليك، راجعًا إليك، معتذرًا من تقصيري في مخالفتي أمرك، وارتكاب نهيك، من حيث أعلم، ومن حيث لا أعلم، وها أنا قد كشفت رأسي بين يديك، نادمًا، مُقلِعًا، عازمًا على اتباع أمرك، واجتناب نهيك، والعمل بما أنزلته في كتابك على النبيّ الكريم، نبيِّي، وشيخيَ، وأستاذيَ، ثم تقول الدعاء المشروع، فيما رواه البخاري، عن رسول الله ﷺ قال:

(سيد الاستغفار أن تقول: **اللَّهُمَّ أنت ربي لا إله إلَّا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت**).

فلا تبرح من مكانك حتَّى يرقَّ قلبك، وتجري دمعتك، ندمًا، وخضوعًا، وإذعانًا، وانقيادًا لمولاك، فذلك علامة الخير، ورجاء قَبول التوبة.

الفصل الثَّالث

من هذه الطريقة المحمديَّة: إذا رجعت إلى منزلك، احفظ هذه التوبة، وحُكم هذا العهد الذي عاهدت.

فإن قلت: فكيف أحفظه؟

قلت: **اعلم** أنك عاهدت ربك عزَّ وجلّ على لزوم طاعته، فحِفْظُ هذا العهد إنما يكون بحفظ اللسان طول النهار، عن الغِيبة، والنميمة، والزور، وكل كلام لا فائدة فيه، فإنَّ الملائكة عن يمينك وشمالك، يكتبون أقوالك وأفعالك، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

وتحفظ عينيك عن النظر إلى النساء الأجانب والصبيان المُرْد، وتحذر من الاجتماع بهم لغير ضرورة، وإذا كان ضرورة فتحَفَّظْ، وترمي بنظرك إلى الأرض، وتحفظ قلبك عن المَيْل، فإنَّ الله عزَّ وجلّ يعلم ما في قلبك، فلا تخنِ الله عزَّ وجلّ وهو مطّلع عليك، يعلم ما في سرّك، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة بالأجانب، وقد ورد عنه ﷺ: «**ما خَلا رجل بامرأة إلَّا كان الشيطان ثالثهما**»، والأمرد كذلك، فاجتنب هؤلاء الأصناف، كيلا يوقعوك في نقض العهد الذي عاهدت مع ربك، فتعصي ربك بعد التوبة بزناء العين، وزناء القلب.

وكذلك تحفظ سمعك عن الفواحش مما تحفظ عنه لسانك، فإنَّ العبد يُسأل يوم القيامة عن سمعه وبصره، وما عقد عليه بقلبه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فاستعدَّ لمحاسبة ربّكَ بلزوم طاعته، وطهارة جوارحك عن معاصيه، عساك أن تلقاه بوجه أبيض ـ وذلك وجه الطائع ـ وإيّاك أن تلقاه بوجه أسود ـ وذلك وجه العاصي ـ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وكذلك تحفظ بطنك عن الحرام والشبهات ـ على قدر الاستطاعة ـ وتحفظ يديك ورجليك عن البطش والسَّعي إلى ما حرّمه الله، أو كرهه، فحفظ ذلك العهد والتوبة برعاية جوارحك السبع: العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرّجل، فهذه هي رعاياك، وأنت راعيها، وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيّته.

فإذا اتقيت الله عزَّ وجلّ فيها، من طلوع الشمس إلى غروبها، ومن غروبها إلى طلوعها، حياءً من الله عزَّ وجلّ المطّلع عليك، العالم بما تتحرّك به، وهو سبحانه فوق عرشه، وفوق سبع سماواته، يراك ويعلم سرّك ونجواك، وقد أمرك على لسان نبيّك ونهاك، والمَلَكان يحفظان عليك ما تصنعه في عمرك، ويكتبانه في الصحائف، فتوافي في يوم القيامة في الموقف، فتنشر عليك تلك الصحائف فيها الأعمال، ثم توزن تلك الأعمال، فتجازى، فمتى اتقيت الله ـ كما وصفتُ لك ـ كنتَ حافظًا لذلك العهد الذي عاهدت ربك عزَّ وجلّ به، وكنت من المتقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

واعلم أن الاشتغال بما وصفتُ لك، من إقامة حق التقوى، والاستعداد للموت والآخرة، ولقاء الله عزَّ وجلّ، وإصلاح الأوقات والأعمال، رجاء لقاء الله الحق، بوجه أبيض، وهو راضٍ، في شغل شاغل عن قيل وقال، وتضييع الزمان بما يكتبه عليك الحفظة، ويعود عليك غبُّه في الآخرة، فاستعن بالله عزَّ وجلّ وأقبل على آخرتك، وعلى ما ينفعك غدًا، فإنك ـ والله ثُمَّ والله ـ تُعرض على الله، ويسألك عن أعمالك، فاستعدَّ للمسألة جوابًا، وشدَّ مئزرك، وانهض نهضة الأكياس المطيعين، ودع عنك ما اشتغل به الناس في زمانك، من اشتغال البعض بالبعض، وصرف الزمان في: كان، وصار، وتَمَّ، وجَرَى، وأقبِلْ على ما ينفعك غدًا.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «**يحشر الناس حفاة عراةً غُرلًا**»، وفي حديث آخر:

«فينظر العبد عن يمينه، فلا يرى إلَّا ما قدّم، وعن شماله، فلا يرى إلَّا ما قدّم، وبين يديه، فلا يرى إلَّا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يكن، فبكلمة طيبة».

الفصل الرَّابع

مِنْ هذه الطريقةِ في الفقر المحمَّدي، أنك إذا صلّيت الصلوات الخمس تكن حاضرًا بقلبك فيها، ولا تعامل ربك وأنت غائب القلب، بل صلِّ صلاة ناصحٍ لمولاه، قد حضر بين يديه بجميعه، فلم يتخلّف عن خدمته بشيء منه، حضر بقلبه، كما حضر بجسده، ويعلم المصلّي أنه واقف بين يدي ربه، وخالقه، وهو مطلع عليه، ويرى خَطَراته.

فإذا سمعت المؤذن، فاجعل نفسك كأنك قد سمعت داعيَ الله، فأجبت داعِيَه، ثمّ نهضت مطيعًا ممتثلًا لأمره، فتوضأت وضوء كاملًا ثلاثًا، ثمّ قصدت بيت مولاكَ مطيعًا له، غير ملتفت، ولا مستعجل، بل تمشي بالهيبة والسكينة والوقار.

فإذا دخلت المسجد فقل: أستغفر الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، اللَّهُمَّ افتح لي أبواب رحمتك، ثمّ تقصد الصف الأول، عن يمين الإمام، أو بقربه، ثمَّ إن حصل لك مكان، فكل ذلك قد وردت فضيلته في السنة، ففي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامِنِ الصفوف»، بشرط ألا يؤذي أحدًا، فيشتغل قلبه بالزحام.

فإذا وقفت في مصلَّاك، فاحضر بين يدي ربِّ الأرباب، وربِّ

العزّة، حضور العبد الذليل، بين يدي الربِّ الجليل؛ أوَ ما يستحي العبد إذا وقف بين يدي والي المدينة أن يُقبل عليه بجميعه، ولا يلتفت عنه خشية سَوطه أو إهانته، فإذا حضر بين يدي ملك الملوك، وجبار الجبابرة، وسلطان السلاطين، جعله أقلّ الناظرين إليه، ففي الناس من يكون في الصلاة، وقلبه في السوق، أو في الحساب، أو في السوق يبع ويشتري، فمثل هذه الصلاة تسمَّى: خَرَجيّة ـ كالمتاع الخرجي ـ ومن عامل الله تعالى معاملة خَرْجيَّة يعامَل ـ كذا ـ على نحوها، ومن عامل الله بالنّصح والحضور والمحبة والتعظيم، كان جزاؤه على قدر ذلك.

ثمَّ تُكبّر، وتقرأ الفاتحة، وتفهم ما تقول، ثمَّ اركع متواضعًا لعظمته، وتسجد كذلك، وإذا قرأت التحيَّات تسلِّم على ربك عزَّ وجلّ، وعلى نبيّك ﷺ، وعلى الصالحين، فتكون عند ذكرهم وعند الدعاء في آخر الصلاة.

ورد في الأخبار: (أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه الكريم، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهُوِي، فيصلّون بصلاته، ويُؤمِّنون على دعائه، وينادي منادٍ: لو يعلم المصلِّي من يناجي ما التفت. وفي رواية: ما انفتل).

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «إذا وقف العبد في الصلاة، يقول الله تعالى: ارفعوا الحجاب بيني وبين عبدي، فإذا التفت، يقول: ارخوا فيما بيني وبينه، وخلّوا عبدي وما اختار لنفسه».

واعلم بأن كل من كان له حال مع الله تعالى، فإنَّه يظهر في الصلاة، مَن كان حاله الخوف ظهر في الصلاة، أو الحب، أو القُرب، أو الاتصال، أو الشهود، أو المحاضرة، فإنَّه يظهر في الصلاة، فإنَّ الصلاة صِلة. ومن غلبت عليه الوساوس في الصلاة، فلا حال له.

واعلم أن في زمانك هذا تحضر القلوب عند سماع القصائد، وتظهر الأحوال في أوقات الحضور بين يدَيْ الرّبِّ عزَّ وجلّ في الصلاة التي هي أقرب ما يكون فيها العبد من ربِّه، تروح القلوب وتستولي عليها الوساوس والهواجس، فهذا علامة الفقر الفاسد. قال ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدًا»**، فإذا كان العبد في أقرب المواطن ـ وهي الصلاة ـ بعيدًا محجوبًا فترى يحضر قلبه في السوق؟ فلذلك قيل: من غلبت عليه الوساوس في الصلاة لا حال له، لأنه محجوب في أقرب المواطن، فكيف يكون حاله في أبعدها؟

الفصل الخامس

من هذه الطريقة المحمَّدية: أن يعمل على براءة الذمَّة من الحقوق اللازمة، والديون والودائع، وصداق الزوجات ونفقاتهن، وتُحالِل مَن كان بينك وبينه ظُلامة، وتذكّرْ من كان له في ذمّتك حبَّة أو قيراط، فتعمل على الخلاص منه كيف أمكن، فإنك قادم على ربك لا محالة، وهو محاسبك على ذلك، فاعمل على أن تلقاه وذمتك مخلصة، والخلاص في الدنيا أهون من الآخرة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا حضرت الجنازة، قال: **«هل على صاحبكم دين؟** فإن قالوا: نعم. قال: **صلّوا على صاحبكم»**.

ومن ذلك أن تنصح للمسلمين في المعاملة، والبيع والشراء، فتحبّ لأخيك المسلم ما تحبّه لنفسك، وإيَّاك أن تأخذ الراجح وتعطيه الناقص، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

وفي الجملة: فتهيأ للقاء الله عزَّ وجلّ بكل ممكن، مستعينًا بالله عزَّ وجلّ ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

الفصل السّادس

القيام بحقوق الخَلْق، فإنَّ الدِّين شطران:

أحدهما: حقٌّ تقوم به لله تعالى.

والثاني: حق تقوم به للخلق، وخصوصًا للإخوان المحبين، الذين يطلبون ما تطلب، ويريدون ما تريد، يحبون العمل على بياض الوجه مع الله تعالى في الدار الآخرة، وعلى بياض الوجه مع محمَّد ﷺ.

فبياض الوجه مع الله تعالى إنما يكون باتباع أمره، واجتناب نهيه، وجملته اتباع الشرع، فلا يتحرك العبد حركة إلَّا بالشرع.

وبياض الوجه مع محمَّد ﷺ يكون باتباع السُّنَّة، والحرص على سماعها، والعمل بها.

فمن كان مطلبه هذا المطلب، وصحبك للتعاضد والتعاون على البر والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فاصحبه بالرحمة والنصيحة، والإيثار بما يفضل عنك إذا كان محتاجًا، وإذا رأيت منه تقصيرًا فانصحه بالتقصير لا بالتعنيف، واحلم عنه في أوقات، وطالبه بالرفق في أوقات، وامزج حموضة أمرك له بحلاوة لطفك به، وكن له كالوالد، أو كالأخ الشفيق، تحب له ما تحب لنفسك، ولا تطالبه بحظك، بل تطالبه بحقوق الله تعالى، ففي الحديث: «**ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، وكان إذا انتهكت المحارم لم يَقُمْ لغضبه شيء**».

وجُرّه إلى الحقّ قليلًا قليلًا، فإنَّ النفوس آبِيَة تحتاج إلى الرفق، ولا تنتظر نُتوجه، واعمل على قطع منه، واصحبه لله عزَّ وجلّ لا لحظٍّ تناله منه.

واعلم أن هذا الصاحب إذا وقعت منه إساءة **فهي على** قسمين:

القسم الأوَّل: أن تكون وقعت على وجه السهو والغفلة والخطأ والجهل، **وعلامته**: أنه إذا وقع يكون مسترشدًا طالب الهدى، يتعلم الطريق إلى محوها، فمثل هذا يُطالب بالرِّفق، فإذا اعتذر قُبلت معذرته، ولم تنقطع مادَّته من القلب.

القسم الثَّاني: أن يَسْفه المريدُ على شيخه تعمُّدًا، ويناديه بغليظ القول، ويذكر عيوبه ومناقصه بحذاه ووراءه، ثم يعود فيعتذر ويكفّ، فحكم هذا أن تقبل منه المعذرة ظاهرًا، ولا يقطع السلام، ولا يُصحب

بعدها، فإنَّ عقوق المريد بين الفقراء لا توبة لها، لأن تلك اللطيفة القلبية، التي كانت تعمل على تربيته، ويصل منها النصيب الإلهي إليه انقطعت، لأن النصيب إنما يصل إلى المريد إذا كان معظِّمًا لشيخه، يهابه، ويحترمه، ويحبه.

إذا جفاه شيخه لا يذكره بسوء، بل يُعرض عن ذلك أيّامًا، ثم يعود وهو حافظ لحُرمته ومنزلته من صدره، فمتى ما جاء شيخَه بغليظ القول، دلَّ ذلك على سقوط منزلة الشيخ من قلبه، فتنقطع المادة الباطنة، وتبقى المادة الظاهرة الإسلامية، فإننا نهينا عن التقاطع والتهاجر، ومثل هذا لا ينبغي أن يُصحب، بل يُعطى حقه، ويُكتفى شرُّه.

وينبغي للفقير أن يصحب الفقراء بالعزَّة والتعظيم، والحرمة والإيثار والتواضع، ويصحب الأغنياء بالغنى عنهم، وعمَّا في أيديهم، ويجعل الطلب لهم لا له، فإذا طلبوه وأحبوه لله عزَّ وجلّ أجابهم، ولا يشبع من طعامهم، على موائدهم، بل يأكل لحفظ قلوبهم، فيكون أكله لحقِّهم، لا لحظِّه.

ويعمل على السكوت عندهم، فإذا كلَّموه أجابهم على قدر سؤالهم. ويُطالبهم مطالبة الأصحاب، ولا ينزلهم من قلبه منزلة المريدين، فيُحاققهم على الدقائق، فلكلِّ مرتبة حقٌّ وجد، ولكل رجل ميزان يوزن به، فلا ينبغي أن توضع الأشياء إلَّا في مواضعها، فبذلك تستقيم الأمور.

فصل

ومن رمى عليك شرَّه، أو طالبك بأمر لا يليق، لقصور فهمه، وخفت تغير قلبه، فدارِه مداراةً بطيِّب الكلام، والفراغ عنه، لكي تسلم من شره، ولا تقع فيما تكره.

والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة هي أن تظهر خلاف ما تضمر لاكتفاء الشرِّ، وحفظ الوقت.

والمداهنة: إظهار ذلك لطلب الحظوظ، والنصيب من الدنيا.

وربما أشبهت المداراة المكر في بعض الوجوه، وهي محمودة على كل حال، لأن فيها السلامة.

وفي المحاققة مع من لا يسمع أو لا يفهم الشرُّ كلُّه، فمكرٌ تحصل به السلامة، خيرٌ من محاققة تُفْضي إلى شرٍّ.

فائدة:

لا تحاقِق إلَّا من كان صادقًا فيك، يطلب منك أن تحاققَه، فأمَّا من يرى نفسه عليك، فإيَّاك ومحاققته، بل دارِه، وأعرِض عنه.

فصل

لا تصحب من الناس من لا يطلب مطلبك، ولا يريد مرادك، ويستخفّ بالفقراء ويستهين بهم، **ولا تصحب** المنَّان الذي يمنُّ عليك برفقته وخدمته وإيثاره، فكل هؤلاء لا خير في صحبتهم.

واعلم أن الناس يقولون: الفقراء الفقراء، وما يدرون ما حقيقته، ولا ما بدايته، ولا ما نهايته، ولا يعرف الفقر إلَّا أهله.

وأنا ذاكرٌ لك من بدايات الفقر نكتةً واحدة، فإذا عرفتها عرفت عزَّة الفقر، وعرفت نهاية الفقر.

من دخل في ميدان الفقر، ولا يقدر أن يدخله إلَّا بعد الفراغ من القيام بالأمر، واجتناب النهي الظاهر، فأول حالهم بعد ذلك أن يحفظوا خواطرهم مع الله عزَّ وجلّ كما يحفظ المتَّقي لسانه وسمعه وعينه، فما ظنك برجل تمرُّ في قلبه خطرة لا ترضي مولاه إلَّا تاب منها.

ومنهم من استقام قلبه، وصلحت خواطره، فلا يخطر له ـ غالبًا ـ إلَّا خاطر حقٍّ، وهم الأولياء يستحون من الله عزَّ وجلّ أن يخطر بقلوبهم محرَّم أو معارضة، لأنهم موقنون بنظره وعلمه، فإذا كنا ما وصلنا إلى هذا ـ ونحن من البدايات ـ كيف لا نستحي من دعوى الفقر.

وأذكر لك نكتة أخرى من نكت الفقراء في بداياتهم ـ أول بداياتهم ـ بعد إقامة الأمر واجتناب النهي، وحفظ الخواطر، تبدو على قلوبهم إرادة الحقِّ عزَّ وجلّ وطلبه، فتشتعل نار الإرادة في قلوبهم طلبًا للحقِّ عزَّ وجلّ فتخلو قلوبهم من مطالب الدنيا ومآربها، وتبقى فارغة من سوى مطلوبها، فإذا كنا ما وصلنا إلى هنا، وهو من البدايات، كيف تصح لنا دعوى الفقر؟ وما شممنا لبداياته رائحة.

وأما أمور الفقراء الواصلين، فلا يتَّسع هذا الموضع لشرح حالهم، لأن مقصودنا الاقتصار، والقلوب تضيق عن سماع بداياتهم، فكيف يكون حالها في سماع نهاياتهم؟

والواجب علينا أن نبكي على أنفسنا حيث قد ابتُلينا اليوم بطوائف شغلهم أكل الحرام؛ من الملبوس والمظالم، والحلال عندهم ما وجدوه، والحرام ما فقدوه، ويدورون طول نهارهم على لقمة يحصّلونها، أو صورة يتمتعون بالنظر إليها، ويظهرون الأحوال، يتأكلون بها عند الناس، ولهم مع ذلك الدعاوى العريضة، وما شمُّوا رائحة الإسلام الخاص في الظاهر، ولا رائحة الإيمان النافذ في الباطن.

يقيمون السَّماعات ويرقصون عليها طول الليل، فإذا صلّوا نقروا نقر الغراب، فما أبعدهم عن الله عزَّ وجلّ.

يتباهون بالدخول على الأمراء، وأخذ فتوحهم ـ نسأل الله أن يبعدهم عنا ـ فهؤلاء قطاع الطريق، وقطعهم لطريق الله أصعب من لصوص الطرقات، فإنَّ اللصوص يأخذون المال، وهؤلاء لا يراهم الجاهل، فيظن أن هذا هو الفقر، وهو الدين، فيقطعون عليه الطريق، فشُغلهم أكل أموال الناس بالباطل، ويصدُّون عن سبيل الله، طهَّر الله الأرض منهم، وطمس آثارهم، فلقد وسّخوا الفقر وسوَّدوا الدين، وهذا هو النفاق حقيقة، أن يُظهر الإنسان الحال بلا حقيقة، ليتأكل به.

ورضي الله عن أهل الخشية، والخوف، والتعظيم، والمراقبة، ومعرفة السّنة، والمتابعة، المستورين، الذين يعرفهم الله ويعرفونه، أولئك أهل الحضرة الإلهية، والنفحات القدسية، سلام الله عليهم.

فنسأل الله الكريم أن يوفقنا ـ وإيّاكم ـ لما يحبه ويرضاه، ويجنِّبنا ـ وإياكم ـ عما يكرهه ويسخطه، ولا يرضاه، آمين.

فصل

وعلامة أهل الفقر المحمَّدي، أنهم إذا سمعوا القرآن طربوا إليه، وتجلّى فيه المتكلِّم ـ سبحانه ـ بصفاته المقدسة على قلوبهم.

يا عجبًا لمن يدَّعي محبة الله تعالى، ولا يجد قلْبه عند سماع كلام الحبيب، ويجدُ قلبه عند سماع القصائد والتصفيق!

أمَّا المحبون لله عزَّ وجلّ سماع القرآن هو شفاء صدورهم، وراحة أسرارهم، يحضر فيه المتكلم ـ سبحانه ـ يشاهدونه في كلامه، في أمره ونهيه، في وعده ووعيده، وقصصه وأخباره، ومواعظه وأنبائه، فترقُّ قلوبهم، وتنجذب بالمحبة والشوق أرواحهم، وتخمد صفات نفوسهم، تقهرها عظمة المتكلم ـ سبحانه ـ وتجذب قلوبهم بالمحبة لمشاهدة رحمته وألطافه، وجلاله وإكرامه.

ولا تسمعْ قول من يقول: إن القرآن لا يناسب طباع البشر، فلذلك لا تجد الوجد في سماعه، والشعر يناسب البشر، فلذلك ترقّ القلوب فيه، فإنَّ هذا كلام فاسد، لا حقيقة له، وذلك لأن الشعر يحرّك الطباع بأوزانه، خصوصًا إذا قاله صاحب نغمة طيِّبة، كالرَّسْت والرهوي، وغيرهما، وانضاف إليه التصفيق، وكان هناك قوم يرقصون، فمثل هذا يحرِّك الأطفال والبهائم، بمقتضى الطبع والجبِلَّة، لا بمقتضى الإيمان واليقين.

أمَّا أهل الإيمان واليقين، أصحاب النبي ﷺ ومن جاء بعدهم، من أتباعهم بإحسان، يحرِّكُ القرآن عندهم ما سكن من اليقين، فيكون حركة قلوبهم وخشوعهم ووجدهم. واقشعرار جلودهم ولينها إنما هو بحكم اليقين والمعرفة، لا بحكم الطباع والجبلَّة، فافهم هذا الأمر واعرفه.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فارفُضوا ـ رحمكم الله ـ سماع الأبيات، وعليكم بسماع الآيات، فإن فقدتم قلوبكم في القرآن، فاتَّهموها بقلَّة النصيب، من معرفة المتكلِّم، فأعرف الناس بالله عزَّ وجلّ أخشعهم عند سماع كلامه، لأنه سمع كلام من يعرفه، والجاهل بالله يجد قلبه في الشعر، لجهله بالله عزَّ وجلّ، ولا يجده عند قراءة القرآن، لأنه لا يعرف صاحبه، فإذا عملتم سماعًا، فاعملوه بقارئ متّقٍ لله، طيِّب الصوت، تُشبهوا بذلك أصحاب نبيِّكم ﷺ.

تمَّت القاعدة بحمد الله تعالى وحسن توفيقه، والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



(٢)

قاعدة في صِفَة العبوديَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي خضعَتْ لهَيبته قلوبُ الأولياء، وخشعتْ مِن مَهابته أسرارُ الأصفياء، وانقادت إلى عبوديته أعناق الأتقياء، سبحانه وتعالى هو المتعزِّز بالوحدانية والكبرياء، والمتعال بعظمته والصفات المقدسة الواردة على ألسُن الأنبياء.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، ربُّ السموات والأرض، وما بينهما من الأشياء، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، سيِّد ولد آدم من الأموات والأحياء، صلَّى الله عليه وسلَّم صلاة دائمة تسْمُو بصاحبها إلى العلياء.

وبعدُ:

فإنَّ العبودية من أعلى مقامات الصدِّيقين، والتواضع لعظمة الله تعالى من أسنى ملابس المقرَّبين، مَن ظهرت آثارهما عليه، دلَّ ذلك على وجدانه وعرفانه، ومن لم يتقمَّص بهما، فقد أقرَّ بما يظهر عليه من صفات الطبيعة، ببعده وهوانه.

لا حال للعبد أشرف من ظهوره بصفات العبودية، والارتضاء لأحكام الربوبية.

مَن تعدَّى صفته إلى ما لا تستحقه من الصفات، أبان عن جهله وحمقه، ومَن وقف على ما يقتضيه حاله من صفاته وحُدوده أنصف في عبوديته وحقِّه.

وكيف لا؟ والعَجْز والضعف صِفَتاه، والفقر والذُّلُّ حالتاه، قد اتَّصفَ ربّه بأضدادهما من الصفات، مِنَ القُدرة والقوة، والغِنى والعزَّة، فمن أظهر إلى الله تعالى عجزه، وشكا إليه ضعفه وفقره، وتقمَّصَ ذُلَّه وكسْره، فكأنه تسمَّى بأسمائه التي يستحقها، وتكنَّى بكُناه التي بها ظهر للخليقة رِقّها، لأنهم مربوبون، وبعزة الربوبية مقهورون، فذلك سيماء من عرف ربه فقدَّرها قدرها، وعرف ربه فقدره قدره.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد جاء في بعض الأخبار: أن الملائكة يقولون يوم القيامة: «سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتكَ»، وقد جاء في بعض الآثار: أن الله تعالى قال لداود عليه السَّلام: «يا داود، اعرفني واعرف نفسك، قال: يا رب قد عرفتُ نفسي بالعجز والضعف والفناء، وعرفتك بالقدرة والقوة والبقاء، قال الله تعالى: يا داود الآن عرفتني»، أو نحو ذلك.

فعلى العبد أن يلازم صفاته، ويعرف نفْسه بها، ولا يتعدَّاها فيكون من الجاهلين، وربما أدَّاه ذلك إلى قلب الحقائق، فيكون من الفراعنة المُلحدين، نسأل الله أن يعصمنا من ذلك وإياكم أجمعين.

وقد جاء في الحديث: «**أسألك إيمانًا يُباشر قلبي**»، فعلامة من باشر الإيمان قلبه، وهو عبارة عن معرفته لربّه سبحانه وتعالى، بأفعاله

أو بشيء من أسمائه، أو بلوامع من آثار أنوار صفاته، أو ببارقة تلوح لقلبه، من عظمة ذاته.

هذه جمل المعارف، وإن تعدَّدت أقسامها، وتنوّعت درجاتها، جعلنا الله وإيّاكم من المتحققين بذلك، القائمين بأحكامها. آمين يا ربّ العالمين.

فصـل

وينكسر لهذا العارف قلبه لربِّه، ويذل سرُّه لما قام به من حُبّه، فإنَّ المعرفة تقتضي المحبة في هذا الشأن، وإن كان لا يلزم منها المحبَّة في غيرها من الأكوان.

فقد يعرف الإنسان الشيء ولا يحبه، وأمَّا هذا الجناب، فلا يُتصوّر أن يعرف منه شيء إلَّا وتقترن به المحبّة، وإن كان من الصفات القَهْرية، فإنَّ لها تعلُّقًا باطنًا بالصفات اللطيفة الموجبة للمحبة.

فمتى تحقق القلب بوجوده لشيء من هذه المعارف، أعطاه ذلك ذبولًا وانكسارًا، وتعظيمًا وافتقارًا، هذا إذا لاح للقلب تفصيله على ما ذُكر من الأفعال والأسماء والصفات، فإنَّ ذلك يقتضي في القلوب الصافية، والأذهان الصقيلة الوفية تعظيم المعروف، لإشراق معارفه في أنوار القلوب، وتلوح في تلك الأنوار ما يستحقه العبد بمقتضى تلك المعرفة، من العبودية، التي تطالبه تلك المعرفة بها، فيفرّق في ذلك النور بَيْن صفات ربِّه، وصفات نفسه، فيعطي الربوبية حقَّها

ـ بحسب إمكانه ـ ويعطي العبودية حقها ـ بحسب ما قام له من برهانه ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فصل

إذا تأمّل المتأمِّل أسماء الله وصفاته الواردة في التنزيل، وفيما أبان عنه الرَّسول ﷺ، يجدُ كلَّ اسم وصفة يشير إلى معنًى خاصٍّ قام بالرّبوبية، واقتضى ذلك للعارف ذوقًا خاصًّا يعرف به المسمَّى بذلك الاسم، المتصف بتلك [الصفة]، فكان ذلك الاسم أو الصفة طاقةً للعارف يدخل منها إلى جميع المعارف، فيأخذ من كل اسم أو صفة بقدر ما يلزم من تلك الصفة، أو الاسم من جميع الأسماء والصفات، وتأخذ بقدر ما يرتبط بين ما عرفه من الأسماء والصفات، وبين بقية الأسماء والصفات، على حدّ قَسْم الله له.

مثاله: من عرف ربَّه تعالى بالاسم: **العليم**، لزمه من العليم الحياة، أو من عرفه **بالتدبير**: لزمه من التدبير العلم والمشيئة، والبصر والقوة والحكمة والرزق والرحمة والقدرة، وأمثال ذلك.

أو من عرفه **بصفة الكلام**: لزم منه الخبير العليم الحي المُوعِد المخوف الجليل الجميل، أو عرفه **بالاسم المنتقم**: لزم منه القادر القاهر الحي الدّيّان، وأمثال ذلك.

وأيضًا فإنَّ المعروف بتلك الصفة أو الاسم، هو المعروف ببقية الصفات والأسماء، فإذن كلُّ اسم يسمَّى الله به، أو صفة اتّصف بها، بابٌ إلى صفة الموصوف، وطريق إلى محبة المعروف، ومرقاة إلى

معرفة غيره من الأسماء والصفات، إمّا بطريق اللزوم، أو بطريق الجمع الجامع للجميع.

فصل

إذا عُلم ذلك، فإنَّ كل اسم أو صفة تقتضي معنًى خاصًّا قام بالربوبية، كل معنًى من مدلولات الأسماء والصفات غير الآخر، فكذلك يقتضي كل اسم أو صفة بمعناه الخاص عبودية خاصة من العبيد، الذين عرفوا ربَّهم بذلك.

فمن عرف ربه تعالى بشيء من أسمائه أو صفاته أو أفعاله، فعلامة صحَّة معرفته وبرهانها، أن يعبد الله تعالى الذي عرفه من ذلك الاسم الخاص، والصفة الخاصَّة، عبوديةً تناسب مقتضى السبب الموجب للمعرفة.

مثال ذلك: الربّ سبحانه وتعالى اتَّصف بالغني القادر، العزيز القوي، فعلامةُ من عرفه بصفة الغني أن يقوم له قلبه بحقيقة الافتقار، فإنَّ صفة الغني منه ـ سبحانه وتعالى ـ اقتضتْ ـ هنا ـ أن نعبده بالافتقار إليه، وكذلك من عرف ربه ـ سبحانه ـ بصفة القدرة اقتضت منّا هذه المعرفة عبودية خاصةً تُناسبها، وهي صفة العجْز، وكذلك صفة العزة اقتضت منا أن نعبده بصفة الذل لعزته، والخضوع لأحكامه، وكذلك صفة القدرة منه اقتضت منا أن نعبده بصفة الضعف والاستعانة بالقوي لهذا الضعيف، وأمثال ذلك.

فصل

قد تبيَّن فيما تقدَّم، **أن المعرفة الصحيحة**، تُوجب عبودية وخضوعًا من كل عارف صحَّت معرفته، فبرهان المعرفة: العبودية، وبرهان المحبة: المذلَّة، فإنَّ كل محب ذليل لمن أحبه، وهذا لا يكون إلَّا فيمن تفصَّلت معرفته على التفاصيل الشرعية، وشعر قلبه بوجوه التفصيل، ومتى شعر القلب بوجوه التفصيل صار للمعرفة هيمنة على القلب، تحكم عليه بالعبودية الخاصة، بمقتضى الأمر المعروف، فيعبد الله بتلك العبودية الخاصة، في مقابلة ما ظهر لقلبه من المعارف، وشعر قلبه ـ أيضًا ـ بتلك العبودية، وأنه يعامل الله عزَّ وجلّ بها.

ومن فتح الله عليه هذا الباب، وتحقق به، ودام له، واتصل بالعبودية سرّه، كان بريئًا من رعونات النفس ـ في غالب الأمر وأكثره ـ محفوظًا من نزغات الشيطان، وحركات الجبابرة والمتكبِّرين، بل يلوح عليه سيماء العابدين، الذين يعبدون ربهم بجوارحهم وقلوبهم في العالم، فإنَّ من خصوصية المعارف الصحيحة، المفصَّلة على التفاصيل الإسلامية؛ أن تتصرَّف في نفس العارف، فتذوَّبها وتصفيها، وتلطفها وتحميها، فتبقى حارة لطيفة، بعد أن كانت بحكم الطبع باردة يابسة، فيلوح على شمائل العارف مكارم الأخلاق، وظرافة الشِّيَم والصفات، حيث صار له ربّ في قلبه يعرفه ويحبه ويعبده ويألهه، فنفسه خاضعة لسلطانه، مأسورة في قبضته، وروحه مغمورة في حضرته، وسرّه ممتّع بمشاهدته.

ومن سكنت هذه الأحوال الشريفة في باطنه، بقيت نفسه أسيرةً حقيرةً، مضبوطة عن صفات المتجبِّرين، محفوظة عن مخروم الحركات، موزونة بالعدل، تلطفت غلظته، وتهذبت قسوته، واعتدل جوره، والتزم العدل في أموره، إن تحرك تحرك عدلًا، وإن نطق نطق حكمة وفضلًا، أو صمت صمت فكرة وحلمًا، أو نظر نظر عبرة وحقًّا، أو سمع سمع إشارة وحكمًا، وذلك لأن عقله تصرَّف في نفسه تصرُّف المؤدِّب لطفله، وعقله تأيَّد بربه، واتصل بنور قربه، فالقلب منه في اتصاله بربه متصل بتهذيبه لنفسه، فهو قائم بربه على همه وعقله، وقائم بهمه وقلبه على نفسه، وهذه هي العناية لأهل العناية، المتوطنين مقاماتِ أهل الولاية، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فصل

وهؤلاء قسمان: قسم أهل فناء، وقسم أهل تمكين وبقاء.

فغالب ما يظهر على أهل الفناء من الانقباض والانفراد، ومجانبة المعارف والناس، وإهمال بعض حقوقهم؛ من البداية بالسلام، وإظهار التودد إلى أهل الإيمان، والإخلال ببعض جزئيات المتابعة، من إجابة الدعوة، واتباع الجنائز، ومخالطة الخلق، فما سببه إلَّا اجتماعهم على حالهم، وسياستهم أنفسهم بما يلزمهم من حقوق معروفهم، فالحال على هؤلاء بسلطنة تقبضهم عن كثير من التفرقات.

وفيهم من يشهد بقلبه انحراف كل منحرف، وما قام بقلبه من

سوء الطويّات، وجرائم الآفات، فيهرب بقلبه من تلك الظلمات، فإنَّ عنده ما يشغله عن غيره، ولا يتسع للأغيار، ولا يقوى على مقاومة الأسرار، وذلك لا يقدح في مقامه، وإن كان غيره أكمل منه، لاتساعه، ومثل هذا لا ينشرح إلَّا لمحب صادق، يميل المحب بقلبه إليه، فيشهد ذلك من باطنه، فيوفيه حقّ محبّته، بالإقبال عليه، والإصغاء إليه، وإن وجد هناك استعدادًا نصحه، وإلا وفَّاه حقه، وأمسك.

هؤلاء لم يكلَّفوا غير ذلك، ومتى تكلّفوا ما لا يُكلَّفون، تحمّلوا ما لا يطيقون ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

القسم الآخرون: الأطباء أهل التمكين والولاية، والبقاء والدراية، أفناهم الله تعالى به، ثم أبقاهم، فكانوا به، فهم الأدلّاء لخلقه عليه، والمعالجون لهم في إصلاح أمراضهم.

هؤلاء كلّفوا مخالطة الخلق لقوتهم وتمكينهم، وهم القائمون بجزيات المتابعة، جملها وتفصيلها، لتصرُّفهم في أحوالهم، يقومون بأعباء الخليقة، دِقّها وجِلّها، يسوسونهم، ويصدّونهم عن الباطل، بسوط الشريعة وحكمها، فهم خلفاء الرسل وأمناؤهم، فلهؤلاء كلِّفوا ما لم يكلف الأولون، ومن حمّل أولئك ما حمله هؤلاء فقد ظلمهم، وجهل استعدادهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وبالله المستعان.

فصل

قد تبيَّن أحوال أهل الحقِّ، ذوي المشارب الصحيحة، والمشاهد العالية، المنيرة المفصّلة على التفاصيل الشرعية، وكونهم انقسموا إلى أهل فناء وبقاء، وتبيَّن حكم ما يخصُّ كل فريق منهم، وما هو وظيفته.

وأمّا الآفات الداخلة على العبّاد، أهل الأذواق المجملة، الذين لا بصيرة لهم في دينهم، ولا معرفة لهم بأحوالهم، ولا ميزان لهم يزِنون به حركاتهم وسكناتهم، فهم في حيرة يعمهون، وخبط يتعثّرون، فهي أكثر من أن تحصر، لكن نذكر منها أشياء تكون تبصرة واعتبارًا، يُستدل بها على غيرها من الآفات، وبالله المستعان.

فمنهم من تكون طريقته العبادة، فينازله أحيانًا في عبادته شيء من آثار العظَمة الإلهية، مجملًا غير مفصَّل على تفاصيل الأسماء والصفات، ويتفق أن يكون بليدًا لا فطنة له، غليظًا لا لطافة له، قويَّ النفس والطبع، لهما التصرف فيه على عقله وقلبه، فيصبغ قلبه الأمر، فيغيب عن صفات نفسه وشؤونها، وتُسلب النفس ذلك الأثر، فتجعله لها، فيظهر هو في مظهر الجبروت والعظمة، وتلوح عليه أمارات الكبرياء والرياسة، فيمشي بين العالم [و]الناس بنفس كبيرة، وصَولة جسيمة، ويتردَّى برداء الكِبر والتيه، ويتسلَّط على أشكاله بالغِلَظ، مع ما هو فيه، يأمرهم وينهاهم، والنخوة في رأسه، والقسوة في قلبه، والشرُّ في أحداقه، يريد الخير، فيقع في الشرّ، ويقصد العدل فيهبط في الجور، والظلم هواه، قائده لا عقل له، كأنه ثعبان يرديه في آبار

المهالك والمعاطب، حسود لا يفطن بحسده، متكبِّر لا يشعر بكِبْره، أعمى بقلبه وبصيرته، لا ريب قد اتصف بصفات غيره، من الكبر والعلو.

وقد جاء في الحديث عن الله تعالى: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني أحدهما أدخلته ناري**».

فمثل هذا يكون أصحابه معه في جهد جهيد، وعناء شديد، ينزل على رؤوسهم من أعلى المقامات، ويروم أن يتصرف فيهم، فيكون إليه الإشارات في جميع الحالات، كلَّما امتلأ كبرًا، وكلما ازداد قوة، ازداد حالًا وامتلأ شرًّا.

وأهل الله الصفوة على عكس من ذلك، كلما امتلؤوا حالًا، اكتسبوا تواضعًا، وكلما ازدادوا قوة، ازدادوا شكرًا.

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى صاحب الحال المفصَّل ونوره، وكونه شعر قلبه بحاله، وشعر ـ أيضًا ـ بعبوديته المناسبة، لما ظهر في قلبه، فعرف ربه، فقام بحقه، وعرف نفسه فأنزلها منزلة من صفات المخلوقين، فعينُ قلبه ناظرة إلى ربه، خاضعة له، تظهر عليه كسرة الخضوع، وذلة العبودية، وإن كان عزيزًا في نفسه، مهيبًا بين أبناء جنسه.

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى صاحب الحال المجمل، وقلّة نصيبه، من شعوره بربه، وجهله بصفته، وجهله ـ أيضًا ـ بنفسه وصفتها، وما يجب عليها في العبودية، من قيامها بعبوديته، ومن كونه اتصف بما ظهر لقلبه من العظمة والجبروت، فظهر بما لا يملكه، ففاض عليه

من الأخلاق الملائمة لجهله، من الصَّوْلة، والنخوة، والطيش، والحلم من الله الكريم، والإمهال لهذا العبد الجاهل العديم، يخسف به الأرض كما خسف بقارون، حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ وخرج على قومه في زينته، ولم يخرج في أثواب ذلّته وتواضعه، فـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: ٧٨ ـ ٨١] عُوقِب بنقيض قصده، طلَب العلوّ، فهوى به طلبُه إلى تخوم الأرض.

ولذلك جاء في الحديث: «**بَيْنا رجُلٌ يمشي، إذ عجب بنفسه في حلّة يتبختر فيها، فخسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»، أو نحو هذا.

فنسأل الله العظيم أن يكسِينا أثواب العبودية، والتعظيم لمالك البرية، ويوفقنا على ذلِّ نفْسنا، وعزَّة ربنا، معبودنا، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، آمين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.



(٣)

قاعدة في الحبّ في الله حقيقةً

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحبّ في الله: التآلفُ والتَّجانبُ في مَشْهَد الروح، وذلك لا يكون إلَّا بأن يذوق كلٌّ من المتحابَّيْن نصِيبًا من المحبة الخاصَّة بعدَ تحقيق مَشْهَد القلبِ، من الإيمانِ بالغيبِ، ووجودِ آثارِ الصفاتِ؛ مِنَ الفوقيةِ، والكلامِ، والعَظَمَةِ، والجلالِ، وغير ذلك.

ومتى تألّفتِ القلوبُ في مَشْهدٍ منَ المشاهِدِ كان حبًّا في الله حقيقةً، **وأعلاه**: التآلفُ في مشاهد الروح، مِنَ المحبة الخاصة، المشيرة إلى جمالِ حضرة الذاتِ وكمالها، وهو ما يستغرق الروحَ حبًّا وانجذابًا وتعظيمًا ونصحًا في المعاملة الخاصة، وائتمارًا في الأمرِ، واجتنابًا عن النهي، وغير ذلك.

إذا عُلِمَ ذلك وأمكنَ وجودُ التعارفِ في ذلك المشهد الخاص، ووجود الرابطة في ذلك بين القلوبِ والأرواح، فمن وجد التآلفَ والتعارفَ في ذلك المعنى الخاصِّ بينه وبين الصِّدِّيقين المعروفين المنسوبين إلى المحبة والخصوصية، مثل: الجنيد وأقرانِهِ القائمين بحقيقة هذا الفنِّ، وصارَ يُحبّهم حقيقةً ويأنس بذِكْرهم لوجود المناسبة بينهم وبينه، فذلك من أعلى أقسامِ التحابِّ في الله الموجبِ لمحبَّةِ الله

لعبده، كما قال رسول الله ﷺ مخبرًا عن ربّه تعالى: **«حقَّتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فيَّ»**، وربما يناله في الدنيا قبل الآخرة نصيبٌ من إظلالهم في ظِلِّ العرشِ، فإنَّ المحبوبين دائمًا في ظلِّ العرشِ بقلوبهم وأرواحهم، فإنَّه وَرَدَ: **«أينَ المتحابُّون بجلالي؟ اليومَ أُظِلُّهم في ظلِّ عرشي يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلِّي»**، وذلك موجبٌ لوجود المحبةِ حقيقةً، فإنَّها ربَّما كانت دعوى.

إذا عُلِمَ ذلك؛ ففوق ذلك مرتبة أعلى منها في الحبِّ في الله، وهي التعارفُ الروحيُّ بين المحبِّ وبينَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ القائمين بحقائق الخُلَّة والاصطناع والاجتباء، كالخليل عليه السَّلام، وموسى الكليم، وعيسى سيد الروحانيين، ونوحُ الباكي الخاشع من عظمة الله، ومحَمَّد خطيب الأنبياء، وإخوانهم في الرسالة والنبوة، فإذا انبعث من القلبِ التألف بهم، والأنسُ بذِكْرهم، والشوق إلى لقائهم، **فذلك من الأقسام العالية في الحبِّ في الله**.

ومن علامات وجود المحبة في المحبِّ بغير دعوى ولا تكلُّف؛ إذا علم ذلك وعرف أنَّ من علامات وجود المحبة وجود النسبة بين المحبِّ وبين المحبِّين، والتآلف معهم بتلك الرابطة، فأعلاهم من وجد ذوقَ الحب في الله مع محمَّد ﷺ.

أوَّلُ ذلك شعور القلب ببارقةٍ من نصيبه الخاص من الخُلَّة، والمحبوبيَّة مع ربه، فإنَّه أكملُ الأنبياء محبة، وأعلاهم خلَّةً، وهو الحبيب والخليل، كما قال ﷺ: **«ولكن صاحبكم خليل الله»**.

فإذا شعر القلب بنصيبه مع ربه، ثم وجد الشاعر بذلك تآلفًا معه

فيما يشعر به من وجده بربه، فذلك أعلى أقسام الحب في الله، وعند ذلك يصير حال العبد محمَّديًّا حقيقةً، إذا اتصل بحال نبيه، وامْتحَتْ رؤية شيخه الذي أوصله إلى النبي ﷺ من بين يديه، ونظر إلى النبي ﷺ من مشكاة نفسه، لا من مشكاة شيخه، فإنَّه ربَّما نظر المريد في الابتداء إلى الرسول من طاقة شيخه، حتَّى ربَّما كيَّف الرَّسول ﷺ أحيانًا في سرِّه بكيفية شيخه، وإذا ارتقى إلى هذه الرتبة، صعد عن الوسائط إلى الرَّسول ﷺ، وتلقَّى منه الحب الخاص، وتآلفت روحه مع روحه حقيقة، كما تلقى منه علوم الأحكام والسنن والآداب والشريعة، فتلك كيفية منورة ذات أنوار، ولتآلف الحال[1] معه ﷺ كيفية جاذبة، مأخوذة من معادن الخلة والاصطناع والاجتباء، بانجذاب الروح ووجود المحبوب الأصلي المتعارف فيه حقيقة تلك الصفة الموجبة كذلك كما قيل:

وما هو إلا أن ظَهَرْتَ لناظري   بأكمل أوصافٍ على الحُسن أَرْبَتِ

«فحليت لي البلوى»، يعنى الانجذاب في المحبة والتعظيم، وهو ابتلاء السرّ، «فخليت بينها وبيني، فكانت منك أجمل [. . .][2] حليتي».

فإذا عُلم أن أعلى المشاهد مشاهد الروح، لأنها توجب المحبة والانجذاب إلى المحبوب، فما أحسنها حالة ورابطة بين المحب والمحبوب، وما أشرفها نسبة.

---

(١) في المخطوطة: «والتآلف في الحال معه ﷺ».

(٢) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات.

فلو قال القائل: كيف الطريق إلى دوامها؟

الجواب: الحسّ الظاهر هدفٌ للعوارض المُشغِلة للقلوب بواسطة الحواس الخمس، فالقلب يشتغل تارة بما يرى أو بما يسمع، وأمثال ذلك، والقلب هدف لخواطر النفس، من الإرادات والعلق، فإذا كان هناك خميرة من الحبّ، تحجبها العوارض، فالطريق إلى تنميتها وظهورها حسم مواد التفرق الظاهرة بالعزلة، وحسم مواد العوارض الباطنة بحفظ الخواطر، واستخراج اللطيفة الإنسانية من بحر الطبع، فإذا وُجِدَتْ فتعليقها بالمحبوب، والأحوال الخاصة بالأنبياء والصديقين تؤنس الروح في ذلك المعنى الخاص، كما أن المواد العلمية الشرعية تؤنس القلوب في دائرة الإيمان.

وبالله المستعان، وعليه التُّكلان، والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٤)

قاعدة في ذِكر أسباب المحبّة لله تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فصـل

الأسباب التي تتركب منها محبة الله تعالى

إذا شاهد معرفته ومعرفة نعمه وآلائه، والتفكر فيها، والتفكر في مصنوعاته، وحِكَمه الخفية في المخلوقات، مثل التفكر في:

أسباب موادِّ غذاء الحيوانات، من القطر والنبات.

وفي حكم آلات الاغتذاء بها، من الأضراس والحلقوم والأمعاء، وغير ذلك.

وفي التوالد والتناسل وآلاته، وأوعيته، والحِكَم المودعة فيه، والشهوة المركبة في الذكر والأنثى، وكون الشهوة هي سبب ذلك الاجتماع، الذي لولا الشهوة لعافته النفوس، ثم أوعية الحمل، والقدرة الإلهية، والرحمة الظاهرة في الخلق، ثم في الولادة، وتوسيع الأماكن الضيقة.

وفي الحكمة من احتياج البعض إلى البعض في المعايش والصناعات، وكون الافتقار لها سببًا لحرص كل صاحب صنعة على

إقامة صنعته، وكيف يستفيد ذلك بالصنعة، ويرتفق بها، ويستفيد صاحب الصنعة بأجرة صنعته، أو ثمنها، أو غير ذلك من الحكم الإلهية، والرحمة الظاهرة بالخلق، من الرياح الدِّواية، والسحب الماطرة، والشمس والقمر والنجوم، وما تتضمنه من المنافع بطريق الذات، كالحرارة في الشمس، والبرودة والنور في القمر، وبطريق العرَض والاهتداء، أو معرفة الفصول، ثم تسخير المراكب في البحر الزاخر المكدي، تجلب منافع الآدميين، في تجاراتهم، والدولية المحسوسة في هذا الكون، لقيام أسباب المخلوقات، وذلك بحرٌ عميق للمتفكِّرين.

ومن أسباب المحبة: الإيمان بصفاته المقدَّسة، الواردة في التنزيل، من حياته وعلمه وقدرته وكلامه وسمعه وبصره، وإرادته ومشيئته، وعلوِّه وفوقيَّته، ووجهه الكريم، ذو الجلال والإكرام، الذي ليس كمثله شيء، ولا تشبَّه صفاته بشيء، ومن نزوله إلى السماء الدنيا، رحمة لعباده، وقربًا إليهم، ليجيب داعيهم، ويقبل توبة تائبهم، ومن معيَّته مع عباده، وقربه منهم، ورحمته لهم، ومن رؤيته يوم القيامة، في عرَصَات القيامة، وبعد دخول الجنة، كما يُرى القمر ليلة البدر، لا يُضامون في رؤيته، ومن تجلّيه ضاحكًا، ومن كلامه يوم القيامة لعباده.

ومن الأسباب الموجبة للمحبة ـ أيضًا ـ الصفات التي تدل على كماله، فإنَّ الكمال ـ أيضًا ـ من موجبات المحبة، وهي قهره وانتقامه من أعدائه، وشدة بطشه وعظمته وهيبته، وسلطانه، وكبريائه وجبروته وجلاله، فذلك ـ أيضًا ـ دالّ على كماله، فهو يوجب الخوف

والمهابة من وجه، ويوجب المحبة والتعظيم من وجه آخر، وهو وجه الكمالية.

ومن الأسباب: تلاوة كلامه العزيز بالتدَبّر، كأنه يسمعه من متكلّمه، يخاطب به نبيَّه ﷺ، ويقف على مفهوم خطابه، من وعده ووعيده، وترغيبه وتحذيره، ويتجلّى منه تجلّياته المقدسة التي تقدَّمَ ذكرها، فذلك مفتاح المعرفة، ومهيِّج للحب والتعظيم، بمشيئة الله تعالى وعونه.

ومن الأسباب الموجبة للمحبة: التوبة إليه، وطاعته واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والنصح في معاملته، وأن يتخذ عنده دائمًا عبودية مدَّخرة، كدرهم يتصدق به لوجه الكريم، أو ركعتين يصلّيهما لوجهه الكريم، أو يقضي حاجة لأخيه المسلم لوجهه الكريم، أو ينفّس عن مكروب لوجهه الكريم.

ومن الأسباب الموجبة للمحبة من الطرفين: اتباع سنة رسول الله ﷺ، والاقتداء به في أخلاقه وفي أفعاله، وسنته وآدابه، بحيث يجعل طريقتَه سنةَ الرَّسول ﷺ، فذلك موجبٌ للمحبة من الطرفين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن الأسباب: دوام ذكر الله تعالى، ومراقبته، والحياء من نظره، وانجماع الهمّ على إرادته، واستشعار القرب من علمه وبصره، فبذلك تتأكد بعون الله المعرفة، والمعرفة موجبة للمحبة، وبهما يحيا موات القلوب بوابلِ مطرِ أذكارِ علّام الغيوب.

فصل

والأسباب الموجبة لمحبة الله تعالى لعبده ـ بعد مشيئته أيضًا ـ ما سبق ذكره، ويحصل كمالها بمشيئة الله تعالى **بتحقيق التوبة** ظاهرًا وباطنًا، في الحركات والخطرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، **وبالعدل** في الظاهر والباطن، فيما يقوله ويفعله، ويخطر له، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، **وبالصبر** على مكروهات الأوامر والنواهي، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، **وبالإحسان** ظاهرًا وباطنًا، وهي مرتبة فوق العدل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهو الإحسان الزائد على ما يجب شرعًا، في الأقوال والأفعال والهموم والخواطر، بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين العباد، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ثم من الأسباب: التوجه إلى حصول محبة الله تعالى له، ومن كان متوجّهًا إلى ذلك، فإنَّه يطلب مراضي من يطلب محبته له بكل ممكن، ويتجنَّب مساخطه، ويحفظ دبيب الخواطر في سره حذرًا أن يجري فيها مكروه، فيُمقت، ولا تحصل له المحبة منه، بذلك المكروه، فهو أبدًا يعمل على طهارة القلب عن الأدناس، ويسارع إلى مراضي الرب تعالى بكل ممكن، فإذا فتح الله له بهذه الهمة، وبهذه الأعمال، ورزق دوام الاستعانة بمولاه على حصول هذه المرتبة، ومضت عليه الأيام والشهور والأعوام، ووجده قائمًا فيها بالأوامر، منتهيًا عن الزواجر، طاهر السرّ عن الهيئات المؤخرة المبعدة، لا يوجد

منه إلَّا الطهارة ظاهرًا وباطنًا، فمثل هذا يرجى أن تناله هذه الرحمة الخاصة، برحمة الله ومشيئته، ولا يستبطئها ولو بعد حين.

ولها علامات: فمنها الحفظ عند الاستشراف إلى النقص والجفاء، وحمايته عن الهنات، في ظاهره وباطنه، ودوام تجلي الرحمة الخاصة الجمالية الجلالية على روحه، والتعريف الخاص له بما يراد منه، في أغلب الأوقات، في النوم واليقظة، موزونًا بالكتاب والسنة، يستخير في أمرٍ، فيُمنع منه، أو يُيَسَّر له، فيعلم أن ذلك برضا سيِّده، ومولاه، وحبيبه، ويوقظ عند الفرائض إذا حصلت منه غفلة، وتُلقى له المحبّة في قلوب الأولياء أهل الصفوة، وربما كان ذلك عامًّا، وقد لا يكون.

وهناك أمور كثيرة: من ذلك علامات لا تنضبط، وجُملتها، أن يوجد في القبضة، ويتولى في الجزئيات والكلِّيات، لا بمعنى أنه يبقى معصومًا، بل لا بد أن تجري عليه ـ بحُكم البشرية ـ الهَنَات، ويوجد منه عندها الكآبة والندم والتوبة، مع مشاهدة الأقدار والأحكام، فيعبد مولاه بالتوبة في مقابلة الذنب، ويستجير برحمته من نقمته وسخطه، مستعينًا به في مقابلة القدر والحكم.

وفي الجملة؛ فالله تعالى وليّه وكافله، ومتولّي حركاته، وهذا المعنى هو ما ورد فيه: «فبه يسمع، وبه يُبصر، وبه يَبطِش»، أي: يتولّاه مولاه في ذلك كلّه.

فنسأل الله أن يجعلنا منهم، بمنِّه وكرمه ورحمته، آمين. والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.



(٥)

قاعدة في أسباب محبّة الله تعالى معرفته وأسباب معرفته

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الإيمان بما أنزل على رسوله ﷺ، ومعرفة سيرة الرَّسول ﷺ، ومعجزاته، وغزواته، وابتداء نبوته، فبذلك يُعلم عِظَم شأن النبوَّة.

ومتى عُلمت النبوة، ورسخت في القلوب، كان من لوازمها معرفة الرَّب العظيم المرسِل، لأن النبوة والرسالة آياته وبيِّناته ودلالاته وتعريفاته لمن اتبع فهمه، وصفا، وأحبَّ ذلك.

وأمَّا من أحبَّ الدنيا ومناصبها، فإنَّه يضيق قلبه عن شهوة المعرفة، ومن ضاق قلبه عن شيء لم يستعدَّ له، ولم يتجاوز صورة الشريعة، وظواهر أحكامها، إلى حقائق أسرارها، ومعارف الرب تعالى منها، فلا يشرق في قلبه أنوار الأسماء والصفات، ولا حكم الأفعال.

ومن أحب معرفة الله تعالى، وعزفت نفسه عن الدنيا، ومناصبها وشهواتها، صعد من ظاهر السّنة إلى باطنها، وعرف المراد من الرسالة، وهو النور المستجِنُّ في ضمن الشرائع والأحكام، فهي ستر على النور، فمن خرقه باشر قلبه بعون الله تعالى: صفو الإيمان،

وعرف الرب تعالى، الباعث للأنبياء بشرائعه وأحكامه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، بحيث تلوح آثارها في قلبه المرتاض المطَهَّر، المحب العارف، الزاهد في الشهوات والرياسات، المعمور بالقرب والطاعات، ومتى عرف أحبّ، ومتى أحبّ لزم من المحبة الطاعة، فإنَّ المحب مطيع لمن أحبه فيما أمره به، ونهاه عنه.

ومن لوازمها: دوام التقرب والمعاملة، فإنَّ المحب متحرِّك إلى من أحبه، بظاهره وباطنه.

ومن لوازمها: الرضا عنه، فإنَّ المحب راض عمَّن أحبه، وإن جاء منه ما يسوؤه في الشاهد، فكيف بمن لا يختار لعباده ومحبِّيه إلَّا الأصلح؟ ولا يقضي لهم قضاء إلَّا كان خيرًا لهم، وإن خفي ذلك عنهم في الظاهر، فهم لا يتهمونه في أقضيته، ويؤمنون بحكمها، ومصالحها.

ومن لوازمها: طلب محبته، فإنَّ ذلك من أكبر بغية المحبِّين.

ومن لوازمها: دوام الاستعانة، فإنَّ معرفة الاقتدار، وصحة طالب محبة الله تعالى له، والرضا بكل حال عنه، والاستعانة في كل مطلوب منه به، والطاعة له فيما أمر في ظاهر الجسم، وفي دبيب الخواطر، يرجى أن يستعدَّ بذلك لمحبة المولى الكريم، إذا شاء لزوال الأسباب، المقت والإعراض من العبد، فإنَّ أسباب المقت والإعراض والبغض منها: **الإعراض**، وهذا مقبل بطلبه، لمحبة مولاه له، فيستحق إذا شاء أن يقبل بالمحبة عليه.

ومنها: السخط بالمقادير، فيستحق إذا شاء أن يرضى عنه، والرضا بساط المحبة منه له.

ومنها: الاستبداد وإظهار القوة الغناء، وهذا مستعين مفتقر، ويستحق أن يعان، ولا يوكل إلى غيره.

ومنها: تدنس الظاهر أو الباطن بشيء من المخالفات، أو ترك المأمورات، وهذا طائع والطائع يستحق إذا شاء أن يرحم، والرحمة من مواد المحبة، فجملتها الإرادة والرضا والاستعانة والطاعة.

وإنما جاء الترتيب هكذا لأنه في أعلى المراتب، فتذكر مرتبة مرتبة، ثم التي تليها[1]، ولو كان في البداية لا يعكس الترتيب، وكان حال المبتدي أولًا الطاعة، ثم إذا انكشفت الأقدار، كان حاله الاستعانة، ثم إذا اضطربت النفوس في الأحكام الرضا، ثم إذا لاحت الحقائق الإرادة.

وبالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(١) في المخطوطة: الذي يليها.

(٦)

قاعدة في مقاصد السالكين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي ملكوت كل شيء بيديه، وهو يجير ولا يجار عليه، ويصير الكل بعد فنائه إليه.

وأشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، إلـٰه البريَّات، وقيُّوم الأرض والسموات، وأشهد أن محمدًا ﷺ صفوة الأمم والمخلوقات، المبعوث بأوضح البيِّنات، صلَّى الله عليه وعلى آله، ممرّ الدهور والأوقات.

مقاصد السالكين تتنوع أنحاؤها، وتختلف غاياتها:

فمنهم: من تقف به همَّته على الأمر المطلوب، من أشرف المطلوب، وأكمل الأسباب.

ومنهم: من ينحرف قصده، فيضيع سعيه، وينقص فضله، فالمنحرف من القاصدين يقصد فضيلة الحال ورياسته، ليرتقي عن نقص الإفلاس، ويكون من أهل الأنفاس، فيعظم بذلك عند نفسه قدره، وعلامته أن يزدري بمن لا يفطن، ولا يوفيه حقه.

ومنهم: من يطلب نفوذ الكلمة، والتصرف في الأكوان، والتأثير في المخلوقات.

ومنهم: من يطلب رياسة استتباع الخلق له، وعكوفهم عليه، وإشارتهم إليه.

ومنهم: من يطلب بذلك جمع الحطام، والتأكل بدينه وحاله عند الأنام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، علامتهم أن يفروا إلى الله تعالى من نفوسهم، وممَّا صنعت وفرَّطت في جَنْب الله تستعِدُّ بالتوبة النصوح، للقاء الله تعالى، لتقرَّ عينها بلقائه، ولتلقاه بوجه أبيض، يوم تسود وجوه أعدائه، لا يزال كذلك حتَّى يشرق لها أنوار القلوب، وهي أنوار تنافس بها، فتنهض بذلك إلى سلوك ثان، وهو الطلب والإرادة لقرب الله تعالى، لأنهم في الأول لمَّا لاحت لهم الآخرة هربوا من الذنوب إليها بالتقوى والطاعة، فلمَّا لاحت لهم بوارق المطلوب فرُّوا من كل شيء إليه.

وهم في هذه الرتبة الثانية إليه، يعملون على تفضيل المشاهدة القلبية على العقائد الإيمانية، لينفذوا من دينهم إلى أحوالهم، ومن أحوالهم إلى دينهم، بحيث لا يبقى دينهم من صوب، وحالهم من صوب آخر، فلا يزالون كذلك حتَّى يكمل لهم التفضيل، ويرتقون إلى المشاهدة؛ السر الجامع لجميع المشاهد والصفات، ثم يعملون على ثبات قدمهم على الكشف لهم، فإنَّ أشقّ شيء على المحبين غيبة محبوبهم عنهم، فإذا دام لهم عملوا على العبودية وتحقيق مبانيها في حضرة مشهودهم، من الحياء والمهابة والخوف والتعظيم والمحبة، فإن تلوا القرآن كأنهم يسمعونه منه، وإن قاموا بوظيفة من وظائف أوامره حققوا هيئتها، وحضروا مع معناها، وإن أنعم عليهم شكروا،

وإن أذنبوا رجعوا إليه واستغفروا، وإن أُمروا ائتمروا، وإن نُهوا انتهوا، وإن ابتُلوا رضوا وصبروا، أو بثوا أمرهم إليه، مستغيثين به من بلائه، مستعينين به على إقامة عبوديته.

فإذا كمل ذلك بتوفيق الله صعدوا إلى سلوك آخر، وبداية أخرى، وهو العمل على محبة الله تعالى لهم، ورضاه عنهم، وهذا يقتضي سلوكًا دقيقًا، وتقوى عميقة في القلوب والأسرار، لأنها محل نظر الحق تعالى، فيصونوها عن دقائق المكروهات، ودبيب الخَطَرات، يقصدون بذلك حقيقة الطاعة له، ويهربون بذلك عن خفايا المعصية له، ويظهر منهم بذلك حقيقة المحبة له.

فهؤلاء غايةُ أملهم رضا مولاهم عنهم، ومحبته لهم، ويطلبون مع ذلك عافيته، وكفايته، لا ينقطعون، وحينئذ يشرعون في سلوك المحبوبين، ولهم ذنوب خاصة، نذكر من ذلك طرفًا.

اعلم أنك إذا أردت تقليل شيء من طاعة أو معصية، أو خير أو شرٍّ، فأنت بمجرد إرادتك لذلك المعنى معه لا تفارقه، فأنت بإرادتك لصلاة تكون معها، أو لفاحشة تكون معها.

فالإنسان بإرادته يكون مُصَلِّيًا عابدًا، وعاصيًا، مغتابًا، وزانيًا، وشاربًا، ولائطًا، لأن الحقيقة الباطنة قارنت ذلك الفعل وإرادته، فإنَّ القلوب تقرب من الأشياء وتمتزج بها بمجرد الإرادة، وليست القلوب كالأجسام يكون بينها وبين الأجسام الأخرى مسافة، فإنَّ القلوب متى أرادت وعرفت طريق إرادتها، لم يكن بينها وبين ما أرادته مسافة بالباطن، وإن كانت بالجسم مستورة عنه.

فالقلوب[1] تحُجُّ، وتصلِّي، وتتصدق، وتزكي، وتعرج في السموات، وتكون بين يدي مولاها، ومع الرَّسول ﷺ، وكذلك تكون في الضدّ من القبائح: تكفر، وتبتدع، وتفسق، وتلوط، وتزني، وتكون مع المرأة تضاجعها، وتتلذَّذ بها، وتنظر إلى فرجها بالحقيقة الإنسانية، ومع الصبيّ تعانقه، وتضاجعه، وتنظر إلى عورته، وتباشره.

فاعلم أنه لو كُشف للعبد عن حقيقة الإنسانية حين إرادته لشيء من ذلك، وعكوفه بقلبه عليه، وجد حقيقته مع ذلك الشيء بالمعنى والحقيقة، وإن كان غائبًا عنه بالجسم، بحيث لو مات الإنسان في تلك الحالة كان ذلك خاتمته، ولقي الله متلطِّخًا بباطنه بذلك، متنجِّسًا به.

ومثل هذه الذنوب تَهُون على العامة والعبَّاد، يقولون: ما عملنا شيئًا بأجسامنا، فيتوبون من ذلك، وتقبل توبتهم، ما لم يُحدِّثوا أو يعملوا.

وأمَّا المحبُّون لله تعالى، العارفون به، الذين قد صارت قلوبهم محلّ نظره ومشاهدته، يَرَوْن اليسير من ذلك أمثال الجبال الراسية، فهم يحذرون على قلوبهم، التي هي محلُّ السرِّ الإلهي، أنْ تتنجَّس أو تتلطّخ بشيء من القاذورات والنجاسات، كما يخافون[2] سَدَنةُ قصرِ الملِك على محلِّ نظر الملك، ومَجالسه، يسير الأنجاس والأقذار،

(١) في النسخة: (فالمطلوب). وهو خطأ من الناسخ.
(٢) هذه لغة من قال من العرب: أكلوني البراغيث.

ويبادرون إلى غسل اليسير من ذلك، وتنظيفه، تطهيرًا لمواطن مجالس الملك، ومحالّ نظره.

وقلوب المحبِّين عرش الرحمن، أيْ عرشٌ لعَظَمته، ومحبّته، وهيبته، ومخافته، وهو عرشٌ للمَثَل الأعلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الروم: ٢٧].

فذلك المَثَل به يُعرف الله تعالى، وبه يُعبد، وبه يُخاف، وبه يُهاب، وهو محل المعرفة من قلوب العارفين، فيصونون محلَّ المَثَل عن مِثْل هذه الخَطَرات السيِّئة، والهِمَم الدنيَّة، كيلا يتنجَّس محل النور الأعظم، ولأنها بين يديه، فهي مستخفية من نظره واطِّلاعه، أن يجد في قلوبهم ما يكرهه ويمقته ويبغضه، وهم على قدم طلب محبَّته لهم، ورضاه عنهم، وذلك ينافي قصدهم، ولأنهم يرون أن عمل القلب أبلغ من عمل الظاهر، من الخير والشرِّ، من وجه، لأن الظاهر تبع للباطن، والجوارح آلات الحقيقة الإنسانية، فلذلك صار أبلغ من عمل الجوارح من وجه، إلَّا أن في عمل الجوارح يكون قد كمل الفعل بظاهره وباطنه، وقلبه وروحه وجسده، فلذلك تجب حينئذ عقوبته الشرعية من الحدِّ والتعزير وغيره.

ومن انتهى به سلوكه من التوبة إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى التفصيل الشرعي، ثم إلى العبودية وأقسامها ومرآتها، ثم إلى طلب محبة المولى الكريم لعبده، فإنَّه يطيعه باطنًا، ويتَّقيه بقلبه حق التقى، لينال بذلك محبته له، يحفظ سره من الحب والبغض لغير الله، ومن الرياء والكبر والحقد والحسد والخيلاء والعُجب، ومن جميع

المكروهات، فإنَّ هذه الأشياء متى هي باشرت القلب نظر الله إليها في قلب العبد، فيبعد بذلك عنه، وعن محبته، ويُخشى من مقته له، وإعراضه عنه.

وتمتزج هذه الخبائث مع ذِكر الرب، وتدنس نور القلب، ويكون المريد إذا أحب شيئًا كرهه الله تعالى، كشخص إحدى عينيه ملاحِظة للملك، والأخرى ملاحِظة للمرحاض، أو شيئًا من الرذائل المبعدة، وذلك فضيحة مع الله تعالى في سلوكك، ووليجة قبيحة في طريق المحبِّين، أعاذنا الله وإياكم من موجبات وأسباب إعراضه ومقته، آمين، يا ربّ العالمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.



(٧)

قاعدة في بيان عَمَل يومٍ وليلةٍ للأبرار وعمل يوم وليلةٍ للسّائرِين إلى طريق المقرَّبين، جعلنا الله منهم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه الإعانة

اعلم ـ وفَّقنا الله وإياك لما يحبه منَّا ويرضاه ـ أن الأبرار هم التوَّابون، إذا انتبهوا من منامهم اهتمُّوا بإقامة أمر الله عزَّ وجلّ؛ من الوضوء والصلاة كما أمرهم الله عزَّ وجلّ.

فإذا صلّوا صلاة الصبح، اشتغلوا بفنون الأوراد، من التلاوة، والتسبيح، والتحميد، والدعاء بما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ثم يقصدون مجالس العلم والمواعيد، التي يُذكر فيها أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده، وتفسير كلام الله وسنة رسوله ﷺ، فتشرق قلوبهم من قسوتها، وتتنوَّر أسرارهم بنور العلم بعد جهلها، وتثور فيها بواعث الخيرات، والمسارعة إليها، مع المسابقة لفوتها، فتتجدَّد على قلوبهم عزائم الصيام، والاجتناب للآثام، والصدقة والإطعام، وربما اشتاقوا إلى مجاورة البيت المكرَّم المحرَّم، أو بيت المقدس لتضاعف الأعمال فيها، هذا ونفوسهم ميَّالة تسابقهم إلى الشهوات، وهم

يتعبَّدون الله بمنعها عن ذلك، واللوم لها إذا قارفَتْ شيئًا من ذلك. وهم أهل تودُّد، وتراحم، وتواصل، يعاشرون المؤمنين بالرحمة، والرفق، وغير ذلك من الأخلاق المشروعة.

فإذا فرغوا من الميعاد، ركعوا صلاة الضحى، ودعوا ربهم في مهامِّ دينهم ودنياهم وآخرتهم.

ثمَّ مَن كان منهم له سببٌ قصد نحوه، ليتعفَّف به الخَلْق، ويتصدق منه ويؤثر، وإن كان مفطرًا طَعِم شيئًا مما رزقه الله من القوت الحلال.

لا يبرح كذلك إلى قريب الزوال، فينهض متهيئًا للصلاة بالوضوء التام، والقصد إلى التهجير، كما ورد في السُّنَّة: «**ولو علموا ما في التهجير لاستبقوا إليه**»، وقصد الصفّ الأوّل، عن يمين الإمام، كما ورد: «**ولو يعلم الناس ما في النداء، والصف الأول، ثم لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا**»، أو كما ورد: «**إن الله وملائكته يصلُّون على ميامين الصفوف**».

فإذا قامت الصلاة قام إلى الصفّ وسدّد الخلل، كما ورد في السّنة، وعمل على قطع الخواطر في الصلاة، وعلى فهم ما يقول، ومع من يقول؟ فنفسه تجول في الدنيا وأفكارها، وهو يُجاذبها ويدافع الخواطر، كلما قرأ آية طالب نفسه بفهمها.

وإذا ركع وسجد تواضع قلبه، كما تواضع بدنه، فإذا سلَّم انصرف وهو غاضٌّ لبصره، حافظٌ للسانه، مُعرضٌ عن البطَّالين، وأقران السوء، إمَّا إلى سببه الذي كان فيه أوَّل، وإن كان كُفيَ المؤنة

نظر أفضل الأحوال، على ما دلَّ عليه العلم، فإنَّ رأى جمعيته في العزلة والعبادة قصد نحوها، وإن وجد أن مزيده في الميعاد واستماع العلم راح إليه، وإن قصده أخ يستفيد منه أفاده، بشرط ألا يتعاشروا.

ولا يبرح كذلك إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء، على هذا النمط، يُقدّم الأَوْلَى فالأَولى، والأفضل فالأفضل.

فإذا انصرف إلى منزله، وقعد على فراشه لينام حاسَبَ نفسه؛ هل ارتكب في يومه معصية؟ أو عمل عملًا مفضولًا من الخير، وفوّت به على نفسه عملًا فاضلًا، فيجدِّد التوبة من سائر الذنوب والمناقص، ثم قرأ شيئًا من القرآن، وذكر الله تعالى، ونام على فراشه طاهرًا.

وإن تعارَّ من الليل قال: «**لا إله إلّا الله...**» إلى آخرها، كما ورد في السّنة، فإذا استيقظ للتهجد، استاك كما جاء في السُّنَّة، وقال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**».

ثم يتوضأ ويدعو الدعاء المشروع، قبل الصلاة: «**اللَّهُمَّ رب جبريل وميكائيل...**» إلى آخره، و«**اللَّهُمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض...**» إلى آخره، ثم صلَّى إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة ركعة، يطيل قراءتها، وركوعها وسجودها، كما وردت به السُّنة.

فإذا فرغ وتمكن الثلث الأخير، وجاء الوقت الذي أُخبرنا فيه بالنزول، فيكثر فيه العبد من الدعاء والتضرع والابتهال في مصالح الدنيا والآخرة، إلى أن ينفجر الفجر، فإذا انفجر الفجر، صلَّى ركعتي

السُّنَّة، وخفَّفهما، واضطجَع عقيبهما، كما وردت به السنة، ثمَّ خرج إلى مسجد الجماعة لصلاة الفجر، ثم عادَ إلى دُولابه الدائر حتَّى يأتيه اليقين.

وأمَّا عمل يوم وليلة السائرين إلى منازل المقرَّبين، فهو أنَّ أحدهم يبيت مهمومًا بمحبة الله عزَّ وجلّ، قد حشت المحبة عروقه وأوصاله، وامتلأ باطنه من ذِكر الحبيب، فأنساه ذكر غيره، فإذا انقلب إلى فراشه صعدت أنفاسه المحترقة إلى مولاه؛ ذكر وجوده واطلاعه، فربما سُلب حلاوة النوم أحيانًا، فهم أهل الأرق والقلق، لولا أن الله عزَّ وجلّ مَنَّ عليهم بالسكينة والراحة، لتَقَلْقَلَت أدمغتهم يبسًا، وضعفت أوصالهم وهنًا، لأن العزيز ـ سبحانه ـ تلطف بهم، فحجبهم أحيانًا ليعود إليهم رُوعُهم، فتدوم عافية أجسامهم، ولا يُرى عليهم أثر ذلك، لأن الصدق غطى عليهم أحوالهم، فهم يتحدَّثون كما يتحدث الناس، ولا يعلم الناس ما انطوى عليه بواطنهم من ذلك.

فإذا استيقظوا من منامهم، صعدت إليه همومهم، مشتاقة طالبة عاكفة محبة، كالحبيب الذي غاب عن محبوبه ومألوفه بالمنام، فلما استيقظ عاد إلى الحنين إليه، وإلى وجوده، ثم ينهض إلى ما ينهض إليه الأبرار، من الأعمال المأمور بها.

فإذا صلَّى صلاة الصبح ذكروه بما تيسَّر من الأذكار المشروعة، فإذا فرغوا أطرقوا بين يديه، هيبة وإجلالًا، وسلّموا إليه ملكه وتدبيره، فلم يزاحم تدبيرُهم تدبيرَه، ولا اختيارُهم اختيارَه، وجدوه ملِكًا قاهرًا قابضًا على نواصي الخلق، هو المتولي لدولة أمورهم، في أسواقهم

ومعايشهم، وتقلُّبات أحوالهم، فسلموا إليه ملكه، ولم يُدخلوا أنفسهم معه في تدبيره، من الاهتمام في الماضي، والتدبير في المستقبل، هو أجلّ وأعزّ في قلوبهم، لم يغيبوا عن ملاحظة تدبيره طرفة عين، وهم أذكى وأعلم من أن يجهلوا وينسوا تدبيره فيدبروا أنفسهم بكذا وكذا.

فلمَّا لاحظوا ملكه وقهره وقبضته على الخلائق، وأسره لقلوبهم، فالقلوب بين أصبعين من أصابعه ـ سبحانه ـ يقلِّبها كيف يشاء، كما ورد في الحديث، فغلب هذا العلم على قلوبهم، ففقدوا شأن مشيئاتهم، فلم يجدوا لهم مشيئة مع مشيئته، بحيث يحتاجون إلى نفيها، غلب على قلوبهم العلم به وبتدبيره، بحيث صار واضحًا كالنهار، وعرفوا أن التدبير من الجهل بالعلم بالله وتدبيره، فنفى العلم بالله عزَّ وجلّ الجهل عن قلوبهم، فامَّحت المشيئات عن قلوبهم محوًا، فنسوا نفوسهم ومصالحهم لمَّا شاهدوا الأمر بتدبيره وفي قبضته، فصاروا بذلك عبيدًا له، تقلِّبهم يد القدرة، ويدعوهم لسان الأزَل، فصار أحدُهم ابنَ وقته، لا ينظر وقتًا آخر يدبّر نفسه فيه، لأن الوقت الآخر بيد مؤقّته، فهم أمواتٌ، تدبيرهم كتدبير أهل القبور؛ هل ترى لهم حسًّا أو حركة؟ فكذلك هم في التدبير، وأما في الأمر فأحياء أقوياء، يدبرون ويختارون، وبالله في عبادته يستعينون.

فإذا طلعت الشمس، وركعوا الركعتين، ينظرون ما تنشرح له صدورهم من الأعمال الصالحة، والأوراد، وسماع العلم، وغير ذلك، يقصدونه ناظرين إلى مولاهم الذي حركهم، مستعينين به أن يوفقهم لما يحبه، وعيونهم في كل لحظة شاخصة إلى ما يُبْرِزه من مشيئاته عليهم، المختلفة المتواترة، التي تَرِدُ على العبد، كالليل

والنهار، بغير اختيار منه، فهم يقابلونها بمقتضاها من العبودية، ولا يتأذّون ممن يؤذيهم، لأنهم يرون نواصيهم بيد مولاهم، فإن ابتلوا بالأذى فنوا ورضوا وصبروا، ودعوا برفعه، **فهذا عبودية الوقت**.

وإن أقامهم في طاعة وعبادة، أو رزقهم علمًا ينتفعون به، أو سخّر لهم شيخًا يرشدهم إلى نجاتهم، وطِبّ أمراضهم، رأوه فضلًا من مولاهم، فشكروه عليه.

وإن أخذهم عبد من عبيد مولاهم إلى منزله ليطعمهم، راحوا معه بشرط أن تتحمَّل قلوبهم المنة، ويشترط ألا يكون من أهل النفوس المنَّانين، فإنَّ طعامهم سم القلوب، فأولئك يعتذرون إليهم باللطف والاعتذار، ويهجَرون هجرًا جميلًا.

وأمَّا المؤمنون الصالحون فيأكلون من طعامهم، ويكافئونهم بالدعاء، ويشكرون مولاهم، الذي أنعم عليهم بأن سخّر لهم قلوب عباده، التي هي بيده، فهم قط لا يشهدون الوسائط، إلَّا بالقصد الثاني، ويشهدون الأوّل ـ سبحانه ـ بالقصد الأول، فكل منظور يدلهم عليه فيسبق نظرهم إليه، قبل الثواني والوسائط، بخلاف الأبرار، فإنَّهم يشهدون الوسائط بالقصد الأول، ويكابدون نفوسهم على رؤية الفاعل مكابدة، وإن ابتلوا بمعصية من غير قصد رأوا حكمة مولاهم في ذلك أوقعهم في الذنب، ليريهم العجز ونقصهم ومحلهم ليتوبوا إليه، فيعاملهم ببره وحلمه وجوده، فيُعبد بالتوبة، ويتصف بصفة الغفار والجود، فيجود عليهم بالمغفرة.

ثم هم يستعملون أعمال الأبرار كلها، ويزيدون عليهم بنفوذ البصائر في الملكوت، قد أخذت قلوبهم هيبة من ملاحظة مولاهم وأقداره فيهم، ينظرون مشيئاته في كل نفس، وينتظرون فَرَجه ورزقه الظاهر والباطن في كل ساعة، وعيونهم ممتدة إليه، مُعرضة عن غيره، قد أيسوا من غيره إياسًا ما عليه مزيد، ولم يطمعوا إلَّا فيه، قد أسر قلوبهم فأخذها في قبضته، بل قد غابوا عن كل شيء وذكروه عند رؤية كل شيء، بأنه فاعله وصانعه وقيّومه، فهؤلاء السادة ذنوبهم التدبير والتشهي والاختيار، كلما غفل أحدهم واشتهى ودبَّر رجع إلى مولاه بالتوبة، كما أن ذنوب الأبرار المعاصي الظاهرة.

وفي الجملة فما ذُكر لك جملة حالهم هم قوم قد حشا قلوبهم أنوار وجوده، وعَمَرها بملاحظة فعله، وافيًا بصفاته المقدسة شؤون نفوسهم، فصار أقرب إليهم من كل شيء، وفعله أقرب الأفعال إليهم، وقد ملكهم بأمره، فانقادوا له بالطوع والهشاشة، وقاموا بعبودياتها، كما تقدَّم في النعمة والبلية، والطاعة والمعصية، وسترهم بأنوار وجوده، فلا يرون غيره إلهًا، ويرون وجودهم قائمًا بقدرته، فانقهرت قلوبهم من وجوده وأمره وفعله، فتحقَّقوا بكلمة: لا إله إلَّا الله، على الحقيقة، وتحققوا بمحمد رسول الله ﷺ، في الاتباع، فهم أهل التوحيد في الاتباع والعبودية.

فهؤلاء عين الله عزَّ وجلّ ترعاهم، ولطفه يغذوهم، وشيطانهم حقير مدحوض، منكوص على عقبه، شاحب مغيَّر نحيل مريض، يزدادون كل يوم قربًا، ولهم على ساعات الليل والنهار تجلِّيات تظهر آثارها في قلوبهم، من نظرات العزيز الرحيم إلى قلوبهم وبواطنهم

بمشيئته ولطفه، فهم أهل الله حقيقة، سبقوا الناس فلم يُلحقوا بالأعمال، كما ورد: «**سبق المفرّدون**. قيل: ومَن هم يا رسول الله؟ قال: **الذَّاكرون الله كثيرًا والذَّاكرات**».

وفي لفظ: «وضع الذِّكر عنهم أثقالهم، فوردوا القيامة خفافًا». وفيهم مَن يدخل الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يَسْتَرقون، ولا يكتوون، [ولا يتطيَّرون]، وعلى ربِّهم يتوكَّلون.

فنسأل الله العظيم، الربَّ الرحيم، أن يجعلنا منهم، ويستعملنا بأعمالهم، ويمحق صفات نفوسنا بحقائق الإتقان والعرفان، إنه الحنّان المنان، والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(٨)

قاعدة في شرح حالِ العُبّاد والصوفيةِ الأفرادِ
جعلنا الله منهم بمَنّه وكرمه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، إلى يوم الدِّين.

العُبّاد يصطلحون على الأعمال، ويتآلفون في المواعيد ومجالس الأذكار، حِلْيَتهم السَّمْت والحُسن والنُّور في الوجه، والخشوع في الطَّرْف، ولهم مع ذلك نفوسٌ حادّة، ورياسة باطنة.

إذا صلَّى أحدهم ركعاتٍ معلومة، أو سبّح تسبيحاتٍ معدودة، أصبح نشيطًا نفسه قويَّة، ولها على أشكالها صَوْلة، إذا زلَّ أحدهم أو أخطأ يحتاج المعرِّف له أن يداويه، ويخضع له، ويقبِّل رأسه؛ تألُّفًا له، ليسمع الحق ويَعِيه، وقد لا يخضع له، فإنَّه عَبْدُ نفسه، عزيز عظيم عارف، يأنف مِن الردِّ عليه، والتعليم له، ويقول: مِثْلي يقال له هذا؟ ومثلي يُعلَّم هذا؟ خصوصًا إذا كان ذا إيثار وصَدَقات، فيرى فضْلَه على جميع العُبَّاد والفقراء، وربما يقول في نفسه: أنا أتصدَّقُ وهذا لا يتصدق، وأنا أبِرّ، وهذا يتصدَّقون عليه، فهذا جُملة أمْرِهم.

وهنالك وساوِسُ كثيرة على هذا، على قَدْر ما ابْتُلي أحدهم من نفْسه. ومعظم أمرهم أنهم لا يتَّهمون نفوسهم، بل يزكُّونها، والصَّادقُ الصِّدِّيق الذي يسلك طريق المقربين، يتَّهم أعماله وأقواله، وأخلاقه، وآراءه، وظنونه، يحب من يدلُّه على عيبه، ليبرأ منه، فيَصْفُوَ سَيْره إلى ربه، لأن غاية مطلوبه خلاصُه من رقِّ صفات نفْسِه، ووصولُه إلى ربه.

وأما الصوفية فإنَّ اجتماعهم وتآلفهم على خلاف ذلك، يصطحبون على تذويب النفوس لطهارة القلوب، ويتآلفون على السير إلى المحبوب، بهِمَمٍ عاليةٍ، وقلوبٍ وَجِفَةٍ، وأكباد محترقة، وأرواح طائرة من شدة الاشتياق إلى مولاهم، وعلى حبّه عاكفة، وفي طلب قُرْبه هائمة، يتَّهمون نفوسهم، ويزدرون أعمالهم، قال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قد بذلوا لمولاهم كل ما يقدرون عليه من نفوسهم وأموالهم، حبًّا له، وشوقًا إلى لقائه، لكن على قوانين الشريعة، ومتابعة السُّنَّة، فإنَّها حاكمة عليهم في كل شيء.

يطلبون مولاهم بكل ما يقدرون عليه، من الأذكار، والأوراد، والأخلاق، والأحوال على طريق السير إليه، ينطقون إذا تسامروا بذكره، وإن سكتوا فهو همهم، أو عبدوا فهو معبودهم، أو نطقوا فهو حديثهم، قلوبهم منكسرة، لأنهم فقدوا، فلا يجبر قلوبهم إلَّا بموجودهم، غاية همِّهم الوجود، ومعرفة عيب النفْس، قد ذوَّبت الأفكارُ نفوسهم، وكحَّلت الأنوارُ أسرارهم، وصفَّت العبادة جوارحهم.

فهؤلاء أهل الله وأهل ودِّه، وأحباؤه، قد أنزلوا ذكره من نفوسهم

بمنزلة الأرواح، فبقيت نفوسهم مأسورة مقبوضة، تلوح عليهم بهجة المحبة، وسيماء المعرفة، لقلوبهم زفرات، وفي أفئدتهم حسرات، فانظر رحمك الله إلى الصنف الأول، وغاية أمرهم، وجملة دائرتهم في أعمالهم وأحوالهم، وفي صحبتهم وتآلفهم، وإلى منتهى حدهم وغاية أمدهم، وانظر إلى هؤلاء ومقصدهم، وعملهم وأحوالهم وسيرهم، فهل أبقى الصدق من نفوسهم، وهل تركت إرادة الحق لهم إرادة غيره؟

لا يميلون إلى غير من يطلبونه بالمحبة، من الدنيا والشهوات والأعراض الفانية، لأن هذا الميل شرك عندهم في المحبة، وهو من الشرك الخفي، لا يحبون إلَّا مولاهم، ويحبون في مولاهم الأنبياء والصادقين، ولذلك لا يركنون إلى غيره في شأن من شؤونهم، قد ادَّخروه لكبَرهم، وعماهم، وفقرهم، وخاتمهم، وبرزخهم، ليس هذا عندهم شرك ـ أيضًا ـ في التوحيد، كالشرك الأول في المحبَّة، وهو من الشرك الخفي، فيصحِّحون الميل والمحبة إليه، بلا شرك لغيره بالمحبة، ويصحِّحون الاستناد إليه بلا شرك يستندون إليه معه، وإن كانوا في أسبابٍ ومعايشَ يدخلون فيها، فلا يستندون إليها، ولا يستندون إلَّا إلى مولاهم، قد هانت الدنيا عندهم، فهي لا تزن جناح بعوضة، لكن هم فيها كما أمرهم الله تعالى، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧]، فهم فيها على حكم مولاهم.

فإذا نظرت إلى الفريق الأول، ثم نظرت إلى الفريق الثاني، فانظر إلى نفسك من أي الفريقين أنت، فالزم دائرتك، وعاشر قومك وأصحابك، فإنَّهم أنسب بك، وأليق بحالك، ولا تعاشر الفريق

الثاني، فإنَّهم ربَّما طالبوك بشيء من الصدق، فتثور نفسك، فتردَّ الحقّ، فتُمقتَ عند الله، وربما تزدري أحدًا منهم بقلبك، لأنك لا تعلم حقيقة ما هم عليه، فإنك تحسبهم مثلك عبادًا أهل ظاهر، فتخطئ في ذلك.

وإن كنت من الفريقين، فادخل على قومك بالمحبة والمذلة والانكسار، والتخصيص لهم، والتعظيم لنظرهم، وحسن الموافقة لأمرهم، وسرعة الأوبة عند تعريفهم، وجميل الانقياد لإشاراتهم، واطلب عيب نفسك منهم عليها، وتعرَّف منهم طلب الحق تعالى، وطرق السلوك إليه، ولا تصحبهم على غير ذلك، فتتعب بهم، وتتعبهم معك، ولا تدخل عليهم برفق ولا إيثار إلَّا بعد شورهم، فإنَّهم يحبون لك العدل في أمورك، فقد تسرف في النفقة، وهم لا يحبون لأخيهم الإسراف.

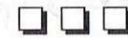
واعلم أن هذه الطريقة تقتضي أن يشاطرهم السالك في أمواله وأزواجه[١]، لأن صحبتهم إنما هي بالأرواح لشدَّة التآلف في معرفة الله تعالى، ومعرفة الله ومحبته وطلب قربه، لكنهم لا تساوي دنياك ولا أزواجك عندهم قيمة، لأن عمدة أمرهم التجريد عمَّا سوى الله، ومن كان أصله التجريدَ لا يحبُّ مالك ولا أزواجك، فلا تتفرق باستشعارك منهم الطمع في مالك، فإنَّ القوم آمالهم منقطعة من غير مولاهم، فاجمع همَّك، واعرف ما هم عليه، وما هم قاصدوه وطالبوه، واصحبهم على التعظيم والمحبة، ولا تدخل عليهم

---

(١) يشير إلى مِثل كريم حال الأنصار مع المهاجرين.

بما لا يحبون، وتعرَّفْ منهم الطريق إلى مولاك، وتعرَّفْ منهم عيب نفسك، وتتغذى بذلك إذا ذكروا لك عيبًا من عيوبك، وليكن ذلك غايةَ مطلوبك، منهم ترزق بركتهم إن شاء الله تعالى.

والله أعلم، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم، تسليمًا كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



(٩)

قاعدة في حَبس النَّفس والعُكوف على الهمّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه الإعانة

الحمدُ لله فالقِ الإصباح، وجاعل الليل سَكَنًا، والشمس والقمر حسبانًا، ذلك تقدير العزيز العليم، الذي أودع خلق الإنسان أنواعًا مختلفة من التراكيب القالبية والنفسانية، والقوى والأوعية العقلية، والشؤون القلبية، واللطائف الروحية، ليستعمل الإنسان كل قوة منها بمقتضى ما خُلقت له، ويعبد الله بجميع ذلك، فتتم له عبودية الله تعالى بجميع المساعي الظاهرة والباطنة.

فمن وفِّق لتخليص كل قوة من هذه القوى، واستعملها فيما خُلقت له، وسلمت من الآفات العارضة عليها من جهة الطبع والهوى، فهو الإنسان الكامل الذي عرف نفسه وشؤونها، وما أودع الله فيها من الخواص والصفات والأعراض، وعرف ربه ومولاه الذي خلقه وصوَّره، وشقّ سمعه وبصره، وأودع روح جسده، ونور عقله، وقام بأَوَدِه وكفايته وكلاءته، الحيّ القيوم، تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم لـمَّا عرف نفسه بشؤونها، وعرف ربَّه ـ سبحانه ـ بصفاته وأفعاله، عبَدَه بما خلقه فيه، فرجع الأمر إليه، فاستحقَّ بذلك النعيم الدائم، والقرب التامّ، والحبور المستمر أبد الآبدين، وعلا بذلك في مراتب خلقه وأطواره، من أدناه إلى أعلاه، صعد من عالم الجنِّ والقالب، إلى عالم الطبيعة والقوى النفسانية، ثم إلى عالم العقل [و]التعلُّقات الروحانية، ومساعيها الباطنة.

فلما علا في مراتب أطواره المودعة فيه، استحقّ أن يُسمَّى إنسانًا كاملًا، لسَيْرِه في أطواره، واستعمال كل قوة بحسبها فيما خلقت له.

وإن حكَّم على نفسه الطبيعة والهوى، لم يَعْلُ في هذه المراتب سَيْرًا ولا ترَقِّيًا، وتفنَّدت روحه عن الانطلاق إلى عالمها العلوي بما تراكم عليها من ظُلُمات جِبِلَّتها، فرجع الأمر إلى نفسه، فانحطّ عن مركزها السفلي للتلطخ بأنجاس نفسه، والتلوُّث بأدرانها، فاستحق بذلك العذاب الأليم، والبعد عن مراتب أهل النعيم، والحجاب عن القُرْب العظيم، أعاذنا الله من ذلك بمَنِّه وكرمه، إنه المنّان الكريم.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله ربّ العرش العظيم، وأشهد أنّ محمدًا ﷺ عبده ورسوله، النبيّ الذي أنذر بالنعيم المقيم، والعذاب الأليم، صلاةً دائمة موجبة لرحمة المولى الرحيم.

فصل

المراتب المبدوء بذكرها وكيفية قطع مشاقاتها، والتّرَقّي في درجاتها

الطَّوْر الأوَّل: طور التركيب القالبي:

وطريق قطعه والترقِّي منه، إنما يكون بأداء الواجبات، واجتناب المنهيَّات، بزمّ الجوارح عن المآثم الموبقات، والورع الشافي عن المحارم والشبهات، فبذلك قطع مسافة الأشياء المتجسِّدة الحسيَّات، وتفصيل ذلك النصح لله في القيام بفريضة الصلاة والزكاة والحج والصيام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، من الأوامر الخاصة التي تختصُّ العبدَ بحسب الأوقات والأعمال، ثمَّ رعاية العين عن النظر إلى المحرمات، والصور الجميلة المحرمة، ورعاية اللسان عن المحرَّم، كالكذب والغيبة والنميمة وكل فضول، وكذلك الأذن. ورعاية البطن عن الأرزاق المشتبهة، وكذلك زَمّ جميع الجوارح عن الظلم والعدوان، من اليد والرّجل والفرج.

والقاعدة الكلية: استعمال العذر فيها، ومجانبة الظلم والعدوان عن مساعيها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

الطَّور الثَّاني: طَوْر القوى النفسانية:

وطريق قطعها بغلبة هواه وقهره، والحكم بالعقل عليها، فإنَّ فيها قوة شهوانية، وقوة غضبية متى استعملت الشهوة في حدِّها المشروع، ولم يتعدَّ السالك فيها إلى حدّ لم يُشرع له، بأن يكون العقل حاكمًا عليهما وسائسًا لهما، ترقّى إلى قطع هذا الطَّور وتعمير مرتبته، وذلك هو عبودية الله تعالى في هذا الطور.

والشهوة قوة واحدة، لكن تختلف متعلَّقاتها، فمنها شهوة الأكل، واللباس، والاجتماع، والنظر، والنكاح، والرياسة، وكل أمرٍ يترامى إليه الطبع، فيفتقر كل من ذلك إلى سياسة شرعية، كما أمر الله تعالى، ورسوله.

والسِّياسة الشرعية أن يعطي النفس من ذلك ما كان حقًّا لها، تدعو حاجته إليه ويمنعها من ذلك ما كان حظًّا يستغني عن تعاطيه. والقوة الغضبية قوة واحدة، لكن تختلف ـ أيضًا ـ أسبابها وموجباتها، فطريق سياستها ألّا تطلق إلَّا في حق الله، وتُخمد وتُكظم إذا كانت غضبًا على فوت حظ النفس، من الأقسام العاجلة، ثم إذا أُطلقت لله ينبغي أن يكون الانتقام على الحدّ الذي شرعه الله تعالى، ولا يتجاوز إلى غيره، فذلك حدّ سياسة هذه القوى إن شاء الله تعالى.

الطَّور الثَّالث: طَوْر العقل:

وطريق قطعه بعد صلاح الطَّوْرَيْن الأوَّلَيْن، فمتى صَلُحا واستقرّا على ما ينبغي تفرَّغ الإنسان لقطع طور العقل، ومتى كان الإنسان منهما في معالجة لم تصْفُ أوقاته لقطع طور العقل، فإذا تفرغ من

واجبهما، فطريق قطعه بأن تنقش فيه المعلومات النافعة الواردة عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، وما كان من العلوم موافقًا لهما، كي يتخلّص الإنسان بذلك من ظُلمة الجهل.

وأهمُّ المهام من العلوم: معرفة دلائل النبوّة وسِيَرها، ومعاني السُّنَّة وما يتفرّع منها، من الأحكام الفقهية العملية، ومعاني التنزيل وما يتفرع عليه من الأحكام الفقهية الظاهرة العملية، ثم علم ما يتفرع من الكتاب والسنة، من الأحكام القلبية الباطنة الموجبة للرجاء والخوف والرهبة والرغبة والمحبة والخشية، فإنَّها من العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وهذا العلم هو المهم، إذا حصل لم يضرَّ العبد ما فاته من العلوم تلك المضرة المجحفة، وإن كان الجهل مطلقًا مضرًّا، والعلم مطلقًا نافعًا، إذا انضم إليها القصود الصحيحة، وإلا فالعلوم النافعة قد تضر صاحبها إذا كانت إرادته فاسدة، لأنه يتوصل بالعلم إلى نيل الأغراض الفاسدة، كما يتوصل بالعلم إلى الأغراض الصحيحة بالقصود الصحيحة، وبالله التوفيق.

الطَّور الرابع: طور القلب:

وطريق قطعه، إنما يكون بعد قطع المراتب الثلاث، وهو إصلاحه بإصلاح قصوده وعزائمه وإراداته وهممه وأعماله وخواطره.

فعن صلاح القلب يكون صلاح الجسد، كما جاء في الحديث: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

لكن صلاح القلب في الابتداء يكون بإصلاح حركات الجوارح، فيسري الصلاح من الظاهر إلى الباطن ابتداء، ثم ينعكس الأمر، إذا بلغ العبد طور القلب، فينصلح القلب طبيعة، بعد أن كان صلاحه عارضًا، ثم يسري الصلاح من الباطن إلى الظاهر، بعد أن كان سريانه من الظاهر إلى الباطن.

وعلامة صلاح القلب تأدُّبه بين يدي مولاه وخالقه، في خواطره وهمومه، وعزائمه وقصوده.

عن صلاح القلب يكون حال التوبة، وحال الورع، وحال الزهد، وحال الصبر، وحال الشكر، وحال الخوف، وحال الرجاء، وحال التوكل، وحال الرضا، وحال الحب، وحال الشوق، وحال التوحيد، فإنَّ هذه كلها أعمالُ القلب وحركاته ومساعيه ونطقه، كما روي عن بعضهم أنه قال: التوحيد نطق القلب، والتوكل عمله.

وهذه الأعمال إنما تظهر من القلب عند عمارته بصلاح حركات الجوارح من الأعمال الصالحة، وسياسة القوى النفسانية عن التعدي، واستعمال العدل فيها، واجتناب الظلم في مساعيها، وامتلاء أوعية العقل من العلوم النافعة، والسياسات الشرعية، فينكشف من مجموع هذه العلوم والأعمال هيئة اجتماعية في القلب الإنساني، المركب في القلب الجسمي الصنوبري الشكل، فذلك هو الذي يسمَّى القلب، لا مجرد المضغة الصنوبرية، فعند ذلك يشرق القلب بنور الإيمان والمعرفة والتوحيد، ويظهر منه مثل هذه الأحوال والأعمال، لأن

القلب كان في حجاب عن مولاه، فعبد الله بفعل المأمور، واجتناب المنهي، فتنوَّر القلب بنور المعرفة، فانكشف الحجاب، فشرع القلب يعامل مولاه بمثل هذه الأعمال، عبودية له، كأنه بين يديه ناظر في الغيب إليه، ومثل هذا يسمَّى: صاحبَ قلبٍ، فإنَّ قلبه قائم بين يدي الله تعالى، يعامله بمثل هذه العبوديات، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

الطَّور الخامس: طور الروح:

وإنما ينقطع بعد قطع هذه الأطوار والتوطن بالاستقامة لله فيها، والدخول في طور الروح موهبة محضة، تراد بالمحبوبين المصطنعين عند كمال الكشف الروحي بعد كمال الكشف القلبي، فإنَّ القلب لمَّا كُشف له حجابه عاملَ مولاه سبحانه وتعالى بتلك الأعمال، لمَّا كشف له عن حجاب التوبة، ودعاه مولاه إليه من باب التوبة، عامله بالتوبة، ثم لما كشف له عن مقام الخوف خاف، وعن مقام الرجاء حصل له حال الرجاء، ويعامل مولاه به، ثم لمَّا كشف له عن حسن تدبيره وكفالته توكل عليه، وعن حسن قضائه لعبده المؤمن رضي به وبقضائه وعن آلائه ونعمائه، فأحبه لما يغذوه من النعم كلما كشف للقلب عن موطن من هذه ودعاه مولاه من باب من هذه الأبواب دخل في العبودية له منها، حتَّى كمل له مقام العبودية القلبية بحسب حاله.

وآخر المقامات القلبية بدايات مقام المحبة، ومقام المحبة هو بدايات الكشف الرُّوحي، فمحبَّة الإنعام والإحسان هو آخر

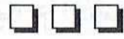
المقامات القلبية، ومحبة الجلال والإحسان هو آخر المقامات القلبية، ومحبة الجلال والإكرام أوَّل المقامات الروحية، ويتفاوتون فيها بحسب ارتفاع درجاتهم، ومقاماتهم منها، ومن حَظي بشيء منها فقد دخل ذلك في **الطَّور الخامس**: وهو طور الروح.

والتحقيق إنما يكون بإكمال العبودية في هذه المرتبة، وإكمال العبودية في هذه المرتبة ألا يقع شيء منه على غير مولاه كما قال بعضهم: المحبة أخذة من الله لقلب عبده عن كل من سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصِّنًا بمعرفته، والقلب مأخوذًا في حضرته، والسر مغمورًا في مشاهدته، والعبد يستزيد فيُزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، ويُكْسى حلل التقريب على بساط القُربة.

وكمال ذلك ألّا يكون منه شيء خارج عن تلك الأخذة، ومن وُفق لذلك يُرجى أن يكون الله تعالى مُتولِّيَه ووليّه ومدبِّره، فهو عبْد جذب الله باطنه إليه ولم يقع شيء منه إلّا بين يديه، فَلَهَا به عن كل شيء سواه، فتولّاه وقام بأوده وكفايته وهدايته وحمايته وكلاءته ووقايته، فطوى بعد قطع هذه الأطوار في عبودية الملك القهار، ومثل هذا يسمَّى: إنسانًا كاملًا عرف نفسه وأطوارها، وعرف معبوده في عبوديته، فاستنار بأنوارها ثم جذبه مولاه إليه فلم يدع منه شيئًا لغيره، ثم تولّاه وكفاه وهداه، وهذا هو غاية سلوك العبد في سَيْره ومنتهاه.

فنسأل الله الكريم أن يوفِّقنا بتوفيق من أحبَّه ورضي عنه وقُربه، آمين يا ربّ العالمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونِعم الوكيل.



(١٠)

قاعدة في تصفية الأخلاق
استعدادًا ليوم الحشر والتلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي هذَّب أخلاق أهل معرفتِه، بلطائف محاسِن شِيَم عبوديَّته، وبدَّل منها طباع النفوس وأخلاقها بأخلاق ملائكته، وجعلهم روحانيِّين، مطهّرين من الصفات البهيميَّة والسَّبُعيَّة، وذلك من علامة اصطناعه لهم بمحبّته وكرامته، أجسادهم أرضيَّة، وأرواحهم وأخلاقهم علويَّة، لقربها من نظره ومعيّته.

وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، الأزليّ في أوّليته، الأبدي في آخريّته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، الذي أيّده بحُججه الساطعة في رسالته، وبعثه داعيًا إلى المحجة المثلى في بريّته، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أهل قُربه وولايته.

وبعدُ:

فإنَّ الدِّين يشتمل على عقود صحيحة، ثم علوم صحيحة، ثم أعمال صحيحة، ثم أخلاق مرضيّة مليحة، ثم أحوال علويّة رجيحة، فمن جمع الله تعالى فيه أصول هذه الخمس تمّ دينه، وكمل يقينه بحسبه ويبقى التفاوت في تفاصيل أصول هذه الخمس،

وقيام العبد بما يقْسِم الله تعالى له من حملها أوّلًا، ثم من تفصيلها وفروعها ثانيًا.

أمّا العقود: فعلامة صحَّتها موافقتها لكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، وكونها على طريقة أهل العلم والإيمان والنقل والأثر: كمالِكٍ والسُّفيانين والحمَّادَين وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل، وغيرهم من الأئمة الذين هم على نهجهم وطريقتهم رضي الله عنهم.

وأما العلوم، فعلامة صحَّتها: أن تكون على نمط الاعتقاد من كونها مؤسَّسة على قواعد الشرع، مأخوذة عن سلف الأئمة المجمع على فضلهم.

أمّا الأعمال، فعلامة صحَّتها: أن تكون مطابقة للعلم في الصورة الظاهرة يراد بها وجه الله تعالى في الهيئة الباطنة، موضوعة عن محالها للعلم في الصورة الظاهرة في محالها وأحايينها المشروعة، محفوظة عن الزيادة والنقصان بالقانون المشروع أيضًا.

وأمّا الأخلاق: فعلامة كونها مرضية هو العدل كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠]، والإحسان عامٌّ في كل شيء، وفي الأخلاق ـ أيضًا ـ.

فحدّ العدل في الأخلاق توفية الحقوق كما يقتضيه الاستحقاق بلا زيادة ولا نقصان، والكف عن الظلم والعدوان فيها، فمن وفّى حق أخيه المسلم فيما بينه وبينه ولم يظلمه فيه فذلك هو العدل؛ مثله

ردّ السلام ومكافأته في الفضل والإنعام، إمَّا بالموجود أو بالدعاء والإكرام، وموافاته بالتودد بلا تكبر ولا احتشام، وكف الأذى عنه في القول والفعل والظن والأوهام، فهذا العدل الذي يجب للمسلم على المسلم.

وأمَّا الإحسان: فهو مرتبة العدل من الابتداء بالفضل والسماحة، بالبذل لمن يستحق، ولمن لا يستحق، وهذا الذي تسمِّيه طائفة من الصوفية الفُتوَّة، وفيه يكون احتمال الأذى، ومكافأة المسيء بالإحسان، وفي مرتبة العدل ليس كذلك؛ فإنَّه إذا اقتص من ظالمه ولم يتعدَّ عليه فإنَّه يكون عادلًا، ولا يسمَّى محسنًا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فالأول مرتبة العدل، والصبر مرتبة الإحسان، ومكافأة المسيء بالإحسان شعار الصِّديقين، وهو من كمال مرتبة الإحسان، فهو إحسان الإحسان، وهذا كله في حق الآدميين.

وأمَّا الإساءة من الشخص في حق الله تعالى بارتكاب محارمه إذا ظهرت، فالعدل إزالتها كيف أمكن؛ إمَّا باليد، وإما باللسان، وإمَّا بالقلب، وذلك أضعف الإيمان كما جاء في الحديث، ولا يتوصل إلى رضا الحق تعالى بغير ذلك، ولا تبرأ الذمة بغيره.

وأمَّا الإحسان في ذلك بعد إزالة المنكر باليد أو باللسان؛ التقرب إلى العامي وحسن النصيحة له، واستجلابه بما تعلم أنه ينجذب به، إمَّا من بذل مال له، أو بذل طعام، أو بذل إكرام أو طيب

كلام، فإذا انجذب ومالَ نَصَحَه وعَلَّمَه بما يجب عليه لله تعالى، وما يترتب على عمله السيئ من عقوبات الله تعالى، فذلك هو الإحسان في إنكار المنكر بعد إقامة حكم العدل فيه.

واعلم أنَّ استعمال الأخلاق الحسنة وترك سفسافها من الأخلاق المذمومة باطنًا وظاهرًا ركن من أركان الدِّين، لا يتم الدِّين إلَّا به، ومنه عدل واجب، ومنه عدل إحسان فاضلٌ.

أمَّا العدل في ذلك فهو إزالة الأحقاد من القلوب، وتبديلها بالرحمة والمحبَّة، ومحبَّة حصول الحبّ لمن حقد عليه، وكذلك يطهر القلب من خبائث الأخلاق واجب، وهو من العدل الذي من أهمل حكمه ووقع فيه كان ظالمًا، فإنَّه استعمل أشياء في باطنه لا يحل له فيكون ذلك ظالمًا، يستوجب بها مقت الله وغضبه، ويحبط عمله بذلك فيبطل سعيه وذلك مثل: الخُبث والكبر، والرياء والحسد، والعُجب وسوء الظن، ونسيان الله تعالى، والغش وطلب العلوّ والرفعة والمنزلة، وحبّ الثناء والمَحْمَدة، وسخط المقدور، والطمع والبخل، وسوء الخلق والبطر، والتعظيم للأغنياء من أجل غناهم، والاستهانة بالفقراء من أجل فقرهم، والتنافس في الدنيا، والمُباهاة، والإعراض عن الخلق استكبارًا، ونسيان النعمة، وترك ذكر المنعم سبحانه، والعمى عن إحسانه، وخروج الخشية من القلب، وترك الانتصار للحق، والأمن من سلب ما أعطي، ومن المكر والخيانة والغش للمسلم، والتجبر وعزّ النفس واستحقار المؤمن، واستخفافه بحرمته، ورؤية حقوقه على الناس، ورؤية فضله عليهم، ونسيان حقهم وفضلهم.

ودقائق هذه الأخلاق وفروعها وهي التي ينقص بها صاحبها ولا يستوجب إحباط العمل مثل: الخوض في ما لا يعنيه، وكثرة الكلام، وفضول النظر وفضول الطعام، والصَّلف، والتزيّن للمخلوقين بالنطق والمداهنة، وحبّ أن يمدح بما لا يفعل، والاشتغال بعيوب الخلق عن عيوب النفس، وافتقاد الحزن من القلب، والانتصار للنفس إذا نالها الذل، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة هي في السر، وترك الهوى حتَّى يشاركه في الأمور، وشهوة الكلام الباطل، والحرص وطول الأمل، وخوف سقوط المنزلة بين الناس من عيون الخلق، والفظاظة وغلظ القلب، والغفلة عن ذكر الله تعالى وعن نظره واطلاعه وعلمه بما يجول في سره، والفرح بالدنيا والحزن على فوتها، والأنس بالمخلوقين، والوحشة في الخلوة عند ذكر الله تعالى، والمِراء في الكلام، والجفاء والطيش والحدّة، وقلة الحياء وقلة الرحمة.

واعلم أنَّ العبد لا يتم إيمانه ولا يكمل دينه حتَّى يعرف هذه الأخلاق من نفسه، ويعمل على تبديلها، وتزكية النفس من موادّها.

فالقلب لا يزال بعيدًا من الله، قريبًا من الشيطان ما دام فيه خُلُق من هذه الأخلاق وهو غير كاره له، ولا تكمل حاله حتَّى يبدل من نفسه مثل هذه الأخلاق مستعينًا بالله تعالى، ويستعمل الأخلاق المرضية الروحانية؛ مثل الورع والتقوى والزهد، والصبر والحلم، والرضا والقناعة، والتوكل والتفويض، وسلامة الصدر، وسخاوة النفس، وحسن النية والرجوع لله تعالى في كل شيء، وحسن الظن

بالمسلمين، والرحمة لهم، وحسن الخلق، وحسن المعرفة، وحسن الطاعة، وحسن الصدق، وحسن المعاشرة والإخلاص، وأن يستوي عنده مادحه وذامّه، وعلمه بأن المدح لا ينفع إن كان عند الله مذمومًا، والذم لا يضرّ إن كان عند الله ممدوحًا، والشوق إلى لقاء الله تعالى، **فذلك من علامات كمال الإيمان.**

والتواضع للخلق والمؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، والإخلاص لله وهو ألا يشرك غير الله معه في عمل من أعماله، ومحبة الفقراء أهل البصر بالدين، الذين هم على محجة السالكين، وتعظيمهم على غيرهم من الأغنياء أهل الدنيا، وترك المماراة والمداهنة للناس بما لا يحب الله، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة إخفاء عباداته وطاعاته وأحواله وكراماته، **فذلك من علامات الإخلاص.**

وأن يجعل كلامه ضرورة، وأكله كذلك، ونومه كذلك، ومشيه كذلك، ويرى غيره خيرًا منه، ولا يرى لنفسه عليه مزيّة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، ويستعمل العبودية مع الله تعالى؛ فيترك التدبير والاختيار والأماني، ويكره تعظيم الناس له والإشارة إليه بالصلاح، ويشتغل بعيب نفسه عن عيوب الناس، ويذكر نعم الله تعالى ومننه وصنائعه على الدوام، ويشكره عليها، وينقاد للحق إذا قيل له، ويجانب الهوى في حركاته وأحواله، فلا يدعه يشاركه في شيء منها، ويحب الصمت إلّا عن شيء يعتقد ثواب الله تعالى عليه، فيضع الكلام في موضعه، ولا يتكل في أعماله وطاعاته، بل على فضل الله تعالى، ويجانب الحرص على الدنيا،

ويقصر أمله، فإذا أصبح فلا يحدِّث نفسه بالمساء، وإذا أمسى فلا يحدِّث نفسه بالصباح، ويستعمل رقة القلب واليقظة والخوف من المكر، ودوام الاستعانة بالله تعالى، ولا يفرح بموجود من الدنيا، ولا يأسى على ما فاته منها، قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ويجد الأنس بالله تعالى في الخلوات، والوحشة من الخلق أهل الغفلة في الخلوات، ويترك المماراة والمجادلة، ويشتغل بالمهم وتعظيم حرمة المؤمنين، ويقوم بحقوقهم وبما أوجب الله عليه لهم، خصوصًا من ابتلي به من الأهل والأقارب والزوجات، فيحسن معاشرتهم ويكارمهم، ويلطف بهم ويستجلب ودّهم بطيب الكلام ولين الجانب، والتغافل عن زللهم، ومع ذلك فيأمرهم بالطهارة عند الحيض، ولا يسامحهم في تضييع حق من حقوق الله تعالى، فإنَّهم رعيته وكل راع مسؤول عن رعيَّته، ولا يجفو عليهم بسوء خُلق، ولا يتغافل عن حق لهم أوجبه الله تعالى؛ مثل نفقتهم الواجبة وكسوتهم، وإن عجز استحلَّهم واسترضاهم.

ومن الإحسان استعمال النظافة للزوجة؛ مثل الحمام والطيب وإزالة الوسخ، فإنَّ لهم حقًّا كما أن له عليهم حقًّا، وإذا وقعت منه بادرة في حقهم؛ مثل غضب مفرط أو عقوبة مفرطة بغير حق، فليبادر بتداركها ويستحلّهم في ذلك، وينبغي أن يسوِّي بينهم أيضًا في ذلك، فإنَّ بعض الطباع يكون من شيمتها المهانة والملامة، فإذا أكرم فسد حاله، وإذا أهين انصلح، فليراعِ جميع ذلك فإنَّه من العدل والإحسان.

وإذا اجتمع بإخوانه فلا يرى نفسه عليهم بعبادة ولا حال، بل يرى نفسه دونهم، وليدعُ لهم، وليدعُ للناقصين من أمة محمَّد ﷺ: اللَّهُمَّ تجاوز عن أمة محمد، اللَّهُمَّ ارحم أمة محمَّد ﷺ، ويكون سليم القلب رحيمًا بهم، مكرمًا لكبيرهم، رحيمًا بصغيرهم؛ فيرى كبيرهم كالوالد، ومتوسطهم كالأخ، وصغيرهم كالولد، وأبناءهم كالمحارم، ويرى العجوز كأمّه، والشابة كأخته، والطفلة كولده، فبذلك يسلم القلب، ويكمل الحال، ويتم الدِّين إن شاء الله.

وليحفظ نفسه من الحدّة في قول أو حركة أو فعل، ويستعمل الرفق والسكينة والأناة في مشيه وكلامه حتَّى يعتاد ذلك، فيتم بذلك عقله ويهدأ قلبه وتسكن نفسه وتطيب أخلاقه، ولا يتعوَّد العجلة في الكلام والمشي والحركات إلَّا عند الضرورة، والسكينة في الحركات والأقوال والأفعال، سيما الأولياء؛ أهل المعرفة والحياء والأنس والقرب من الله تعالى.

وليُقدِّم على جميع ذلك نيَّة، فتكون نيته باستعمال هذه الأخلاق ومجانبة تلك الأخلاق المشروحة؛ أوَّلًا: الحياء من الله تعالى، ومن نظره إليه، وقربه منه، ومعيَّته معه، وإطلاعه عليه وعلمه به وبما يجول في قلبه، ثم ينوي بهذه الأخلاق امتثال أمر الله تعالى، واجتناب نهيه، وطاعته على الشعور بعلمه به، وقربه منه؛ فيستحي منه، ويهابه ويعظمه، ويعظم نظره، ويطيع أمره، ويعلم أنه سبحانه قريب من المطيعين، مُعرض عن المخالفين والعاصين، خصوصًا في الأعمال والأخلاق.

واعلم أن أبناء الآخرة قسمان: قسم رضوا بأن يعبدوا الله بالعبادة الظاهرة؛ من الصلاة والصوم، وقراءة القرآن والذكر، والحج والصدقة والعتق، وعيادة المريض وتشييع الجنائز، وأبواب البر الذي هو ظاهر بالأركان، ولم يخلصوا إلى عبادة القلوب من الصدق والإخلاص والحلم والصبر والتوكل، وغير ذلك من الأخلاق المذكورة أوّلًا؛ فتركوا العيوب الظاهرة، من الزنا والسرقة، وشرب المسكر والكذب، والغيبة والنميمة، والسعي بالفساد الظاهر، فرضوا بهذا من أنفسهم ولم يعظموها عن عيوب الباطن؛ مثل الغل والحسد، والغش وسوء الخُلق، والكِبر والتِّيه والصَّولة، والأخلاق المذكورة أوّلًا.

فقدموا على ربهم مع هذه العيوب غير تائبين منها؛ لأنهم لم ينتبهوا لها فيتوبوا منها، وكانت هذه أخلاق النفس فلم يؤدِّبوها، فكانوا يصلون ويصومون ويجتهدون في أنواع البر، فإذا جاءت نوائب هذه الأخلاق حسبتَ أنهم من الجهال النقاد، وإذا جاءت نوبة الغضب حسبتَ أن ذلك الصالح أحمقَ، وإذا جاء موضع الطمع فكذلك، وإذا جاء موضع الذل فكذلك؛ تراه كاد أن يشرك بالله وينخلع عن دينه هربًا من الذل لإقامة جاهه وقدره وعزّه، يُرضي الخَلق بسخط الخالق هربًا من الذل.

وإذا جاء موضع الرزق وكأنه لم يسمع بوعد الله قط حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وتراه مغتمًّا مهتمًّا، محزونًا مسلوب الاهتمام لدينه، مشغوف القلب من خوف الرزق، خاليًا عن ذكر الله تعالى، أعمى عن سياقة الله لرزقه إليه كيف يسوقه.

فإذا جاء موضع الفقر تراه أَنِفًا هاربًا، مستكبرًا عن الفقر، وإذ
جاء موضع الرئاسة إن ردَّ عليه كلامه بالسر سما وغضب، وتكب
وأَنِفَ، فإذا وُعِظ في ذلك قال: إنما أغضب لردِّ الحق، فيقال إن كا
هو قد كابر الحق فانظر أنت لا تكون كابرت الله تعالى؛ فإنَّ علام
صدقك تواضعك في الرد عليه، لأنه إنما عليك البلاغ وعلى ر
الهداية، فإنما عليك البيان، فإذا بيّنت ولم يرزقه الله هداية فمال
غضبت وأنفت وتكبرت.

وإن مرَّ في الطَّاعات تزيّن للمخلوقين، وراءى وتصلَّف، وإ
أثنى عليه رجل بالخير الذي ليس فيه لم يفزع، بل يفرح على مدحه
ويصافيه ويخالِله، وإن ذمه إنسان بما يراه في نفسه حزن على ذمّ
لا على نفسه، فعاداه وقاطعه، وقام بملاقاته، وترصّد له يبتغ
معاياته. كثير الكلام كثير الفضول، صاحب الشهوات والنعيم فر
مستبشر، كأنه قد جاز الصراط وأعطي الخلاص.

وأمّا الصنف الآخر: فتركوا العيوب الظاهرة ثم فتشوا فوجد
في الباطن أضعافًا مضاعفة فقصدوا التطهير، وراضوا أنفسهم فطهّرو
عن مثل هذه الأخلاق الدنية، ونظروا إلى الأعمال الظاهرة الت
عبدوا الله بها إنما منَّ عليهم ربهم بها، فثقلت عليهم أثقال المنّة
فانقطعوا وانكسروا ولم يبق لهم معتمد إلَّا خالقهم، وانتبهوا لها
العيوب الباطنة التي تنقصهم عند الله تعالى، وأقبلوا على هذه النفس
الأمارة بالسوء؛ فزجروها وراضوها حتَّى تركت هذه الأخلاق
وتطهرت من هذه الأقذار وتعلَّقت بالخالق؛ فأَنِسوا بالله، وسكنوا إل

عند وعده بالرزق، وائتمنوه على أنفسهم؛ ففوضوا أمرهم إليه، وقطعوا القلوب عن كل شيء يشغلهم عن مولاهم، ورأوا أعظم منّته عليهم: بالإسلام والإيمان، والقرآن، والرّسول ﷺ، وإلى ما دعاهم إلى جواره وداره، فتهذبت أخلاقهم وصفت أسرارهم، وخشعت قلوبهم، وصاروا متواضعين لله، متواضعين لخلقه؛ لا يتكبرون عليهم ولا يصولون.

وهم مع ذلك يحذرون من الخلق كيلا يفسدوا عليهم أديانهم وقلوبهم، فلا يخالطون إلّا من ينتفعوا به من العلوم الظاهرة والأحكام الباطنة، فتراهم خائفين خاشعين، هيِّنين ليِّنين، خاضعين منقادين، آثار العبودية عليهم ظاهرة من الانكسار لعظمة مولاهم، وهم مع ذلك عزيزين، عزّهم في قلوبهم لاستغنائهم بربهم، وفي ألسنتهم عند إقامة دين مولاهم، فلم تزل المادة إليهم من ربهم واصلة، وعليهم من الله الرحمة دارّة دائمة، حتّى قربت إليهم قلوبهم، وعرّفهم نفسه فعرفوه وأحبوه، وعظّموه وهابوه، وأنسوا به في الخلوات، ووثقوا به، وفوّضوا إليه فعبدوه في أيام الدنيا كأنهم يرونه كما قال رسول الله ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**»، فقدِموا على ربهم طاهرين مطهّرين، مهذّبين نازعين عن العيوب الظاهرة والباطنة، نفوسهم مطمئنة بخالقهم، قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وقلوبهم مشغولة بحبّه، متعلّقة به، مشتاقة إليه، فأولئك خلفاءُ الله على عباده، وأولياؤه في أرضه.

فنسأل الله الكريم أن يوفقنا لما وفقهم، ويفيض علينا ما أفاض عليهم، ويعيننا على تزكية نفوسنا وتهذيب أخلاقنا بمنّه وكرمه، وهذ آخر ما تيسّر، والحمد لله وحده.

وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.



(١١)

قاعدة في الفَرق بين كِبر النَّفس وعِزَّة القَلب وبين البَغي والشجاعة وغيرهما

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

اعْلَم أن حركاتِ النَّفْسِ ـ غالبًا ـ تكون مقارِنة للظُّلم، وهي حركاتٌ شيطانيةٌ خارجةٌ عن الفطرة العقلية، التي فَطَر اللهُ عليها الخَلْق.

وحركاتُ القلب ـ غالبًا ـ تكون مقارنة لميزان الفطرة العقلية، التي رُكِّبَتْ في الإنسان، وكلٌّ منهما له علامةٌ يُستدَلُّ عليها:

فعلامةُ حركات النفْسِ: الحِدَّةُ والطَّيْشُ والعَجَلةُ والعَمَى عن ملاحظة العواقب، والغَيْبة عن حقائق الأشياء، وغالبًا تكون مقارنة للنظَر القاصِر، وقَصْد قضاء النَّهَم والوَطَرِيَّة.

وعلامةُ حركات القلب: التُّؤَدَة والسَّكِينةُ، والوقار، والبَصَر النافِذ في العواقب، وفي حقائق الأشياء، والقوةِ على قصدِ تنفيذِ الأمور على مقتضَياتها، ووَضْعها مواضِعها بالميزان الشَّرْعي، على الصواب العَقْلي.

أمَّا الميزانُ الشرعيُّ [ف]معلومٌ، وأمَّا الصوابُ العقليُّ، فهو وضْعُ

ذلك المعنى الشرعي مواضعه، بحيث لا يُعَدِّيهِ وَقْتَه، ولا يُنْقِصُه مِن حَدِّهِ المشروعِ، فذلك الذي يُسَمَّى: **صوابًا**.

*** إذا علمتَ ذلك،** فاعلَمْ أن الله تعالى قد رَكَزَ في جِبِلَّةِ الإنسانِ خصائصَ استعملَها في مصالحه مِن أُمور دِينه ودُنياه.

والحِكمةُ الإلهيَّةُ تقْتَضِي أن يَسْتعمل كل خصيصة فيما خُلقت له، بلا بغي ولا ظلم في طرَف الإفراط، ولا بُرُودَة وفُتور في طرف التفريط.

فمتى وقفت على هذه الثلاثة، عرفت ـ بمشيئة الله تعالى ـ الفَرْق بين ما يتلبَّس من العوارض الظاهرة والباطنة، من: العِزّة والكِبْر، والشجاعة والبغي، والعفَّة والشبَق، والحكمة والهذْرَمة، والتواضع والذلَّة، والانتقام والتواضع، والظلم واللينة، والأمنية والمودَّة والعشق، والمداراة والمداهنة، وغير ذلك من الأعراض الإنسانية، التي يَلْتَبس التمييز بين حقِّها وباطلها، وقَدْر المشروع منها مما لا يُشْرع؛ فإن الله تعالى قد ركَّب في سجيَّة الإنسان عِزَّة القلب، وسكينة العقل؛ لِيستعمِل ذلك في أحواله وشؤونه، بينه وبين ربِّه وبين عباده.

فمتى أفرط فيه بمشاركة النفْس، خرج إلى الكِبْر.

وصِفَة ذلك: أن العبد العاقل المؤمن العارف بربه يكون له قلبٌ وبصيرة، يرى بها عظَمة ربه سبحانه وتعالى، ويلاحظ بها أمره ونهيه، وينظر في العواقب، فتركَّبَ من مجموع ذلك سكينة وغيبة في صفاء الفكرِ تَلْحَقُه، فتكون هيئتُه كهيئة من يكون في حضرة الملك،

فلا بد أن يَلْتبسه من عزِّه ووقاره ما يظْهر منه على وُجوده الظاهر، بحيث لا يَحْقِر أحدًا، ولا يبخسه حقه، ولا يُعَدِّيه طَوْره، فهذه التي تسمَّى: العِزَّة، وهي عزَّة مقصورة على القلوب، مقرونة بصفات العقل، عليها طلاوة وحلاوة تشربُها القلوب، وتستحليها العقول، وتورث صاحبها محبةً في القلوب، وميلًا إليه مع ما يظهر عليه من آثار تلك العِزَّة.

فمتى قصُرَت هذه القوة فيه انحطَّ إلى المهانة، فيورث ذلك السخرية والاستهزاء به بين الناس، كما يورث صاحبَ العزةِ الوقارَ والتعظيم بين الناس.

ومتى أفرَطَتِ العِزَّة فيه أخرجته إلى الكِبْر، **والكِبْر**: حركات شيطانية نفسانية، تتركَّب من رؤية قَدْره، ونفوذ حِكمته وعلمه، وقصور غيره عن حاله، وتورثه استكبارًا عن الحق إذا طُولِب به، وإقامة المعاذير لنفْسه عند ظهور الحُجَّة عليه، والغَيْبَة عن ربه ومولاه الذي هو رقيب عليه، فلَوْ لاحَظ ذلك لذَلَّتْ نفْسُه واعتدل كِبْرُه، وصار عِزَّةً؛ إذْ معرفةُ الله تعالى وظهورُ صفاتِ النفس ـ غالبًا ـ لا يجتمعان، اللهُمَّ إلَّا في ناقص البصيرة، بحيث يُبْصر أمرًا ويغيب عن آخر، فقد يدخل عليه بسبب العَمَى ما يخلِّفه عن ذلك.

ومِن علامات الكِبْر: أنه يطلبُ إقامةَ جاهِه وكسْرَ غيره، والانتقامَ منه بغير حق، ولا يذكر أحدًا إلَّا انتقَصه وذَكر عيوبَه ونسي فضائله، وذكَر فضائله وأظهر فضائل نفسه، وهو ـ كما سبق ـ صفةٌ يُقارنها العَمى، والعزَّة صفةٌ يقارنها البَصَر، وبالله المستعان.

ومثل ذلك **الشجاعة والبغي**، فالله سبحانه وتعالى ركَّب في سجية العبد قوة وغضبًا ليقيم به الحق وأهله، ويكسر به الباطل وأهله، والعبد مُطالَب بتوفير هذه القوة وحفظها، واستعمالها في أوقاتها في مصالح الدِّين والدنيا، فمتى قصر منها خرج إلى العجز الذي يبغضه الله، ويلوم عليه، كما جاء في الحديث: «**إن الله يلوم على العَجْز**»، وكان مع العجز تضييع الحقوق وترك الانتصار للمظلوم، وتضييع المصالح الدنيوية التي لا تتم المعيشة إلَّا بها، وأمثال ذلك.

فالشجاعة المحمودة يقارنها الصبر والعدل، وهو وضع الأشياء مواضعها، ومتى أفرطت هذه القوة فيه أخرجت إلى البغي والانتصار للنفس، لا لله، وطلب القهر لغيره، بحق وبغير حق، ومثل ذلك.

ومثله العِفَّة والشبَق؛ فالله عزَّ وجلّ ركَّب في السَّجية الإنسانية شهوة إذا اعتدلت بها يكون التآلف بين الأزواج، وبها يتم التوليد والتناسل، وعلامة اعتدالها أن تكون مقارنة للعقل، وتكون مقصورة على الحد المشروع في الأزواج والإماء، لا تتعدَّى الهمَّة إلى غيرهن، ومتى قصرت عن ذلك انحط صاحبها إلى العُنَّة والبرودة، وموت الهمة، وهو عيب في الإنسان.

ومتى أفرطت جاوزت الهمَّة الحد المشروع، وأخرجته إلى الفواحش، ممَّا حرَّمه الله تعالى وكرهه، وقرنتها صفات النفس كما تقدم ذكره؛ وهي هم قضاء الوطر في كل ما يمكن قضاؤه من ذكر وأنثى ودابة واستمناء، فيتخلَّف عنها حكم العقل وميزانه.

وأعدل الأشياء: التوسط بين الإفراط والتفريط، وكذلك الحُكم

في الهذْرَمة والحكمة، فالله سبحانه جعل في الإنسان قوة ناطقة معبرة عن المصالح الدينية والدنيوية، وهي وهو ترجمان لما تلاحظه البصيرة من وعد الله ووعيده، وتخويفه وتحذيره، بها تقوم حُجَّة الله، وبها يهتدي الخلق بواسطة العلماء المذكورين لآلاء الله تعالى ونعمه، وعقوباته، وأمره ونهيه، وهي قوة تقارنها السكينة والعقل إذا اعتدلتْ، فمتى قصرت عن ذلك انحط صاحبها إلى العمى، وعدم البيان، فتضيع لذلك المصالح العاجلة والآجلة.

ومثله إذا أفرطت في صاحبها وأخرجته إلى الحمق والهذرمة، وعلامة ذلك أن تقارنها صفات النفْس لشهوة الكلام خيرًا كان أو شرًّا، بنيَّة أو بغير نية، بخلاف الأول؛ فإنَّها تكون مقرونة بقصد الصلاح، أو بقصدٍ صالح ونية حسنة، فإنَّ هذا يكون مقصورًا على الشهوة، فيُمِلَّ الحاضرين، ويُمْقَتُ ذلك، فالأول يؤثر صاحبها آثارًا حسنة في القلوب، فتصغي إليه القلوب بأسماعها، فيكون ذلك مما يكفيه من الحكمة؛ كبذْر يقع في أرض طيِّبة، فيكون سببًا للفلاح والسعادة في الآخرة، والاغتباط والغنيمة العاجلة، **وخير الأمور أوساطها**.

ومثل ذلك التواضع والذِّلة؛ فالتواضع مقرون بصفات العقل وحسن الخلق، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وعلامته ألا يضيِّع حقًّا لنفسه، ولا يعطي أحدًا فوق ما يستحقه، بل يُنزل نفسه دون منزلته قليلًا، وبذلك يكون التآلف بين المؤمنين، والتواصل والتراحم والتحابب.

ومتى فرط في هذه المرتبة انحط صاحبها إلى المهانة والذلة،

فيورث ذلك استخفافًا به، فيضيع لذلك حقه، ويظلم عن إيفائه، ومتى أفرط فيها غاب عن معرفة حكم نفسه، فربما شمختْ وتعالت، فأخرجت صاحبها إلى الكبر المندوب ذكره.

ومثل ذلك الانتقام والظلم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، فمن انتقم لنفسه أو لله بحكم العدل والشرع؛ كالرد على من انتقص منه بغير حق، أو ذكر ظُلم من ظلمه، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، ولذلك إذا كان الانتقام لله؛ كرد غيبة المسلم، وجلد الزاني ورجمه، وقطع السارق، كل ذلك إما واجب وإما جائز، فمتى قصر ذلك في الشخص أخرجه إلى تضييع الحقوق، والله تعالى لا يرضى حتَّى تقام حدوده وحقوقه.

فأما العبد فمخيَّر في حق نفسه، ففي بعض الأوقات يكون الانتقام أفضل، وهو فيما إذا ضاع في مقابلة ذلك مصلحة أفضل من الصبر على الأذى، فيكون الانتقام أفضل، وقد يكون الصبر أفضل، فمن راعى الأفضلية استعمل العدل في ذلك.

ومتى زاد المنتقم عن رعاية العدل، أخرجه ذلك إلى الظلم ومفارقة صفات النفس، فطلب مجرد الانتقام والضرب والقتل، كما بلغنا عن بعض الملوك، أنه نُقِل إليه عن بعض خَوَله قذفًا، فجرَّد السيف وقتل كل من في الدار من الجواري والغلمان.

ومثل ذلك النية والأمنية، فالنية: القصد الصحيح على تنفيذ أمر من أوامر الله تعالى عزَّ وجلّ، لا يريد به إلَّا الله، وذلك ركن من

أركان الدين، لا تتم الأعمال إلَّا به، ولا تصح بدونه، فمتى قصر صاحب الأعمال فيها أخرجته إلى عمل العادة؛ كصلاة العادة، وصَدَقة العادة، وأمثال ذلك.

ومتى أفرط فيها أخرجته إلى الوسواس، فيحدِّث نفسه بما لا يمكن، مثلًا يكون صعلوكًا، فيحدِّث نفسه: أنه إذا ملك يعمِّر جامعًا، أو يولي قاضيًا، أو أنه إذا لقي كنزًا أن يفتح زاوية، وذلك وإن كان محقًّا، لكنه تضييع للهم، وحُموقية، وخروج عن ميزان العقل والشرع إلى مراد النفس وصفاتها.

وكذلك **المودة والعشق**؛ فالمودة اعتقاد النصيحة للأخ المسلم في الله، والأنس به، والوحشة عن غيبته زمانًا طويلًا، فيحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويوده بقلبه، ويشركه في شيء من رفقه، وبهذا تتم المودة بين الإخوان، وتدوم الصحبة، وبه يكون التآلف وسريان الخير من الأخ إلى أخيه، فمتى قصرت هذه القوَّة في الشخص انحط صاحبها إلى البرودة والتهاون، فيجتمعان، وكان كل واحد منهما معرضًا عن أخيه، مقصرًا في حقه، بارد الهمة عن ودِّه؛ كأنه أجنبي عنه، يستوي عنده إقباله وإعراضه، فلا يهتم لشيء من أموره، ولا يكترث به، وبهذا يكون النفوذ، وتضيع بذلك المصالح الدينية والدنيوية.

وكذلك إذا أفرطت هذه القوة في صاحبها أخرجته إلى تعلُّق القلب بأخيه، وسكونه في حبة قلبه، ولا يصبر على ألا يراه لحظة واحدة، ويطالبه التقيد به ليلًا ونهارًا، ويبالغ في حبه حتَّى يحب أن

يكون فراشه عند فراشه، وهذا إنما يقع غالبًا في وداد الصبيان فيخرج عن ميزان العدل والعقل، ويقارنها صفات النفْس وقضا الوطر، وربما جرَّت إلى المكروه من تعاطي ما لا يشرع؛ من معانق وتقبيل، إن سلم صاحبها عما هو أكثف من ذلك، والعدل: الوسط من ذلك بين الإفراط والتفريط.

ومثل ذلك المداراة والمداهنة؛ فالمداراة سجية حسنة صالحة تكون في المؤمن يعاشر بها إخوانه في الله تعالى؛ فإنَّهم ذوو نفوس ولا بد من ظهور أحكامها في آحاد منهم بعض الأحيان؛ مثل حدة في قول، أو سبق لسان فيما لا يقصده صاحبه من كلمة تؤذي، وأمثال ذلك، فإذا ظهر مثل ذلك من أخ في الله احتمله، وداراه الله عزَّ وجلَّ؛ طلبًا لمرضاته، فهذه هي المداراة، ومتى قصرت في صاحبها عقد بقلبه على ما سمع، وأورثه ذلك البغض وسوء الظن، والمقابحة والمقابلة على كلِّ خطأ يقع من إخوانه، أو نسيان، وذلك نقص.

ومتى كانت مداراته لحظٍّ دنيوي يتوقعه منه، أو لخدمة يخدمه، ولا يلحظ بتلك المداراة وجه الله تعالى؛ فهذه مداهنة لا مداراة، ومن وفَّقه الله لوزن نفسه بميزان الاعتدال في الأمور، وأيقظه لطرفي الإفراط والتفريط؛ استقام على الصراط المستقيم بمشيئة الله تعالى وعونه، وبالله التوفيق، والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.



(١٢)

قاعدة في أن العبد يتعيّن عليه معرفة الطريق إلى الله عزّ وجلّ والتعرّف له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه الإعانة

الحمدُ لله جامعِ المتفرِّقات، المانِّ بتُحَفِ المَبارِّ والصِّلات، والمتفضل على أهل وداده بمِنَح الكرامات، الجاذب لقلوبهم إلى دائرة الجمع من تفرقة الشّتات، طوبى لمن كان الله أمله ومبتغاه من جميع الأغراض الفانية والموجودات، وقرة عينه إذا قرَّتْ عيون أهل الحظوظ بالأشياء الموات.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، إله الأرض والسموات، وعالم ما ظهر وما بطن من الخفيَّات، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليُقَوِّم به أهل الضلالات، وينقذهم من المعاثر والورطات، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلوات، وحيَّاهم بأكرم التحيات.

وبعدُ:

فالعبد يتعيَّن عليه معرفة الطريق إلى الله عزَّ وجلّ، والتعرُّف له، فمن عرف ذلك؛ كان الكريمَ على ربّه، والسِّفلة من لم يعرف الطريق إلى الله عزَّ وجلّ، ولم يتعرَّفه.

والواجب على من سلك طريقًا إلى الله عزَّ وجلّ ألا يفارقها حتَّى يأتيه اليقين، وإن شقت عليه وتعذرت أسبابها لديه؛ فليسلك إلى الله طريقًا أخرى، فإنَّ الطُّرق كثيرة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، وذلك رحمة منه وفضلًا؛ إذ لو كانت طريقًا واحدة مع اختلاف الأذهان والعقول، وقوة الاستعدادات وضعفها، لم يسلكها إلَّا واحد بعد واحد، ولكن لمَّا اختلفت الاستعدادات جُعلت الطرق متنوعة ليسلك كل امرئ إلى ربه على قدر ما يقتضيه استعداده.

فمن الناس من سلك طريق العلم والتعلُّم، يريد بذلك وجه الله تعالى، فلا يزال لذلك عاكفًا على طريقه؛ يتعلَّم ويعلِّم، حتَّى ينفذ إلى ربه، أو يموتَ في طلبه، فيرجى له الوصول بعد مماته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

ومن الناس من يسلك طريقًا من طرق الآخرة، مواظبًا عليه، يريد به وجه الله، عاكفًا على ذلك العمل، غير مفارق له بالإرادة الصحيحة في طلب مولاه، مثل جهاد أو رياضة، أو حج، أو صلاة، أو صوم، أو خدمة، أو إعانة، أو إطعام المساكين، أو بر الوالدين وخدمتهما، أو نوعًا من العبادات المشروعة، مثل دوام تلاوة، أو ذكر، أو مراقبة، أو تجريد، هم في محبة الله تعالى وطلبه.

وما جرَّب المجرِّبون من هذه الطرق طريق الصلاة، فإنَّها صلاة[1].

---

(١) كذا وردت العبارة في المخطوطة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]، خصوصًا إذا كانت في خلوة بالتلاوة وطول الركوع والسجود؛ فإنَّها تذوّب النفوس، وتنوِّر القلوب، وتوصل إلى المحبوب بعون الله وتوفيقه، وتورث دوام حال المراقبة والتعظيم، فلا يزال على ذلك العمل يريد به وجه الله والوصول إليه، لا يفارق ذلك العمل حتَّى يموت أو ينفذ إلى ربّه.

ومعنى النفوذ أن يتصل قلبه بنور ربه، ويعْلَق به، فيسلو به عن جميع الشهوات، ويخترق كوامن النفس، ويظهر دسائسها وخفي شهواتها في حق معرفته واتصاله بربه، ثم يعطف عليه مولاه فيقربه ويصطنعه، ويأخذ بقلبه إليه، ويتولاه في أموره ومعاشه وزواجه، ويتولى تربيته كما يربي الوالد ولده، بل أبلغ؛ فإنَّه سبحانه القيوم بكل شيء من المخلوقات؛ طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه واعتنى به، واهتم بقربه والوصول إليه؟!

ذاك أمر لا تسعه العبارة.

لو كشف الغطاء عن ألطافه به من حيث يعلم العبد ومن حيث لا يعلم، لكاد أن ينقطع شكرًا لمولاه، فمن وقع في تربية الحق وتوليه يشعر باتصال قلبه به سبحانه، ويشعر بتوليه له سبحانه في أموره، فهو كالمفوض إليه في النوائب وغيرها، بل في مجاري الأنفاس، ينتظر ما يريده به مولاه، قد رضي به مدبِّرًا، ومتولِّيًا، ومُعينًا، وناصرًا، وكافلًا، وراحمًا، وكيف لا وهو أرحم الراحمين، وأحسن الخالقين، وخير الناصرين؟! **تبارك الله ربّ العالمين.**

ومن رزقه الله معرفة ذلك والإيمان به؛ لم ينحرف عن ربه في طريق يسلكها إليه، بل يتوجه إليه بالقصد الأول، ثم يستخير مولاه في طريق يسلكها إليه فيسلكها، ويدوم عليها حتَّى يصل إلى ما ذكر من النفوذ، أو يموت في طلبه.

ومن عرف طريقًا إلى الله ثم تركها، وأقبل بإراداته على نيل شيء من راحاته ولذاته، تعثَّر في آبار المعاطب، وسجن قلبه في حبوس المضايق، وعذِّب بعذاب لم يُعذَّب به أحد من العالمين، وكيف لا وقد ترك طريق مولاه، وأقبل بكلِّيته على هواه، فهو وإن نال بعض حظوظه، وتلذذ براحاته وشؤونه، يكون مقيد القلب عن انطلاقه في فسحة التوحيد، منحطًّا بسبب إعراضه عن مولاه في أسفل السافلين.

وإن مات ـ والعياذ بالله على ذلك ـ خيف عليه عذابًا خاصًّا من الحُجُب الحائلة عن مولاه، وأن يُحرق بنار من البُعد عن قربه، ويحال بينه وبين ما يتمناه من فضله، وإن كان في نعيم عام في البرزخ، فقد يخاف عليه هذا العذاب الخاص في البرزخ وفي الموقف إلى أن يقضى بين الخلائق، ويتخلف بذلك في الجنة عن درجات المقرَّبين المحبوبين النافذين، أو عن درجات الصادقين الطالبين، الذين دام لهم السير المحبوب إلى مولاهم حتَّى الممات.

ويخشى عليه إذا نال غرضه من شهوته العاجلة أن يُنغَّصَ عليه لذاتها أحوج ما كان إليها، ويلحقه غب إعراضه، فيعوق عليه أسباب مراده، فيخسر الأمرين جميعًا، فيكون معذبًا في الدنيا بتنغيص شهواته، وشدة الاهتمام بطلب أقسام العاجلة من الأسباب بهمٍّ

لا ينفذ، وحرص لا ينقطع، وذل وطمع لا حد له، ومعذبًا في البرزخ، وغب الإعراض بالبعد عن الاقتراب من مراتب أهل الصدق والثواب.

طوبى لمن عرف طريقًا إلى مولاه فلم يترك الذهاب فيه حتَّى يلقاه.

ومن أقبل على الله بكلِّيته أقبل الله عليه بكلِّيته، ومن أعرض عن الله بكليته، أعرض الله عنه بكلِّيته، والخير كله في إقبال المولى المالك على عبده، كما أن الشر كله في إعراضه عنه.

من أعرض الله عنه لزمه التعثير في أحواله، وقارنه سوء الحال في دنياه ومعاده، ومن أقبل عليه مولاه قارنه السعد في أُولاه وأُخراه.

إن الله تعالى إذا أقبل على جهة استنارت، وأشرقت ساحتها، وتنوَّرت ظُلماتها، وظهرت عليها بهجة الجلال، وسيما آثار الحال، وتوجه إليها أهل الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة؛ لأنهم تبع لمولاهم؛ إذا أحبَّ عبدًا أحبُّوه، وإذا أبغض عبدًا مقتوه، وناهيك من يتوجه إليه الملِك الأعظم بالمحبة والوداد، ويلحظه أهل السموات وصالحو العباد بالاعتناء به في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

وإن الرب عزّ وجلّ إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس، وأظلمتْ أرجاؤها، وانكسفت أنوارها، وظهر عليها وحشة الإعراض، وصارت مأوى للشياطين، وهدفًا للشرور والتكوين[1].

(١) كذا.

فالمسكين من عرف طريقًا إليه ثم أعرض عنها، أو وجد بارقة من حبه ثم سلبها لم ينفذ إلى مولاه منها، خصوصًا إذا مال بتلك الإرادة إلى نيل شيء من اللذات، أو انصرف بجملته إلى تحصيل كفاية الزوجات، عاكفًا على ذلك في ليله ونهاره، وغدوه ورواحه، هابطًا من الأوج الأعلى، إلى الحضيض الأدنى، مضت عليه برهة من أوقاته، وكان همه الله، وبغيته قربه ورضاه، على ذلك يصبح ويمسي، ويظل ويضحي، وكان الرب في تلك الحالة وليه؛ لأنه ولي من والاه، وحبيب من والاه، فأصبح ثاويًا في آبار التفرقة، مُعْرِضًا عن المطالب العالية إلى نيل الأغراض الفاتنة، كان قلبه في السموات، فأضحى هاويًا في المزلَّات، كما قيل:

وأصبحتُ كالبازِ المنتَّف ريشُه ... يَرى حسرَاتٍ كلَّما طارَ طائرُ
وقد كان دهرًا في الرياض منعَّمًا ... على كلِّ ما يهوى من الصيد قادرُ
إلى أن أصابته من الدهر نكبةٌ ... فأصبح مقصوص الجانحين حاسر[1]

فيا من عرف إلى ربه طريقًا وأعرض عنها؛ ليت شعري بماذا تعوَّضت عن الأحبَّة؟ أم بماذا قنعت في شراب المحبة إذا قيل لك: كيف طاوعك قلبك على الإعراض إلى نيل ما لا يبقى من الأعراض؟

ليت شعري؛ بأي جواب تجيب وأنت مخطئ غيرُ مصيب؟

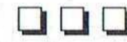
يا مُعرضًا عنَّا، عنَّاك التعب، يا من باع الدُّر بالمحلب هذه لذتك الفانية، حاصلها فرحُ شهر، وعمرُ دهر، انتبه من رقدتك قبل حصولك

(١) في البيت إقواء، والأصل: فأصبح مقصوص الجناحين حاسرًا.

في إشراك، فتبقى كدود القز يسد على نفسه المذاهب بما نسج على نفسه، فيندم حين لا تنفعه الندامة.

فنسأل الله الكريم ألا يجعلنا من المُعرضين عن الطلب، الناكصين إلى نيل الحظ العاجل والأرب بكرمه ورحمته، إنه أرحم الراحمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(١٣)

قاعدة في تقوية السَّالك على الوصول إلى مطلوبه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله أجمعين.

كتبنا قبل هذا قاعدةً في الحثِّ على سلوك طريق الحق سبحانه وتعالى، وأن من سلك طريقًا من طرق الحق تعالى، يتعيَّن على سالكها ألّا يفارقها حتَّى ينفذ إلى ربه تعالى منها، أو يموت في طلبه، وبينَّا النفوذ ما هو معناه.

وهذه القاعدة تتمة لتلك القاعدة، فإنَّ تلك القاعدة خاصيتها الانجذابُ من طرق الشهوات إلى طريق من طرق الحق تعالى من تلك الطرق المذكورة؛ من الحج أو الصلاة أو الجهاد أو غير ذلك، وخاصية هذه القاعدة تقوية ذلك الذي انجذب من طرق الشهوات إلى طريق من هذه الطرق؛ فإنَّه يحتاج إلى شيء يقويه في هذه الطريقة؛ ليبقى سيره فيها أقوى من سير صاحب الشهوة في شهوته، إن شاء الله تعالى.

اعلم أن قوة السالك في سيره وتقواه إنما يكون بقوتين؛ قوة علمية، وقوة عملية.

فبالقوة العلمية: يبصر ما بين يديه، ويقصد به الأمر الحق، ويجتنب به أسباب المهالك والمعاطب، كشخص يمشي في ليلة مظلمة، وفي يده سراج يبصر في ضوئه ما يتعثَّر الماشي بمثله من الشوك والحجارة وغيره، ويبصر ـ أيضًا ـ بالسراج أعلام قصده، فيتقوى به على الاهتداء إلى المطلوب، وعلى التحرز من المعاثر والمعاطب.

وأما القوة العملية: فهي حقيقة السير إلى المطلوب؛ لأن السير عمل المسافر، فكذلك الذاهب إلى ربه إذا بصر طريقه وأبصر المعاثر فيها، سار إلى ربه في معاملة يتقرب بها إليه، في طريق يختارها الله له، وكلما أدمن ذلك العمل وواظب عليه قرب من ربه، وذابت غدد نفسه؛ كالمسافر كلما أدمن السير قرب من المنزل، وتلطفت كثافته، وظهرت عليه همَّة المسافرين وسيماهم.

ففي الناس من تكون له القوة العلمية التي مقتضاها البصر بالدين، وبالطريق المقرِّبة إلى الله تعالى، وتكون موجودة فيه، ويكون ضعيفًا في باب العمل، يبصر الأشياء ولا يعمل بها، ويبصر المتالف والمخاوف ولا يتوقاها، فهم فقهاء حتَّى يحضر العمل، فيفارقون العامة في البصر فقط، ويشاركوهم في التخلف عن المقصود، وهم غالب المتفقهة من أهل عصرنا.

وفي الناس من تكون له القوة العملية موجودة فيه، وهي التي مقتضاها السير والسلوك، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ويكون أعمى عن البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في المقامات والأعمال، وهم غالب المتفقِّرة والمتصوِّفة من أهل

زماننا؛ تجد أحدهم سالكًا، أعمى عن المطلوب، لا يدري من يعبد، وبماذا يعبد، كما قال القائل:

مُشَرَّدٌ عن الوطنْ ... يبكي الطلول والدِّمَنْ

يهوى ولا يدري لمنْ

ويكون مع ذلك أعمى عن العبادة، فلا يدري بماذا يعبد ربه، بل يعبده بجميع ما يلذ نفسه من لبس الصوف والحفا، وكشف الرأس، وحلق اللحية، فهو أعمى عن ربه، وعمَّا يعبد به ربه، لا يعرف دينه ولا شريعته المثلى التي يُعَبِّد الخلق بها، وهي الشريعة التي لا يقبل الله عملًا ممن تقرَّب إليه بشيء لم يكن فيها، وإنما يُعبد الله ويُدان بما شرعه، وأمر به، وكذلك لا يعرف صفاتِ ربه التي تعرَّف إلى عباده بها، ولا يعرف ما يجب له من الصفات، ولا ما يستحيل في حقه من الصفات.

وليعلم العاقل أن السالك لا يتمُّ سيره وسلوكه إلَّا بكمال القوتين، ووضْعِهما مواضعهما؛ وهي: القوة العلمية، والقوة العملية، فمتى كمُلتا في سالك ووضَعَهما مواضعهما، وسار بهما، استعد بذلك للوصول إلى مطلوبه، إن شاء الله تعالى.

ونبدأ بذكر ما يخصُّ السالك من **القوة العلمية** التي هي بمثابة البصر من الأمر اللازم الذي لا بد منه، إن شاء الله تعالى.

يتعيَّن على السَّالك معرفة الرَّسول ﷺ، ومعرفته متعذرة إلَّا من طريق سُنَّته من كتب السير والمغازي والسنن المنقولة عن رسول الله ﷺ، فبذلك يعرف أيامه وأخلاقه وآدابه، ويمكن العارف بذلك أن يتصوره في المدينة ﷺ كأنه يراه، ويرى أخلاقه مع أصحابه وأزواجه،

وعباداته وغزواته وآدابه، فإذا يسَّر الله تعالى للسَّالك معرفة ذلك بمواظبة مجالس مواعيد الحديث والتفسير والسير؛ فقد حصل له بعون الله تعالى الأساس الذي يُبني عليه البنيان، ثم يترقى من ذلك إلى معرفة صفات الله، الرب الذي أرسله وبعثه رحمة للعالمين، كما أخبر سبحانه وتعالى في كتابه، وأخبر عنه نبيّه ﷺ من كونه فوق عرشه، فوق سبع سمواته، عالمًا بما في خلقه، سميعًا بصيرًا بأحوالهم، يدبر أمورهم، يقبض ويبسط، ويعز ويذل، ويُفقِر ويغني، ويُمرِض ويشفي، ويُميت ويُحيي، ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أنزل كتابه على عبده، وشرائعه وحدوده من الحلال والحرام، والسنن والأحكام، والمواعظ والآثار، والقصص والأخبار، هدى به الخلق إليه حيث كانوا جهالًا لا يعرفون معبودهم، ولا يعرفون بماذا يعبدوه، فمن حصلت له هذه المعرفة بربه وحصل له الفهم عنه في أوامره ونواهيه، وحدوده وأحكامه، بعد معرفة صفات رسوله ﷺ، وسننه وآدابه وأخلاقه، فقد كملت فيه القوة العلمية البصرية، وانفتحت عين قلبه، واهتدى إلى ربه، وعرف طريقه وشرعه ومنهاجه، فمثله كمثل شخص كان أعمى يتخبط في طرقه، ويتعثر في أحواله، فمنَّ الله عليه فأبصر بعد أن كان أعمى، فأشرق عليه نور الشمس، فقد كملت فيه قوة البصر والعلم بالأشياء، وبقي عليه القوة العملية.

وأما القوّة العملية التي لا يتمُّ الوصول إلَّا بها؛ فالسَّالك إذا عرف الله تعالى وعرف نبيّه ﷺ، وأيقن بأن ربه تعالى الذي عرفه فوق عرشه معه، وفوق كل شيء يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سرّه وإعلانه، يشد حينئذ مئزره في ضوء نور معرفته بين يدي ربه، ويعامله

معاملة تليق به على حسبه؛ ببذل الجهد في ذلك، فإنّه قد عرف من يعامل، وكيف يعامل، فليقم بين يدي مولاه الذي يعلم سرّه ونجواه، بقلب منكسر، وجسم خاضع، وطرف خاشع، يعبده بعبادة يحب أن يلقاه بها، ويحسن عنده أن يعامل هذا الرب العظيم بها.

وفي هذه المعاملة تتفاوت العقول والأذواق؛ إذ كل امرئ يحب أن يلقى ربه في عمل يناسبه، ويعظم عنده، ويزكو على غيره من الأعمال، هذا يحب أن يلقى ربّه مصلِّيًا، وهذا يحب أن يلقاه مجاهدًا، وهذا يحب أن يلقاه ذاكرًا، وهذا يحب أن يلقاه خادمًا، وهذا يحب أن يلقاه حاجًا ومعتمرًا، فيواظب على ذلك العمل بين يدي مولاه في ليله ونهاره، يتقنه إتقانًا يليق عنده بربه، ويحسن عنده أن يلقاه به، لا يزال كذلك حتّى يموت أو ينفذ إلى ربه.

وقد تقدَّم معنى النفوذ، فمن كمُلت له هاتان القوّتان؛ **العلمية والعملية**، قوي في طريقه إن شاء الله، وقوي على قطع القواطع، وحجب الموانع؛ فإنَّ القواطع كثيرة، والموانع جسيمة، وقد قيل: الوقت سيف فاقطعه وإلا قطعك، ومتى كان السير ضعيفًا، والقواطع النفسانية قوية؛ خيف على السالك النكوص والرجوع، نعوذ بالله من العمى بعد البصيرة، ومن الرجوع عن السير وعن قوة العزيمة، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، والحمد لله ربّ العالمين.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.



(١٤)

قاعدة في المستعِدّ للتصوف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله منوّر الصدور بطلائع الإيمان، وشارحها ببوارق اليقين والعرفان، باسطًا القلوب في ميادين الروح والريحان، في حضرات قدس تقريب الرحيم الرحمن، بواسطة أنوار الأسماء والصفات، إذا فتحت خزائن الامتنان.

وكيف لا تبتهج القلوب وترفرف سرورًا إلى العلى فَرْحة وحبورًا، وقد خرجت من مضايق الشكوك والارتياب، وظلمات الطبائع والحجاب، إلى فسحات التوحيد والاقتراب، في بواهر أنوار تفجأ كبرق السَّحاب، وأشعة شموس تلمع كالشهاب؟

طوبى لمن شرُف بهذه المنح، وخُلعت عليه منها ملابس الفرح، طوبى له وحسن مآب، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، سيِّد ولد آدم، الفاتح، الخاتم، المنتظر، القائم، واسطة العقد، وزينة الدهر، وينبوع الفلاح، ومعدن النجاح، يزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر،

فهو صدرهم وبدرهم، وعليه يدور أمرهم. قطب فلكهم، وواسطة قلائدهم، عين كتيبتهم، الداعي إلى حقيقة هذه في دار السلام، التي نعيمها قالب لنعيم الحقائق، كما أن المتابعة قالب لتلك البوارق، شمس ضحاها، هلال ليلتها، در تقاصيرها، زبرجدها.

صلوات الله عليه وعلى آله ما ذَرَّ شارق، وحنَّ وامق، وطرق القلوب من الملأ الأعلى طارق.

وبعدُ:

فإنَّ هذا الفنَّ من العلم يفتقر إلى أهلية واستعداد وعقل فائض، قائم بالعبودية بلا استبداد، تتغذى به القلوب من جوعها كما تتغذى الأجساد بالطعام، وتجد لذته كما تجد لذة المحسوسات بين الأنام، تنفرج به عن القلوب كروبها، وتنمو به العقول، فتعلو به في أقدارها وخطوبها، وتتنوَّر به البواطن فيذهب يبسها ورسوبها، وتعلو به هممها نحو السماء، وتنشرح في ذلك الفضاء بين عساكر الأولياء فيذهب همّها وحزنها، ويذهب هلعها وجبنها.

هذا تأثير هذا الفن، فمن استعد له مع ما يرزق من صفاء الفكرة، وصحة الرؤية، وسلامة الطوية، وطيب الطبيعة الفطرية، يبدي هذا الفن من السالك بشاشة في وجهه، لِما استكنَّ في باطنه من نور ربه، ويجرِّد عن القلوب غلَّها وأغلالَها، وخبثها وأعلالَها، فهم القوم تراهم أروح الناس قلوبًا، وأوفرهم عقولًا، وأحسنهم في معايش دنياهم تصرفًا، وأصحَّهم في تدبر أديانهم فكرة وتبصرًا، وأسكنهم عن الخنا نفوسًا، وأطيبهم بذكر الله أرواحًا، وأكثرهم بربهم أفراحًا؛

لأن بواطنهم مجذوبة بالمحبة إلى حظائر القدس، مكتحلة باكتحال التقريب والأنس، سيماء المحبة عليهم لائحة، وبهجة المعرفة لديهم ظاهرة من حسن الأخلاق، ومطايبة الرفاق، والمكارمة في التلاق؛ لتهذبهم في معاملة الخلاق.

فمن ورث في سلوكه هذه الشيم، ومطرت عليه فيه أنوار الفيض كالدِّيَم، فصفت عن الكدر عناصره، وأبهجت بالإشراق ظواهره، وسكنت عن حديث النفس خواطره، وحركت بالمحبة ضمائره، وبلواعج الإشراق سرائره، كان لهذا الأمر مستعدًّا، وفي مقاماته راقيًا مُجِدًّا، وافق هذا العلاج لأمراضه طبًّا، وأورثه من إخوانه حبًّا، وكان على عبادة ربه وعبوديته مكبًّا، شرحت المعرفة صدره، ويسَّر التفويض إلى الله أمره، وصار قلبه من محبته كالجمرة، ورُزق بين إخوانه المحبة والنظرة، فتلقحت أسرارهم بالتآلف والتعاضد والنصرة.

هذه شيمة من صحَّت منهم الفطرة، وكشفت لهم عن آثار القدرة، ومن صفاتهم ما قيل:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أجوادٌ ذوو كرم   إخوانُ مكرمةٍ أبناء أيسارِ
مَن تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيِّدهم   مثل النجوم التي يسري بها السَّاري

وأمَّا من أورثه الدخول في هذا الشأن تبلدًا في ذهنه، وحيرة في عقله، وانقباضًا في سرِّه، وشتاتًا في معيشته وأمره، وجهالة في عقله وعلمه، يتعاطى حركات المتشبطين، ويسأل سؤالات المتعمِّقين، ويتعاطى الوجد تكلُّفًا، ويتقحَّم في ميادين المقرَّبين بطبعه تحيُّرًا وتشهيًا بلا سلوك مَرْضي، ولا سير جليّ ولا خفيّ.

تظهر عليه أمارات الانحراف، وينعطف إلى تدبيره كالكافّ، لا ينتظم في سلك العباد من الاجتهاد في الأوراد، ولا ينحط في أسلوب الأمجاد، أهلِ الهمم العلية الأفراد من التكيف بكيفية الواجدين، والبدار إلى حلية السَّابقين، فليس مع العابدين ولا الواجدين، فما أقربه إلى حلية البطالين الذين كان ثمرة سلوكهم سوء التدبير في المعيشة، والكسل وكثرة الرقاد في العريشة، وإهمال إصلاح العقول بالعلوم المفيدة، وتواتر الهموم عليه بلا نتيجة، وحاله كما قيل:

وا ضيعةَ العمر لا علمٌ ولا عملُ   ولا ثراء بل التسويف والأمَلُ
إن رُمتُ مرتبة الأبرار يبطئ عنـ   ـها التقاعد والإهمال والفَشَلُ
أعلِّلُ النَّفسَ بالتقوى وبي عِلَلٌ   وهل ينالُ المعالي مَن به عِلَلُ

ومثل هذا الإنسان الذي لم يستخرج السلوك منه كما استُخرج من أهل هذا الشأن، فيما سبق من الشرح والبيان؛ فعليه أن يتقي الله في نفسه، ولا يتعاطى ما لا يجدي عليه في يومه ولا أمسه، ويستعمل بدنه بما هو أولى به من علم رافع، وسبب دنياوي نافع، وعبادة تكون له غدًا عند الله كالشافع، ولا تضيع نفسه فيلقيها في فلوات المَتالف، ومعاطب التعاطي لما ليس له موافق ولا موالف، ويأخذ من نفسه لنفسه، ولا يدخل بالعَتْرسة بين أبناء جنسه، كما قيل:

خلِّ الهوى لأناس يُعرفون به   من رام شيئًا[1] بلا عزم فقد عثرا

---

(١) في المخطوطة: (شلوًا).

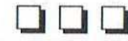
دبيبٌ للمجد والسَّاعون قد بذلوا   جهدَ النفوس وألقوا دونه الأُزُرا

فكافحوا المجدَ حتَّى ملَّ أكثرُهم   وعانقَ المجدَ من أوفى ومن صبرا

لا تحسب المجْدَ تمرًا أنت آكلُه   لن تبلغ المجد حتَّى تلعق الصَّبِرا

فرحم الله امرءًا عرف حدَّه، وصوَّب جدَّه إلى ما فيه في الدنيا والأخرة سعدَه، وجانَبَ المغالطة مع معرفته بنفسه، واستعدادها وشَغَلها بما هو أولى بها، وبالله المستعان، وعليه التكلان.

آخر ما تيسَّر والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(١٥)

قاعدة في خصوص طائفة الصُّوفية

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

وجملة أمرهم أنهم قومٌ أحبوا صحبة الحق في الغيب، وطالبوا أنفسهم بالقيام بما يمكنهم من حقوق هذا المصحوب، على الأنفس والقلوب والأرواح، من وظائف الحب والتعظيم، وإيثاره على ما سواه من الخلق والحظوظ، ووظائف الآداب والأخلاق معه وبين يديه، وتحمُّل المشاق له في إقامة ما أمر، واجتناب ما نهى، وقنعوا به عوضًا عن كل شيء، فلم يلتفتوا إلى ما يفوتهم من رضاه ومحبته، وقربه من المنازل والدرجات، ولم يجعلوه غائبًا، ولم يعاملوه معاملة الغائب، بل معاملة الحاضر الشاهد، فإن غاب عن عيونهم فهو غير غائب عن بصائرهم، وهو أقرب إلى الشخص من حبل الوريد.

فكيف ترى شأن من أحب صحبة الملوك، ومواصلتهم وعبوديتهم والخلوة بهم، إن ذلك لشأن عظيم؛ فمنهم من وفَّى حق ذلك، فطوباه، ومنهم من أقام بالبعض، وقصر استعداده عن البعض؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولكلٍّ درجات عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

فهذا طريق العبد قبل الفناء، وما يجيء بعد الفناء من فضل إنما

هو فضل ومواصلة من ذلك لمن وُفِّق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فعلامة الحال الصحيح الذي تكون أصوله صحيحة، موصلة على العلم الإلهي الذي أنزل من السماء على رسول الله ﷺ، ألّا يضيِّع صاحبه حقًّا أوجبه الله تعالى عليه، ولا سنَّة مؤكدة حضَّ عليها رسول الله ﷺ، بحيث تكون مرتبتها فوق مرتبة الفرائض، وذلك حدٌّ جامع إن شاء الله تعالى.

ويدخل فيه حقوق الإخوان، ومكارم الأخلاق معهم، وإجابة سؤالهم، من أمور الدِّين والدنيا، وعيادة المرضى الصالحين من الإخوان، وتشييع جنائزهم، وأمثال ذلك، وإكرام ضيف يطرق منهم، والمحافظة على الجماعة، والكراهة وضيق الصدر لفوتها.

وأما ما يتعلق بالحظوظ النفسانية وإن كانت حقًّا؛ كالأكل عند الجوع وأمثاله، فقد يشغل الأحوال الصحيحة عنها، ولا يلامون على ذلك، فأما إن حجبهم عن مثل هذه الأشياء لقوة وارد ورد عليهم وقهرهم، فقد يعذرون في ذلك من وجه، ولا يعذرون من وجه.

فوجه عذرهم؛ أنهم ورد عليهم ما حجزهم عن الجمع بين صولة الحال وبين ذلك الأمر الواجب، أو السنة المؤكدة، ووجه كونهم لا يعذرهم أنهم لو فتشوا في أصولهم التي أسسوا عليها قواعد سلوكهم، لوجدوا فيه أدنى خلل، أمَّا من جهة تهاون ما يسير أدنى ما يكون تقديره بالسنن الشرعية، وإن لم تكن تهاونًا بالفرائض، أو أدنى لوث في العقيدة، أو تزلزل لم يتحكم أصولها من جهة المنعقد، التي توجب اليقين، كمن لاحت أدلتها، وأمثال ذلك.

فجميع هذه وإن كانت عزيزة قليلة في البدايات، يعود حكمها على صاحبها في النهايات، فتورث الفتور عمَّا أكد الشرع عمله من مؤكدات السنن، وهذه قاعدة نرجو ألا تَخرم ـ إن شاء الله تعالى ـ كل نقص كان في البداية ظهر، في الأحوال عند النهاية.

ومثله الكمال يظهر آخرًا، وذلك شر دقيق يفطن له الأولياء، وهو أنه إذا عظمت عند السالك أقدار السنن في الابتداء انخمرت في البواطن تعظيمها، فيظهر حكم ذلك التعظيم في الاستغراق، فلا يشغله ما دهمه من الحال عن تحمُّل تعرفه تلك السنة المؤكدة، بل يبقى ذلك التعظيم الذي تخمَّر يحمل صاحبه على معاملة الله تعالى بذلك المندوب كما تحمله الضرورات عند ورود الحال على الأكل والنوم، والضرورة اللازمة التي لا بدَّ منها، فإنَّه يتعاطاها بحكم الضرورة في استغراقه، فكذلك هذا.

ومثل هذا تعظيم المنكرات في الشرع إذا تخمَّر في العقائد في الابتداء، فيحمله ذلك في الانتهاء النهاية عند ورود الأحوال على إنكارها، وإذا لم تخمر ذلك في العقائد فقد يسكت الإنسان، ويقول: الإنكار بقول يفرق جمعيتي، فيهمل أمر الله بعذر، ولا يعذر فيه، وهذه أصول دخل فيها من الخلل على السالكين، في نهاياتهم دواخل، وتوهَّموا أنهم معذورون لغلبتهم، وكانت أصولها منحلة في الابتداء عندهم، فهم وإن عذروا في غلباتهم، فقد لا يعذرون في تقصيرهم في الابتداء عن أحكامها، والله الموفق.



(١٦)

قاعدة يُذكر فيها أمر السَّالك في الابتداء وفيها تعلُّق بالأولى

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

السالك في الابتداء قد تكون في نفسه كَوامِنُ خفية، لا يفطن لها، مثل إرادات خفية تنازعه النفس بإراداتها، فلا ينبغي أن يتغافل عنها بمعالجتها بعلاج يُذهب تلك الآثار من الباطن، ومتى غفل عنها وأهمل أمر ذلك وهوَّنه، كان ذا كمينًا لا بد بعد حين أن يظهر غالبًا من القوة إلى الفعل، فيقطع صاحبه عمَّا هو بصدده، ورأسًا وحزنًا من كان سالكًا، فكان في نفسه رؤية مُضرّ، وكان يدافع ذلك عن نفسه، ولا يعالجها بعلاج يُذهب أثر ذلك من القلب، فلم تزل نفسه تراوده حتَّى ترك سلوكه، وراح وراء مراده.

ورأينا من كان تخمَّر في باطنه إرادة النكاح وهو يهوِّن ذلك، فلم تزل تلك الإرادة حتَّى ظهرت من القوة إلى الفعل، فهرب من الحقائق إلى الظاهر، ودخل في الرخص، وقنعت نفسه بذلك، وسكنت عن طلبها، والنكاح سنة لا تجهل، لكن السالك الطالب يعمل على وصوله، والوصول يقتضي فناء ما سوى الله تعالى من قلبه، فإذا صار كذلك، وخمدت جميع شهواته، وصار مراده مرادًا واحدًا

وهو الله وحده لا شريك له، أدخله ذلك في المحبة الخاصة المسكرة لصاحبها، عن جميع الأشياء.

ومن أحب الله تعالى وتولَّاه فإن كان قد قسم له حبيبُه الأعظمُ زوجةً ساقها إليها مهيَّأة، وكفاه بإرادته لا بإرادة العبد، ويبقى أمرها محمولًا، ولا تنقطع عليه طريقه إلى مولاه، ورجوعه إلى عوالم الطبيعة والنفس الذي هو الخذلان عند أهل التحقيق.

والحمد لله وحدَه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(١٧)

قاعدة في اعتبار أهل الخير وغيرهم

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

اعلم أن العاقل إذا تأمل في هذا الزمان أهل الخير والمنقسمين إليه، يجدهم أصنافًا، كل صنف قد اقتصروا على شعبة من الأمر التام الكامل، فقلَّ أن تجد أحدًا احتوى على الأمر التام إلَّا من شاء الله.

فتجد قومًا قائمين بصورة سنَّة الرسول علمًا، وبعض أفعالها عملًا، بعيدين عن أذواق الأرواح الخاصة من المحبة الخاصة المسكرة، والإيمان التام النافذ من صدق التفويض والتوكل، والخوف والرجاء، لكن جملة ما يتم فيه صورة السنَّة صحَّته علمًا مع أشياء من أعمالها فعلًا لا روح فيه، بل ربَّما كان فيه روائح يسيرة من روائح القلب، مثل استرواحٍ عند تلاوة أو سماع حديث أو نحو ذلك لا غير، وهؤلاء عندهم جسم الدِّين وقالبه، ونفوسهم ربَّما خرمت عليهم شيئًا من قالب الدين، فلم يتركهم يكملوه على هيئة العدل والصواب من كل الوجوه.

وتجد قومًا يترامون إلى عالم الروح من طريق غير مشروعة، قد أعرضوا عن أهل الصنف وعن جميع ما عندهم من الخير، اللَّهُمَّ إلَّا رسوم الدين؛ الجمعة، وصوم رمضان وأشباه ذلك، فوقعوا

لإعراضهم عن الشريعة، وتعاطيهم عالم الأرواح في انحراف كثير، بحيث صاروا في صوبٍ وأهل الدِّين في صوب، فوقعوا في السَّماعات المحرَّمة والمكروهة، وممازجة أهل الصور لميل أهل الأرواح والنفوس إليهم، فبعدوا لطلب الكمال من غير وجهه عن الكمال بعدًا كثيرًا.

وتجد قومًا طلبوا الكمال، وابتدعوا طريقًا لذلك تحذلقوا فيها، فعملوا رسومًا غير مشروعة، من القيام والقعود والمعاشرة، فانصرفت الهمم إلى إقامة ذلك الرسم، فحُجبوا به عن حقائق رسم الدِّين وصورته، وذهبت حلاوة صورة الدِّين وآدابه المشروعة عن قلوبهم؛ لأنها امتلأت برسوم نسبوها إلى شيوخهم، وطلبوا الكمال بلا اقتداء بالرسول محض عن الاقتداء بغيره، فبعدوا بذلك عن الكمال بعدًا عظيمًا، وإن كان فيهم ذا روح فتكون روحه مخنوقة مسجونة بحبال هذه الرسوم، لو خرج منها إلى رسوم لتنزلت تلك الروح على هذا القالب تنزُّلًا مناسبًا له، فمن كان فيهم ذا روح على رسومهم التي أقاموها كانت روحًا على قالب لا تناسبه؛ كروح إنسان في جسد ثور، فهي دائمًا تتألم بذلك الجسد، وتود أن لو كانت في جسد إنسان؛ فإنَّه مناسب لها.

والأمر التام الكامل أن يتمسَّك الإنسان بصورة الدِّين وقالبه المشروع في العبادات والآداب والأخلاق التي سنَّها رسول الله ﷺ، ودوِّنت في الدواوين؛ كسنن أبي داود، والترمذي، بحيث لا يتجاوز الإنسان ذلك ولا يتعداه إلى رسمٍ وقالبٍ ابتُدع بعد رسول الله ﷺ، وفي ذلك كفاية تامة للسالك، ومتى لم يكتف بذلك احتاج إلى بدعة

من الرسوم يمتلئ بها، فيتخلَّف عنه من الخير بقدر ما امتلأ به من تلك الرسوم المحدثة، فإذا تعوَّد الجسد بالقيام بالوظائف والآداب الشرعية والسنن المشروعة لا غير، فيهتم طالب الكمال إلى النفوذ إلى عالم القلوب من هذا القالب الصحيح.

وطريقه إلى ذلك التوجه إلى الله تعالى بصدق التوبة والإنابة والرجوع إليه، رجوعًا لا يولي معه إلى غيره، ويثبت على هذه الإنابة والرجوع.

ومن لوازمها براءة الذمة من سائر الحقوق المالية، والتوبة من سائر ما فرط في سالف العمر، فهذه التوبة يظهر ويواجه الحضرة الإلهية، فهي أحسن بالطهارة عن درنه، ومواجهة الحضرة بالرجوع إليه، والإنابة رجوعًا وإنابة لا يرجع بعدها إلى غيره، فليثبت على ذلك.

ومتى ثبت على ذلك رُجي لصاحب هذا القالب الصحيح النفوذ إلى عالم القلوب ومكاشفات الصفات، فمتى كوشف بشيء منها علق قلبه بها، ولم يتركه أن يرجع عنها، فيبقى أبدًا مشتاقًا إليها، كلَّما توارت عنه التَهَب وانقبض، فلا يسكن حتَّى يجدها، فلا يزال كذلك حتَّى يكمل مشاهد الصفات.

ثم يرجو له النفوذ إلى عالم الأرواح، فيكاشف سره بعد المرور على الصفات بذوق الجلال الأحدي، والجمال السرمدي، فينصبغ قلبه بذلك صبغة لا تبرح، وهذا هو الغاية المطلوبة، تكون المتابعة من الآداب والسنن تجري على ظاهره بلا كلفة، بحيث تصير طبيعة،

وروحه مكاشفة بجلال المحبوب وجماله جل وعلا، فيكون الروح نهاية بذلك، والجسد عاكف على الأمر، فبذلك الأمر يتم سلوكه، وتنزاح عنه الرعونات التي تلبَّسها المنحرفون من سائر الطوائف، فيراها فيهم، ويحمد الله على العافية منها، ويرحمهم لأجلها؛ فإنَّهم مساكين، طلبوا الكمال من غير وجهه، فبعدوا، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(١٨)

قاعدة في الإنابة إلى الله تعالى

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

أهل الخصوص إنابتهم إلى الله عزَّ وجلّ أرفع الإنابات؛ لأن قومًا أنابوا إلى الله تعالى بالرجوع إليه من المخالفات، وقوم أنابوا إليه بالدخول في الطاعات والعبادات، وقومٌ أنابوا إليه بالتضرع والدعاء والافتقار، وأرواحهم بذواتها قد تكون ملتفتة عنه، معرضة إلى مألوف غيره نفساني.

وهذه الطائفة أهل الخصوص لمَّا عبروا على الصفات، وكوشفوا بآثار الجلال والجمال الأحدي، أنابت إليه أرواحهم بشدة المحبة الخاصة، المغنية لهم عمَّا سوى محبوبهم، وحيث نابت إليه أرواحهم، لم يتخلف منهم شيء عن الإنابة، فإنَّ الكل تبع الروح، فأنابت القلوب بالتضرع والدعاء مع الإنابة الروحية الخاصة، وأناب العقل بالانفعال لأوامر المحبوب العظيم ونواهيه، وأنابت النفس بالانخلاع عن عوائدها الذميمة، وعن تدبيرها واختيارها، وتفويضًا إلى مولاها وتسليمًا، وترك التدبير هو آخر الصفات المذمومة في النفس، وأناب الجسم والجسد بالانفعال لأفعال السنن والآداب، والأمر والنهي، فلم يبق من المنيب عِرق ولا مفصل ولا شعرة إلَّا ولها

رجوع إلى الحبيب الأعظم بالذات، رجوعًا لا يتخلَّف منه عن الله عزَّ وجلّ شيء.

وأين هذه الإنابة الخاصة لأهل الخصوص؟

فمن أناب ساعة بالدعاء، ولنفسه وقلبه وروحه وعقله التفاتات بالذات عمَّن أناب إليه، وإن كان قد أناب ساعة ببعضه ثم ترك ذلك، فلا إنابة أعلى من إنابة أهل الخصوص إذا أعان الله ووفق.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(١٩)

قاعدة في مظاهر الشهود والمعرفة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الدالِّ على نفسه بما أظهر من مصنوعاته، والمنعوت بما أبدى من مقدَّسات أسمائه وصفاته، والكاشف عن حُجُب الجلال والعَظَمة، متقربًا إلى محبته بكمال جمال قدر ذاته، وصلواته على سيِّدنا محمَّد أشرف الخلق ممن يراه لرسالاته، صلوات الله عليه، وعلى آله وصحبه وقراباته.

وبعدُ:

فإنَّ مظاهر المعرفة تتنوع وتتعدد بحسب الألطاف التي أبرز بها إلى أسرار المكاشفين من مالك الأولين والآخرين.

فعلامة مظهر الإلهية تجلِّي العظمة في الآيات الفرقانية، والأحاديث النبوية، متعرفًا بذلك سبحانه وتعالى وتقدس إلى قلوب أوليائه حين الاستماع والفهم من ذلك بأني ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤].

هذه آياتي وبيِّناتي، وحججي ودلالتي، وأنا المتكلم بذلك، والآمر بما آمر به، والناهي عما أنهى عنه، والمخوف بما أخوف به،

والمرجي بما أرجي به، فاسمعوا قصصي، وأطيعوا أمري، واتَّبعوا رسولي، وأنا المنفرد بذاتي وعظمتي فوق سبع سماواتي، مطَّلع على عبادي، أعلم سرَّهم ونجواهم، فاعبدوني ولا تشركوا بي شيئًا.

وها أنا معكم فلا تروني عنكم بعيدًا، وإنما بينكم وبين الآخرة حجاب يكشفه الموت فتروني عيانًا، وتروا صدق وعيدي مما خوَّفتكم به، وحذَّرتكم إياه، وصدق وعدي مما رَجَّوتُكم إياه، ورغَّبتكم فيه، وشوَّقتكم إليه.

ففي أول الأمر تتجلَّى هذه المعاني أو بعضها على قلوب المتوجِّهين، فتشعر قلوبهم بحقائق هذه الأسرار، ويكاشَفون بصرائح معانيها، ثم تتوارى عنهم بعض الأحيان، فمن دام له تجلِّي هذا المشهد في الذكر وفي غيره بواسطة عمل وبلا واسطة، فقد صار له مشهد الإلهية مقامًا أقيم فيه، وله من المعرفة الكاملة على قدر ما رزق منها، واستقام علمه وعمله، وخلص الخشوع إلى قلبه، والمحبة الصفاتية إلى باطنه، واليقين الصحيح إلى سره.

ومثل هذا الذي يسمَّى الموقن، والإيقان نهاية التصديق، والإيمان علامة مشهد الربوبية التي مقتضاها القيومية أن يكاشف القدر، والقدر بواسطة التأمل والاعتبار في المصنوعات، فتتجلَّى له العظمة الإلهية، والقدرة الربوبية، والحكمة القدسية بواسطة هذا التأمل، متعرِّفًا إلى قلوب أوليائه بواسطة ما ظهر من مصنوعاته ومبتدعاته بأني أنا الله لا إله إلَّا أنا الخالق، البارئ المصور، الحي القيوم المدبر، خالق الخلق وباسط الرزق، أنا الذي ابتدعت العالم

الذي ترون على غير مثال سبق، وقدَّرت آجال أهله، وقسمت أرزاقهم، ودبَّرت أمورهم على تدبير قدرتي بمقتضى حكمتي، وأنتم ترون أنها لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فمن الذي أقامها ويقيمها ويمدها غيري؟ أم من الذي يقوم بأودها سواي؟ أم من الذي صوَّر أشكالها العجيبة، وصبغ ألوانها البديعة، ونفخ فيها الأرواح المتنوعة المتضمِّنة عجائب الخواص كل منها لا يشبه الآخر، وكل منها يصلح في عالم الحكمة لما لا يصلح له الآخر؟

كل ذلك تدبيري وتقديري بمقتضى مشيئتي وإرادتي، الجاري على ذلك قوانين حكمتي، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

فتوكلوا عليَّ، وتقووا بي، وفوِّضوا أموركم إلي؛ فإني أنا مالك للأشياء، ومقاليد أمرها بيدي، أتوكل لكم وأكفيكم بما أهمَّكم، وأفرِّغكم لما خلقتكم له، وأنا الله ربّ العالمين.

فإذا كوشف العارف بحقائق هذه المعاني، وتعرَّف إليه بارئ النسم وخالق الأمم بأسرار هذه الأشياء؛ فإنَّه تردُّه الأشياء إلى بارئها خالقها، ولا يحجبه الخلق عن الخالق، ولا يرى مصنوعًا الأدلة عليه، ولا اعترضه شأن منها إلَّا رده إليه، فتبقى الأشياء المتفرقة عن النظر إلى خالقها جامعة دالة عليه، فلا يرى شيئًا إلَّا ويسبق نظره إلى المُبدئ الأول، الخالق المُعيد قبل نظره إليها، فيراه أوَّلًا حين يفجأه النظر إليها، ثم يراها ضمنًا وتبعًا، وربما غاب بملاحظة

قيمومِيته عنها، فمتى دام ذلك للعارف بواسطة الاعتبار والنظر وبغير واسطة، فقد رقي إلى مقام ملاحظة مشهد الربوبية، ومتى انحرف المشهد الأول إلى هذا، وانحرف هذا إليه كمل كل منهما بملاحظة الآخر، وقوي به.

واعلم أن هذا المشهد بلا شيء من المشهد الأول لا ينفع في الآخرة عند الله؛ لأن المشهد مجمع عليه بين أهل الملل والنحل، وهو بمثابة قول: **«لا إله إلَّا الله»**، ولا ينفع ذلك إلَّا بأن يكمل بـ **«محمد رسول الله»**.

فمشهد الربوبية كلمة التوحيد، ومشهد الإلهية كالإيمان بالرسالة، فمن جُمع له بينهما كمل كل منهما بالآخر، وبالله التوفيق.

علامة مشهد الدَّيَّانية التي مضمونها الكشف عن عالم الآخرة وموقف الحساب، وعظمة ذلك اليوم، وهو أن يكاشف بمشهد القيامة حين يقوم الناس لربِّ العالمين حفاةً عراةً غُرْلًا، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فتتشقق السموات عن طباقها، وتتنزل الملائكة فيصطفون بين الخلائق صفوفًا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٢ ـ ٢٤].

فيكاشف العبد بهول ذلك اليوم في الدنيا، ويراه ببصيرته بنور الإيقان، ويتعرَّف الرب تعالى إلى عبده بواسطة هذا المشهد؛ بأني أنا الله لا إله إلَّا أنا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، أوفي كل نفس بما كسبت، ولا أظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة أضاعفها،

ومن يعمل سوءًا يجز به، وأضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا.

وأنا سريع الحساب، وشديد العقاب، أدعو كل أناس بإمامهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلًا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا.

فمن ذا ينجيك من ذلك اليوم غيري، ومن الذي يتجاوز عن سيئاتك سواي، ومن يقبل عملك غيري حين تجيؤونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم، ولا تنفع الشفاعة عندي إلَّا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولًا.

فانتبه عبدي، وشمِّر لذلك اليوم، عسى تلقاني بوجه أبيض بما أطعتني في دار الدنيا، فأُثقِلُ ميزانك، وأغفرُ سيئاتك، وأجزيك جزاء المحسنين.

واحذر أن تلقاني ناكصًا عن طاعتي، مُدْبِرًا عن أمري، فأُذيقكَ نكالي، وأحرِمُكَ السعادة بقربي وجواري، فمن دام له هذا المشهد بحيث لا يتوارى عنه؛ فقد امتطى غارب الخوف، وذاق طعم الرجاء، وحمله ذلك على الجد والتشمير والاستقامة في الاجتهاد، السعايات والحركات مشاهدًا يوم تعدد فيه الجنايات، وتضاعف فيه الحسنات، ويباشر قلبه بواسطة هذه المعاني ذوق صفة الديان، ولها مع هذا الخوف لذاذة يجدها صاحبها أنْسًا ومحبة، فيحمله ذلك على الاعتدال في المسير كلما قبضه ذلك الهول بواسطة المعرفة، وآنسته المحبة تمكن في مقام مشهد الديانة.

واعلم أن هذا من لوازم مشهد الإلهية، لكنه يكون في ذلك المشهد ضمنًا وتبعًا، وفي هذا الموطن تمحضًا، وبالله التوفيق.

علامة مشهد الفردانية الدالِّ على عظمة الذات وإكرامه، وهو مشهد مستقل بنفسه، يكون غالبًا العبد فيه بعد الفناء في مقام البقاء وطوالعه ولوائحه قبل ذلك في موطن مشاهد الصفات المتقدمة، فيكون مقامه العام في الصفات، وحاله الخاص في طوالع مشهد الفردانية.

وإنما يتحقق العبد به بعد طهارته، وفناء خواطره بعد العبور على القبض المفني لبقايا العبد المطهر لأدرانه، فيورثه ذلك حالًا يسمَّى عند الطائفة: حال التجلية، فتذهب أذكاره وأفكاره بذهاب وجوده الأول وفنائه، فلا يجد له قلبًا يذكر به؛ لأنه خمدت نفسه على قلبه، وذابت أحكامها وصفاتها، وخمد قلبه على صفته، وذهب أحكامه وصفاته، وتجردت روحه عن عوالم النفس والعقل والقلب، فيبقى صاحبه فارغًا عن كل شيء، حتَّى عن الأذكار والأفكار، وملاحظة الصفات، ثم يتعرف إليه المولى العزيز.

في أثناء ذلك يتجلَّى مستقلًّا بنفسه، وفيه يقال: عرف ربه به لا بسواه، له ثقل على الأرواح وهيمنة، فيلبس الوجود بثقله، ويلهب الأفئدة بلمعان أشعته، ويتفاوتون في ذلك، وهذا الذي يوجب الحب الخاص الذي فيه السكرات.

والمشاهد الأول يوجب الحب العام، فيتعرف سبحانه إلى عبده بجلاله وجماله فوق عرشه على مملكته، متفردًا بفردانيته، متصفًا بصفات الكمال في وحدانيته.

وهذا المشهد الأول لا يعبر عن حقيقة ذوقه، ولا يعرفه إلَّا من ذاقه.

ومن علاماته: أن يُشرق في سرِّه جمال الوحدانية وجلالها، وبهجتها وكمالها الملازم لها في الآزال والآباد، فربما فني الشاهد في شهوده، فني ما لم يكن، وبقي من لم يزل، فيتشرف العبد بمولاه في هذا الفناء حقيقة التشرف، بل ربَّما يشهد الكون شريفًا ـ أيضًا ـ لمباشرة مولاه إياه في تدبيره وقيوميته له، وقربه منه، وعلمه به، فيرى كل شيء شريفًا ممَّا مدحه العلم، احترازًا عمَّا ذمه العلم، فيكاشفه مولاه بهذا العلم، بأني أنا الله لا إله إلَّا أنا ذو الجلال والإكرام، المتفرد بالفردانية، والمتوحد بالوحدانية، الجامع لجميع صفات الكمال والجمال.

وأنا الحبيب الأعظم، الذي أتقرب بمثل هذه الصفات إلى قلوب المحبِّين لي، والمكلَّفين بوجدي، والمحترقين بشوقي، أكشف لهم عن جمالي وجلالي، بحيث تمتلئ أسرارهم من آثارها، وتنبسط أرواحهم من أشعة أنوارها، ولولا الآجال المحتومة، والأقدار المكتوبة لزهقت أنفسهم اشتياقًا إلى معانيه، حقيقة ما وجدوه من ذلك الجمال الأحدي، والجلال السَّرمدي، فإياي فاعبد، ولجلالي وجمالي فعظِّم، وإلى قربي فاشتق.

وإياك أن تميل إلى ملاحظة شيء من المحبوبات الفانية المزاحمة لمحبتي، فمتى ملت إليها بكلِّك استحققْتَ بذلك السقوطَ من عيني، والحجابَ عن جلالي وجمالي، وبهائي وكمالي.

واستعن في تولِّيك وحفظك في مقامك هذا بين يدي، وعظم شكري؛ لما كاشفتك به من ذلك، وقم به، وفرِّغ قلبك بجملته لي، ولتعظم همتك في إقامة أمري، وفوِّض إلي.

وإياك أن تستبد بقول أو فعل إلَّا بي، واستقم على حفظ مقامك هذا حتَّى أمنحك النظر إليَّ عيانًا في الآخرة، فترى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهذا الذي تجده اليوم إنما هو حجب البشرية، فانظر كيف عظمته وخطره، فما ظنك بما يكون من حقائق ذلك في يوم الزيادة، فكن عبدًا لي حقيقة، ناظرًا إلي في كل ما تقوله وتفعله، مستخيرًا لي في شأنك كله، راضيًا باختياري لك، مستريحًا إلى ولايتي لأمرك، خائفًا من مكري، فإنَّه لا يأمن مكري إلَّا القوم الخاسرون.

واسألني من خير ما أعلم، واستعذ بي من شرِّ ما أعلم؛ فإني أعلم ولا تعلم، وأنا علام الغيوب.

وقد قيل في صفة هذا المشهد:

تَجَلّى لَهُم وصفُ الحبيبِ، فَشَاهَدُوا   محاسنَ وصفٍ حارَ في كُنهها العقلُ

فمن رقَّاه الله تعالى إلى هذا المشهد، وتعرَّف إليه بحقائق هذه المعاني، بما يلقيه إليه في سره في سكرات حبه، وإبراز كشفه، فهو الذي يعبر عنه بمشهد الفردانية، وربما أسكره ذلك عن شؤونه وأحواله.

ومنهم مَن قوَّاه الله تعالى فيه على الأعمال والأقوال، فلا يحجبه ذلك عن مشهده، فذلك هو الكمال.

وصاحب هذا المشهد في عيش هنيء، غالب حاله البسط الأُنسي، مع ممازجة فيض الهيبة والشعور بأحكام الديَّانية المبدوء بذكره، ممتلئ من بهجة الجلال والجمال، منشرح الصدر، قد أخذت جواذب المحبة باطنه، وأسرت روحه، فصار وجوده مظهرًا لأثر ذلك الجلال والجمال، وبهجة القرب والاتصال، مع كمون خوف الحساب والجزاء، والعرض على الملك الديَّان، قد ازدادت عبوديته، وعظم شكره، وصغر عند نفسه قدره، وعظم في قلبه ربه، وتمكن حبه له، ودام خوفه منه، واستمر حياؤه من نظره، وتمَّ أُنسه به، واتصل شغله بقربه، وصار هو شغله، مع إقامة أمره، وعظمت لديه تفاصيل الشريعة وأحكامها، وعظم عنده شأن الأنبياء وما جاءوا؛ لأنه كان يعظمهم أولًا على الإيمان، وهنا يشهد بعثهم وما جاءوا به من تلك العين التي أسكره حبها، فصار لعظم الشريعة عنده من تعظيمها، ومحبتها من محبتهم.

فهذا حكم أوائل مشهد الفردانية وما يكاشفون به في أثناء ذلك من المقامات والمنازلات والملاطفات، لا تحصره عبارة، ولا توفيه إشارة، ويتفاوتون فيه على قدر تفاوت أنصبتهم، وهذا غاية ما يشار إليه، وبالله التوفيق.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٢٠)
قاعدة
في أصناف التألُّه
وخصوصية تأله كل طائفة من الطوائف

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

اعلم أن الناس يتفاوتون في الهِمَم؛ لاختلاف طرائقهم.

فالتألُّه كالروح للحال، والقالب هو الطريقة التي يلبسها المتألِّه من عمل وعقيدة وقصد.

وقد ذقنا من أقسام التألُّه في عمرنا ألوانًا مختلفة بحسب ما رآه اجتهادنا أنه الأكمل، ثم نراه مرجوحًا، فنتحوَّل عنه إلى غيره؛ حتَّى فتح الله تعالى بالطريقة العُلوية، التي نرجو أنها التي يحبها الله تعالى ويرضاها لمن أراد التأله.

وها نشرح خصوصية كل ذوق وجدناه من أصناف التألُّه.

* **أوَّل طريقة دخلنا فيها: طريقة التصوف على روحانية الصوفية؛** كالجنيد وأبي سعيد الخرّاز وأقرانهم، **بعد طريقةٍ من الفقه على مذهب الشافعي**، تُعرف بها تفاصيل الفرض والسنة.

وخصوصية هذه الطريقة: احتراق يجده الطالب إلى الله تعالى، ولا يقنع من نفسه بما قنعت به منه الشريعة المحمدية[1]، فيراها محض الرُّخص، وأنها تصلح للعوام؛ فطالب نفسه التقطع والتمزق والرياضة المتلفة؛ من التجوُّع والسهر، والفقر والفاقة، والخروج عن جميع أسباب الدنيا، وانتظار الرزق من الله.

فمثل صاحبه كمثل محبٍّ لصورة يبذل في طلبها كلَّ من نفسه، حتَّى يكاد أن يقتل نفسه لذلك.

هذا يطلب الله تعالى فيما شرعه، وفيما لم يشرعه مما يجوز الدخول فيه، بشرط سلامة العافية.

ويتنزل على صاحبها شيء من آثار الجلال والجمال، والقرب والأنس المجمل، لا تفصيل فيه إلَّا بآثار الصفات؛ كالسمع والبصر، والعلم والإرادة، والحياة والكلام لا غير، أو بعض الصفات غيرها، وهو منبتر عن الأمر الكلي؛ بحيث يثقل على صاحبه ذلك الشهود، ويكتسب بالأخلاق المنحرفة أخلاقًا تشبه أخلاق اليهود من التيبس تارة، وأخلاقًا تشبه أخلاق النصارى من اللين والخضوع أخرى.

ثم إن الروح وإن كانت تتشوّق بذلك الحال، لكن تجد عون الحال الكامل المشروع، فتبقى جائعة إلى الكمال، ولا تدري ما هو.

---

(١) يحكي ما كان عليه.

* **ثم انتقلنا إلى طريق الشاذلية**، وهي روحانية غريبة، بينها وبين الطريقة المحمَّدية بَوْن من بعض الوجوه، وإنما يعرف ذلك البون مَن عَرَفَ الطريق المحمَّدي.

وصفة ذلك الذوق مبدأه تركه الاختيار والإرادة، والتعلُّق بنفس الشاذلي وبمطالعة كلامه، واعتقاد أنه القطب الغوث، الفرد الجامع للأسماء والصفات؛ فيجد الواجد ذوقًا من صفة القدم؛ حيث كان الله ولا شيء معه، بحيث يكاد أن يستر ما سواه من الأكوان.

وتتشكل في نفسه قواعد صحيحة، وغير صحيحة، بسبب التعلُّق بنفس الشيخ المذكور، وله مشاركة بعلوم الفلاسفة؛ فإنَّه يشير في كلامه إلى العقل الكلِّي، وربما قام في نفس الذائق أنه قد صار من الشيعة أو من الأبدال، وقد قرب إلى مقام القطبية بحسب ما اشتملت عليه أذواق شيخه، وكلام أصحابه، فيما يتحاورون فيه بينهم، فيبقى في صوب، وطريق الإسلام المحمدية في صوب.

هذا وإن كان يذوق صاحبه من الأنس والمحبة والقرب أذواقًا صحيحة، لكنها في قوالب مغايرة مبدلة؛ لبعد العهد عن أول الإسلام في رأس السبعمائة من الهجرة، ومع ذلك فيبقى في الروح فاقة إلى الأمر الكلي، فلا يقتنع بذلك النقصان.

* **ثم انتقلنا إلى طريق أهل الحديث والقرآن الصِّرف**، الذين تغذوا فيه، فأشرق القلب بأنوار النبوة والحديث والسيرة؛ لتعلُّق السالك بروحانية رسول الله ﷺ، وأشرق القلب بأنوار مسألة العلو والفوقية على العرش، وتجلَّى الباعث للرسول ﷺ المنزل للكتاب

حقيقة، وطابق الذوق آيات القرآن، بحيث ينزل القرآن على القلب بلا تكلف.

وكان في تلك الأذواق المتقدمة يضيق الصدر عند التلاوة شغلًا بالحال، وكان العبد يتوهم أن هذا الضيق لغلبة الحال، وإلا فلم يضق عن كلام الله تعالى.

فتبين في هذا الذوق أن ذلك الضيق إنما كان عند الانحراف عن روحانية رسول الله ﷺ إلى روحانية أشخاص معينين، بعيدي العهد عن تلك الروحانية.

وانبعث القلب إلى الجهاد في سبيل الله، كما هو معلوم من ذوق النبوة وآيات الكتاب، واكتسب القلب قوة بعد ضعفه، ونورًا بعد ظلمته، لكنه يشتاق أحيانًا إلى روحانية الصوفية؛ لأنه وجد فيها من صفو المحبة، ومشهد الروح من الأنس والقرب، ولطافة الذوق، ورقة حواسه ما لم يجده في هذا الذوق المحمدي؛ فإنَّ فيه قوَّة وشدَّة على أعداء الله، فكان يهرب أحيانًا إلى ذوق الصوفية؛ ليجد ذلك الذوق.

ثم يعود فيقول: يا سبحان الله؛ ليت شعري الذوق المحمدي ناقص حتَّى يكمل بذلك الذوق الآخر، ليس هذا نظر صحيح، بل الذوق المحمدي تام كامل، وجميع الخير الذي في تلك الطرق، إنما هو شُعَب منه، مع انحراف عنه، فالخير الذي فيها من الذوق المحمدي، والظُّلْمة والكسْفة التي فيها من انحرافها عنه.

فوقع صاحب هذا في حيرة، لا يعلمها إلَّا الله، فاستغاث بالله واستجار به أن يهديَه لما اختلف فيه من الحق بإذنه.

فأوقع الله تعالى في سرِّه: أن يتخلَّى عن جميع تلك الأذواق وما فيها من اللطافة والطيبة ومعالي الأمور، وينجمع بكلِّه على روحانية رسول الله ﷺ، بحيث لا يشوب معها روحانية غيره من المشايخ والصوفية، ويصبر على ذلك.

فلمَّا فعل ذلك كشف الله عن بصيرته معنى يشير إلى نكتة شريفة، عظيمة الخطر لمن يعرف قدرها، وكانت إلهامًا من فضل الله على هذا العبد الضعيف المتحيِّر، الذي قد ضاقت به الأمور، وهي أن هذه روحانية الرَّسول ﷺ، هي الروحانية المنسوبة إلى الرب عزَّ وجلّ، بمعنى أنها هي شرعته وطريقته، ونفس كتابه المنزل، وروحه الذي ألقاه على عبده ورسوله، وأنها هي التي يحبها ويرضاها، وهي التي ليس بينها وبينه انحراف، بل هي مقابلة له، من كل الوجوه.

فلمَّا استقرت هذه النكتة في سره، وشربها قلبه موقنًا بها، واطمأنت نفسه إلى صحتها، عكس عليه الحال الإبراهيمي الخليلي المحمدي بأضعاف أضعاف ما كان يجده في الذوق الصوفي، الذي كان يفر من الذوق المحمدي إليه طلبًا لذلك الحال، فجاءه ذلك الحال بأكمل الأمور وأتمها، وكان يضيق قلبه في ذلك الذوق.

وهنا وجد سعة وانشراحًا وطمأنينة، وعرف أن هذا هو الأمر الصحيح المطابق للصواب، وذلك الحال الصوفي هو شعبة منه مع انحراف بيّن فيه، والانحراف هو عبادة الله بما لم يشرعه؛ من التقطع والتمزق، فلذلك يورث صاحبه إما أخلاقًا يهودية أو نصرانية.

وهنا جاء الحال الصحيح؛ وهو حال الخلّة اللائق بالعبد، لا بالأنبياء، على طيبة وانشراح، وأورث أخلاقًا طيبة حسنة إسلامية، واندرجت فيه مسألة العلو والفوقية في حكم الأمر الكلي، الروحي الماحي لما سواه، في ظهور جلال جمال الذات المقدس للأرواح في مشهد الفردانية؛ حيث كان ولا شيء معه.

* **وهنا نكتة لطيفة:**

اعلم أن مشاهد الصفات لا يتجلّى هذا الأمر الكلي فيه؛ لأنها مشاهد من الأمر الكلي.

فتارة تكون الصفات متعلقة بالكون؛ كالقيوم، والخلاق، والرزاق.

وتارة تكون متعلقة بما جاء منه، وهي الأحكام الشرعية؛ مثل مشهد الإلهية.

وتارة تكون الصفات متعلِّقة بالذات؛ كالسميع، والبصير، والحي، فلا يظهر في ذلك إلزام الكل؛ لأنه أمر جزئي، بل يظهر إكرام ذلك الوصف وجلاله، فيكون الكون موجودًا في الشهود.

أمّا إذا كشف الغطاء، وتلاشت الأكوان، وجاءت الفردانية، وصار ما سواها كالحي إلى جانب البحر الزاخر، بقرب لا أقرب منه، وفيه يظهر معنى أقرب من حبل الوريد ما هو، مع الاتصاف بالجلال والإكرام، فالإكرام من لوازم الحقيقة في مشهد الفردانية، وهو الأمر على ما هو عليه، وهو كشف غطاء الفوقية.

فأوّل الفردانية معرفة الفوقية كلّما جاء الكون يتلاشى وينمحق ويصغر إلى التحقق بالفردانية، فتظهر حقيقة المحبة في هذا المشهد على ما تقتضيه قوى العبد واتساع بصيرته، وفضل الحق على صاحبه، فاجتمعت لصاحبه المتفرقات من سائر الطرق المحمدي.

* **وبقيت هنا نكتة:**

وهي أنه: لَمَ لَمْ يظهر له هذا في امتداد جَوْله في الذوق المحمدي؟

فما ذاك إلّا لأنه لمّا كان الغالب عليه شأن الجهاد، وصلابة القلب وقوته، كان في ظاهر الذوق المحمدي، ولم يبلغ إلى باطنه.

وهنا ذاق شيئًا من باطن الذوق المحمدي، واجتمعت له المتفرقات في الأذواق كلها فيه.

والحمد لله ربّ العالمين كثيرًا على ما أسدى إلينا من نعمِه ومبارِّه، واجتمع الهم كله على الإيمان والقرآن، وروحانية محمّد ﷺ، وانحرفت تلك الروحانية إلى روحانية الخليل عليه السَّلام، وصار الذوق مطابقًا للمقصود، غير منحرف، وبان فيه جميع الانحرافات المتقدمة، وكان أولًا عينه ممتدة إلى طريقة فلان وفلان، وذوق فلان وفلان، فصارت الآن الطبيعة مجبولة بروحانية الرَّسول ﷺ والقرآن، وهو ربيع القلب، فيه يجد ذوقه وقلبه وحاله، لا يمل قراءته، ولا يطلب الهدى في غيره، ولله الحمد والمنّة.

قال مؤلِّف هذه القاعدة، الشيخ الزَّاهد العابد الورع، عماد الدِّين الواسطي رحمه الله: علَّقت هذه القاعدة في حقّ طالب عساه أن يطلب ما طلبناه، فتكون له عنوانًا على الأمر التام المطلوب.

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

ذكرنا أن الخلَّة هي باطن الحال المحمَّدي، فلو قال القائل: ما الدليل على ذلك؟ قلنا: قوله ﷺ: «ولكن صاحبكم خليل الله».

والخلَّة هي عبارة عن تخلُّل المحبة بجميع أجزاء العبد، فإذا كان شخص من أمة هذا النبي ﷺ، يجد من الحب ما لا يمكن أن يعبر عنه، فما ظنك بمحبة الله عزَّ وجلّ، الكامنة في الرَّسول ﷺ، التي قد تخلَّلت جميع أجزائه، هذا أمر لا يُجهل، وهو واضح إن شاء الله تعالى. آخرها.

والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٢١)

قاعدة في بيان السلوك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

وبعدُ:

فالإنسان السَّالك في طريق الله تعالى يتوب إلى ربّه عزَّ وجلّ، ويعكف على إرادته وطلب مرضاته وطاعته، ويتلبس بوظائف طاعته، ويستمع إلى كتابه وسنَّة رسوله ﷺ وسيرته، ويتفكر في مصنوعات ربه وأفعاله في بريته، فلا يزال كذلك حتَّى يبدو على سره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه، ومشاهدته يتوارى ذلك عن سره أحيانًا، حتَّى يستقر المشاهد في مقابلة بصيرة قلبه وينصبغ بآثارها صبغة ملازمة لذاته وحقيقته، فمتى وصل إلى ذلك، فليعلم أنه قطع نصف الطريق، وبقي النصف الآخر، وهو حصول محبة ربه لعبده، واصطناعه له من بين خلقه.

فإن قال قائل: فكيف الطريق للعارف إلى ذلك؟

فالجواب: أن ذلك قد نبَّه عليه رسول الله ﷺ فيما أخبر به؛ أنه

قال: «**لا يزال يتقرَّب إليَّ عبدي بالنوافل حتَّى أحبّه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه**».

وفي الحديث: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**».

وفي الحديث ـ أيضًا ـ: «**من تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، ومن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**».

فقد أخبر سبحانه على لسان نبيّه ﷺ أنه لا يزال عبده يتقرَّب إليه بالنوافل حتَّى يحبه. هذا الحديث في الصحيح.

إذا علم ذلك؛ فليشد العارف مئزر جده في طلب محبة ربه له، ويعكف على دوام التقرُّب إليه بلا فتور، تارة بالذكر، وتارة بالتلاوة، وتارة بعمل الخير، وتارة بزيارة الصالحين، بحيث لا يفتر عن التقرب إلى الله بالنوافل، وهذا هو السير والسلوك إلى تلك الغاية المطلوبة، كما كانت التوبة والإنابة طريقًا إلى المعرفة، وتندرج في هذه القاعدة جميع متفرقات السلوك؛ من الحضور والهيبة، والمراقبة ونفي الخواطر، وتحلية الباطن وإصلاحه، والمشاهدة والفناء والبقاء.

وبيان ذلك أن العبد يشرع أولًا في التقرُّبات بالأعمال، مثل الأذكار والصلاة، وهذا ظاهر التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى مولاه بالكلية؛ بالروح والعقل والكل، فيندرج في ذلك المحبة الخاصة.

ثم ربَّما أفناه ذلك فيرتقي إلى الفناء في هذه الطريق، ثم يترقى

إلى الكشف الحقيقي، فيتقرب إلى الله عزَّ وجلّ حينئذ بالحب والتعظيم على المعاينة، فقد تبين أنه يندرج في ذلك جميع المتفرقات، ولا ينبغي أن يشغله حال الكشف عن الحضور مع معاني الصلاة، فإنَّ الحضور مع المعاني هو المراد في مثل ذلك الموطن، فالتفت إليه، ولا يشتغل عنه، إذا علم ذلك؛ فهذه القاعدة هي سر السلوك وحقيقته.

ولهذه سرّ آخر باطن، ربَّما بالمواظبة عليه يظهر، وهو حال التقرب أن ينبعث من باطن العبد الجود ببذل الروح والوجود في محبة المعبود بلا كلفة ولا تعمُّل، فيجود بنفسه وروحه وهواه، ومشيئته وإرادته لمولاه حالًا لا تكلُّفًا، وهذا حال من صحَّت محبته هو لمولاه، فإن يسَّر الله تعالى، ووجد هذا الحال فهو حال القرب، وسره وباطنه، وإن لم يجده فليتكلَّف التقرب إلى مولاه بالأذكار والسعايات دائمًا، عساه يجد هذا الحال من باطنه، فمتى وجده فقد تقرب إلى ربه حقيقة بكليته وجملته عبادًا وقلبًا وروحًا، ومن لم يجد ذلك فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط.

واعلم أن هذا هو سر لذلك السر، ولهذا سر السرّ سر آخر باطن، من وفق ربَّما وجد سر سر السرّ، وهو شيء لا يمكن العبارة عنه بأكثر مما يقال إنه يجد في باطنه ذوق «**مَن تقرَّب منِّي شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا**»، فهذا ثمرة أوَّل مراتب التقرب، فإن دام على ذلك ربَّما وجد ذوق معنى التقرب بالباع في مقابلة تقرب العبد بالذراع، وهذا أوسط مراتب التقرب؛ فإن دام على ذلك ربَّما وجد ذوق معنى الهرولة، ومعناه غاية القرب في مقابلة المشي من العبد تقربًا إليه.

وأما ذوق ما يعطى صاحب الهرولة إلى ربه؛ فإنَّه لم يذكر في الحديث؛ اللَّهُمَّ لعظم شأن صاحبه، وعظم خطر جزائه، أو لمعنى غير ذلك، أو لكون أنه قد حصل المقصود بهذه الأمثلة من مراتب القرب، فكأنه يقال للعبد: وعلى هذا فقس، وعلى قدر ما تبذل من وجودك تقربًا إلى ربك يتقرب إليكم بمثلَيْ ذلك.

ويلزم من هذا أن من تقرب إلى الله عزَّ وجلّ بروحه وجميع قواه يتقرَّب إليه بمثلَي ذلك، والمثلات في مقابلة تقرب العبد إلى ربه بجميعه لا يمكن العبارة عنه، وليس القرب في جميع ذلك من الطرفين، قرب المسافة ولا المماسة، بل تقرب من العبد، وقرب من الرب عزَّ وجلّ بالمعنى لا بالصورة والرسم، فقد علمت أن طلب المحبة من ذلك الطرف في طريق التقرب هو سر السلوك ونهايته.

وقد علمت أن سرَّه حال التقرب وهو الانبعاث بالجملة إلى الله عزَّ وجلّ، وحقيقة الانبعاث ترك المشيئة لمشيئة مولاه، والتدبير لتدبير مولاه، والثقة به لحسن تدبيره له، والخضوع لأحكامه.

وقد علمت أن من تقرَّب إلى مولاه بشيء من الأشياء جوزي بضعفي ذلك، وقد علمت أن أعلى أحوال التقرب تقرب العبد بجملته وباطنه لمولاه، وهو علامة المحبة من العبد لربه، وقد علمت أن حقيقة ذلك هو التقرب بترك التدبير والإرادة، فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله لمولاه، ولم يبق منه بقية، فيرجى أن يجاد عليه بأكمل التولي وأكمل الولاية، ألا ترى أن الرجل الصادق إذا أخلد أمره إلى أستاذه في الطريق وترك تدبيره واختياره، اختار له الأستاذ أعلى الطرق

وأسناها، وحمله على أعلى ما يعلمه من تراتيب السلوك، فما ظنك بمن أخلد إلى مولاه، وتقرب إليه بجملته، ومنع تدبيره، ورضي بتوليه، كيف يجازيه على ذلك الجواد الرحيم؟

فيجب على العبد أن يوقن بتقرب الرب عزَّ وجلّ إلى قلب عبده في مقابلة تقرب العبد إليه، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث قوله ﷺ عن ربه عزَّ وجلّ: **«مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منهم»**.

ويوقن العبد في معاملته لربه قط لا يخسر، بل لا يزال رابحًا بجزاء أفضل ممَّا قدمه إلى ربه أضعافًا مضاعفة، لا يعلم قدر خطر ذلك، فإذا أيقن العبد بما أخبره به الرب عزَّ وجلّ، واستقر ذلك في قلبه حقيقة، فعليه أن يطلب محبته له سبحانه، ويسلك إلى ذلك في الطريق المشروع الذي نبه عليه رسول الله ﷺ بدوام التقرُّب.

وقد علمت أن الناس يتفاوتون في التقرب؛ فمنهم من يتقرب بذكره وعمله، ومنهم من يتقرب بقلبه وهمته، ومنهم من يعطى حال التقرب، فيجود بجميعه لمولاه، ويترك تدبيره له ومناه، ومن رزق أن يجود بجميعه لمولاه تقربًا إليه وطلبًا لمحبته، دل على محبته لربه؛ لأن هذا عمل لا يقوم به إلَّا من صحَّت محبته لمولاه، ولم يختلج بسره على ما يكرهه، بل على ما يحبه ويرضاه.

وإذا كان من يتقرب إلى ربه بالشبر والذراع والمشي، يتقرب إليه بالذراع والباع والهرولة، بمعنى أنه يضاعف جزاءه على تقربه يتقرب إليه خيرًا من تقربه، فما ظنك بمن أعطي حال التقرب، فيتقرب إلى

مولاه بجميع إرادته وهمومه، وأعماله وأقواله، فيمكن أن يقال: ولا يبعد بالقياس الذي تقدم أن هذا عبد وهب نفسه لله، وجاد له بها، فيرجى أن يجاد عليه بأن يكون هو حظ هذا المتقرب ونصيبه عوضًا عن كل شيء جاد العبد بنفسه تقرُّبًا، فجاد عليه المتفضل المنان بنفسه وبتوليه له على ذلك التفضيل جزاءً وفاقًا.

واعلم أن هذا المتقرب بجميعه يرجى أن يجد جزاء ذوق عمله بما لا يمكن أن يعبر عنه عاجلًا في الدنيا إلَّا بأكثر من أن يقال: إنه تقبل منه ما تقرب به، ويُختطَف عن وجوده إلى قرب ربه، ويجد قرب ربه من قلبه ومن جميع أجزائه بالغيب، جزاءً لما بذل من نفسه، ويجد عنايته وتوليه فوق كل تدبير كل مشفق ناصح، فمن رزقه الله تعالى هذا التقرب، ووجد ذوق جزائه من قلبه ومن تدبيره له، ثم دام له ذلك، فطوباه ثم طوباه، هنَّأه الله، فليكتم ذلك على نفسه، ولا يبوح به بين أبناء جنسه؛ فإنَّه سر من أسرار المولى الكريم إلى عبده، فليعض على ذلك بالنواجذ، عساه يعيش عليه ويموت عليه، ويكون في البرزخ معه، ويقوم يوم الحساب سائرًا إلى ربه به، وهذا غاية ما يمكن من العبارة به عنه، وهو أمر يعرفه أهله.

فلينتبه العبد لهذا المعنى الخطير، وليطلب قرب ربه منه في هذا الطريق المشروع، وليجعل عُمدته الحديث الصحيح الذي هو فوق كلام المشايخ والعارفين، بل هو أصل لهم، فيجعله أصله في سيره إلى محبة ربه له وقربه منه، وليكتم ذلك عن غير أبناء جنسه، بل عن أبناء جنسه إلَّا من ظهر محبته وصدقه وكتمانه للأسرار، مستعينًا ومعتضدًا بالله تعالى، وبالله المستعان.

ونعوذ بالله من الحلول والاتحاد، والقول بوحدة الوجود وفيض الوجود، كما هو مذهب صاحب (الفصوص) وأصحابه؛ فإنَّ جميع ذلك زندقة وكفر.

وليس المعنى بهذا السر المذكور ما ذهبوا إليه، بل الرب سبحانه رب، والعبد عبد، وهو في ذلك إله فوق عرشه وفوق سبع سماواته، بائن من خلقه، يقرب من قلوب محبيه ومريديه الصادقين في طلبه، قربًا يجدونه ويعرفونه ويتحققونه بلا شبه ولا مثل ولا كيف ولا تحديد، يجدون أثر ذلك في قلوبهم، ولا يمكنهم العبارة عن حقيقته بلا مماسَّة ولا امتزاج ولا حلول، بل عناية من ربهم عزَّ وجلّ، ومحبَّة منه لهم، وقرب منهم يجدون أثره، ولا يكيِّفون حقيقته سبحانه وتعالى في علوه وفوقيته على مخلوقاته، يتفضل في عظمته وكبريائه، ويلاطف محبِّيه والصادقين في طلبه، ويقرب منهم في علوه بقرب هو صفة تليق به، لا بتقرب معهود مكيَّف محدد.

جلَّ صاحب التفضيل وتقدَّست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وله الحمد بجميع محامده على جميع نعمه كلها.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



(٢٢)

قاعدة في سلوك الأولياء الذين ترامت هِمَمُهم إلى الاستقرار في عساكر الأولياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد نبي الهدى، وعلى آله وصحبه وسلَّم كثيرًا.

وبعد:

فمن أراد الله عزَّ وجلّ أن يقسم له حظًّا من حظوظ العبيد، أشهده الإلهية وحقيقتها، ثم أشهده قيوميته وحقيقتها.

فعلامة التحقق بالإلهية: التلبس بكسوة السنة والقرآن وأخلاقه، بحيث يصير له هيئة لازمة، وطبيعة ثابتة.

وعلامة التحقق بالقيومية: ذهاب استقلاله واستبداده بالأمور لغلبة العلم بالحي القيوم، والتحقق بقيامه على الأشياء بعد شهوده بأنه الملك فوق الخليقة، يدبر الأمر، بيده النفع والضر، والعطاء والمنع، لا تبديل لكلماته، فعندها يذعن العبد بالانقياد بالعبودية خضوعًا

لأحكام الربوبية، شهد عجز نفسه وضعفها وعدم استقلالها بحركة أو سكون ظهر من له الأمر في القلوب ظهورًا رجع الكل إليه، وصار هو المستقل بالأمور والأسباب، والوسائط ناشئة عن قدرته، منفعلة عن إرادته ومشيئته، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]، بجميع صفاته وأسمائه، وتدبيره وأفعاله، وحكمته النافذة، ومشيئته الكائنة، وكلماته التامَّات، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، وإليه المآب، فصار أقرب من العبيد من حبل الوريد، يدبر الأمر بقرب هو صفته وحيطة هي نعته، فهناك وقف العبد الذليل مع تدبير المولى الجليل، وبين يديه يطلب التحقق بقربه بعد وجود قربته، وترامى إلى أن يتولى سيره إليه بفضله، ويتولى نقلاته إليه ملكًا ملكًا، إلى أن تبلغ إما في العمر القصير، أو في البرزخ بين الدنيا والآخرة في موطن القبور، أو في يوم النشور على حسب ما تقتضيه المشيئات الباهرة، والحكمة التامة، والألطاف العاطفة الراحمة، فوقف هناك لم يبلغ عملًا بعد امحاق وجود المحبة من وجوده؛ لتلاشيه عند لمعان أشعة سلطان الوجود، فحينئذ لا وصف للعبد إلَّا علم التبعية لمولاه، تابعًا متلاشيًا في متابعته، ولا وجود حقيقة إلَّا وجود الموجود، وإن كان للعبد وجود فهو كالخيال والظلال، إذ لا نقول بالوجود الواحد في الحق والخلق، تعالى الله عن ذلك، وننزهه عن مقالة صاحب (الفصوص) وأتباعهم ـ طهَّر الله الأرض من آثارهم، وأقام آثار دينه الحنيفي ـ أنه على كل شيء قدير.

ثـم لا صفات إلَّا صفاته، فهو الظاهر بها، والحكم لها، والكيفيتين لها، والعبد لا شيء موجود غير أنه يعاين المشهود الذي هو بذاته وصفاته موجود، يدبر الأمر، وبيده الحكم.

ووقف في هذا الموطن لا يتجاوز الفريضة والسنة، منتظرًا فضله ونقلاته إليه في مراتب النقلات، فغض عينه عن كثرة الأعمال الخاصة والمتعدِّية، وعن التصديق للإرشاد، اللَّهُمَّ إلَّا إذا أوجب أو تأكد ساكنًا ساكتًا، خامدًا جامدًا، عابدًا مشاهدًا، ذاهبًا فانيًا، حامدًا شاكرًا، منتظرًا منه المزيد حيث رقاه إلى ملك الوجود، وأذهبه فيه، وأراه أحكامه وصفاته، وجعله غالبًا في قلبه على كل شيء، فهو يترقب ملكًا آخر يرقيه، ولا ييأس من جذبة تأخذه إلى ملك الملك؛ ليقر عينه بلقاء الحبيب الأول، الكائنة محبته قبل المحبَّات.

فمن لوازم حال هذا المنتظر إغماض بصره عمَّا سوى مأموله، والاقتصار في حركات المعيشة على حد لا يتم الدِّين والدنيا إلَّا بها؛ من الكلام والحركات والأفعال والأخلاق.

وليس حال مثل هذا كحال من وجد ثم رد إلى مرتبة في وجود الشهادة يعمرها، لينال آخرها، فهو يعمل الليل والنهار على تعميرها ليكمل له هيأتها في عالم الشهادة، ويتعمَّر بها الدِّين والدنيا، ويكمل له ثوابها في الآخرة، فهذا عبد لم تشخص همته إلى ما شخصت إليه همم أهل المراتب، الطالبين للقرب، أولئك قطعهم طلب القرب وانتظار نقلات الحق إليه بعد التحقيق بالقيومية، وغلبة كونها وأحكامها على سائر الأحكام، ومحولها ما عداها،

فهم لا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا؛ اهتمامًا بما يقصدونه، وهم فيه بالله لا بنفوسهم.

فصل

هؤلاء السَّادة أَخْمد التحقق بالقيومية منهم الخواطر والإرادات شغلًا بمدبر الأمر، وشخوصًا إلى مشيئاته، والتوطن على أحكامه، ناظرين منه إليه، طالبين منه هو هجمَ الحالِ عليهم، شغلة عليهم، فلبس عنهم ما سواه وتخلّله، فصار السوى كالهباء في الهواء؛ إن فتشته لم تجده شيئًا، وقطع طلب الوصول عنهم الالتفات إلى شيء تنصرف الهمم إلى مثله من السعايات؛ فهمهم واحد في طلب الوصول، ومع ذلك فيتحرَّكون في الأمر والنهي بما أمكن من الفضائل والنوافل، عبودية وتمسُّكًا بالسنة، وهمة الوصول قد أخذت جملتهم، والانتظار لنقلات الحقّ عزَّ وجلّ حليتهم، والتغيب بما يبدو من فضل الحق لشؤونهم، ولهم في ذلك من التلاوة والنافلة حظ وافر.

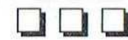
أما الذكر فإنَّ المذكور حشا بصائرهم، فألسنتهم وقلوبهم قد تنقبض عن ذكر الموجود الذي هو الذاكر لهم، يستوحشون عما منهم، ويأنسون بما يفنيهم عنهم من وجود الحقائق الغيبية الذاتية مع صفاتها الملازمة لها، فإلى هنا انتهى سيرهم وانتظارهم، به يحيون ويموتون إن شاء، وإياه يطلبون، وبوجوده يغيبون فناء ثم بقاء، وإليه النشور.

فصل

من تحقق بالقيومية ويحب مشاهده من نفسه في كل شيء، يكون حكمه ظهور الذات بوصف القيومية، فإذا رسخ تلطف الله به؛ بأن يعود عليه أحكام الصفات ضمن مشهده من العظمة والجبروت والجلال والإكرام، والاستواء والعلو، والكلام والشرائع والأحكام، فيظهر والله أعلم أن مثل هذا الترتيب يكون أكمل ممن ظهرت له القيومية أولًا، ثم تفصيل أحكام صاحبها مثل هذا التفصيل، وتبقى القيومية مندرجة في شهوده كاندراج الفوقية في الشهود الأول.

ووجه كماله أن القيومية تذهب شاهدًا للعبودية، فلا يشهد من نفسه أولية إلَّا بأوَّليته، ولا آخرية إلَّا بآخِريَّته، ولا ظاهرية إلَّا بظاهريته، ولا باطنية إلَّا بباطنيته، وذلك أول مراتب التحقق بالعبودية، ثم يعود الشهود بفصل أحكام الصفات على ما تقدم، بخلاف من اندرجت القيومية في مشهده، وكان الحكم للفوقية، فإنَّه لا يفنى ذلك شاهده؛ لعدم التحقق بالقيومية، وإن شاهدها وفرق بين شاهدها والتحقق بها لتحقق بها، علامته فناء الشواهد، وبلوغ غرض شيخ الإسلام[1] في جميع كتابه (منازل السائرين)، حيث إنه ساق جميع الأبواب إلى فناء شاهد الخلق، وبقاء الحق، وتصرفه.

وبالله المستعان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



(١) يعني: أبا إسماعيل الأنصاري الهروي.

(٢٣)

قاعدة من علامات التحقق بالقيومية

(هذه القاعدة تتمة لما سبقها)

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

مِن علامات التحقق بالقيومية ألا يجاذب نفسه عند الدفع والجلب بالنظر إلى استجلاب الأشياء ودفعها، بل يرجع إلى ربه في مبادئ كل أمر رجوعًا.

فهو رجل لم يزل يقول: الأمر كله لله، حتَّى يثبت هذا المعنى في قلبه ثبوتًا لا يتوارى، ثم كشف عن حقيقته ذلك، فصار فقيرًا بالذات إلى مولاه، لا يرى فعل نفسه إلَّا بالقصد الثاني، ويرى الأمور كلها بيد الله؛ فإذا أُحدث حادث لم يتفكر في أفعل، أترك، بل يرجع إلى صاحب الأمر ووليه، فيستسلم، ويستمد من فضله به، يرى ذلك الاستسلام والاستمداد من فيض الحق وفضله، والله الموفق.

فصل

ولهم بعد الفناء محبة خاصة مقترنة بقرب يغيب عمَّا سواه، وتلك المحبة والله أعلم من عيون البقاء، وربما كانت في حق قوم من المحبة لهم، فتؤثر تلك المحبة فيهم، محبة مقترنة

بالفناء عن الوجود المضمحل، والبقاء بالوجود الحقيقي الكابس لوجودهم الذي هو كالخيال والظلال، فحينئذ لا يفرقه إلَّا ما يتلون العبد به من ثقل الحال في أشياء يعود نفعها خصوصًا وعمومًا، وبالله المستعان.

فصل

مَن فتح الله على قلبه بالمحبة الخاصة الملهية للروح عن مشاهده في ظهور الفناء، ثم عن وجودٍ في طور البقاء، المقارنة للقرب الماحي لما سواه، بحيث يرى المحب شاهد المحبة من محبة الحق له، ونظره إليه، وعنايته به، فهو به في محبته التي هي محبته، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فعليه أن يستعين بالله، ويستجير به الليلَ والنهارَ أن يحفظ عليه ما أولاه، ولا يمتحنه بشيء يستر هذا الحال عن قلبه.

فالأسباب التي يخاف منها: حب الاجتماع، واتحاد الأصدقاء، واشتغال القلب بهم وبخدمتهم، والقيام بمصالحهم، والاهتمام بالتزوج والعيال، والرجوع إلى الكسب، ومجالسة الثقلاء المغايرين، الذين لا يطلبون ما يطلب الصادقون، ومحبة صورة للطافة طبْعها أو حُسن تركيبها، بحيث يسكن ذلك في القلب. فمثل هذه الأشياء حاجبة قاطعة ساترة لهذا الحال الإلهي الشريف.

فصل

المحبَّة مِن أصلف المقامات وألطفها، هي كالثوب الأبيض النقي، يدنِّسه أدنى لواث، فكذلك يغيِّرُ القلبَ أدنى التفات، أو علقة من حب مال أو جاه، أو مشيخة أو اجتماع، أو زوجة أو صورة، أو اجتماع بمغاير لله كيفية بمغايرة لما يكون السالك فيه، أو أي ميل كان، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون ذلك بالله يدخل عليه، وهو رافع له مما أتيح شرعًا، ينفض ثوبه، وهو يتعلق به، فذاك ربَّما يكون محمولًا فيه بشرط عدم الركون إليه والطمأنينة.

فصل

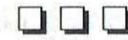
ومن الأشياء التي خاف منها السلب: الركون إلى الحال نفسه، والطمأنينة فيه، واعتقاد أنه قد صار موطنًا له، فلا يركن العبد إلى غير ربه، ونسأله أن يحفظ عليه ما أولاه منه.

فصل

يا مَن سُلِب حال المحبة، وصُرف إلى غيره من الأشياء، وغطى عليه؛ إن كنت حزينًا على ما فاتك فأبشِرْ، وتخلَّ عن كل شيء، واقعد خاليًا عن كل همٍّ، واحفظ الحدود، فلا تيأس منه، فإنَّ أكثر النفوس التي رسخت القلوب فحالت بينك وبينها: التخلي منها وعن موادها سنة مع الاستجارة بالله والاستغاثة به، هذا إن كنت حزينًا، وإن كنت مطمئنًا فابك على نفسك، فقد فاتك المُلك الأعظم، والكنز الأكبر، والفناء الأفضل بمولاك، حيث تصير حبيبًا، وأنت له محب، تعيش

على ذلك وتموت عليه، وتحشر عليه في زمرة من أحبهم وأحبوه، فصُرفت إهانة لك إلى شيء سواه، أي شيء كان؛ لأنك لم تصلح لحبه وقربه والامتلاء منه، يا لها حسرة لا يقابلها حسرة، وبالله المستعان، وأعوذ بالله من الخذلان.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٢٤)
قاعدة في بدايات الأولياء ومنح أهل المصافات الأصفياء

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي مَنَّ على صفوةٍ من خالصته، وأراهم الأشياء على ما هي عليه، فكانوا بحكمها وكيفياتها بلا كيفية منهم تغاير ما جرى به الحكم الشرعي، وانتظام القدري.

فهم منفعلون لما يجتمعان[1] فيه من حكم الله عزَّ وجلّ ومراده.

فهم به في حركاتهم وهمومهم وإراداتهم، يسمعون وينطقون، ويتصرفون ويتحركون، وإلى حركات نفوسهم لا يلتفتون، ولغير حسن تدبيره لا ينظرون، وبغير أمره لا يعملون.

وهو مستعانهم عند حركات وجودهم، فإليه يرجعون، وإلى مشيئاته وإراداته شاخصون، وعند العوارض الكونية فللطائف حكمه فيها ينظرون، وإلى سواه لا يتحيزون.

عرفوا البلوى بالسواء، فهو الحجاب عن الهدى، والقائم به

---

(١) يعني اجتماع حكم الشريعة والقضاء والقدر.

هو الذي ولي ما تولى، والمهتدي من اتحدت إرادته بإرادة المولى، فصارت واحدة ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

وصلواته على معدن الهدى، وواسطة عقد الورى، محمد وآله وأصحابه؛ أهل النصرة والولاء.

بدايات الأولياء عجيبة، وطرائقهم مختصرة قريبة، جمع لهم فيها جميع الحواشي والأطراف، وقربت لهم المطالب البعيدة عدد الإسعاف، حيث تضيع أعمار غيرهم في الوقوف عند جزء من أجزاء المشاهدات، والتحيل على خدع النفوس، ودسائس التسويلات، وفنون من الرياضات والمكابدات، والخصوص أخذهم إليه أخذًا قريبًا، وأراهم حقائق الأشياء بصرًا غريبًا.

أول ذلك أن كشف لبصائرهم إرادته وتدبيره، فرأوا ما سوى ذلك باطلًا من نوازع الإرادات النفسية، والاختيارات العماوية.

ورأوا منشأ الحركة والسكون، والقبض والبسط، والخفض والرفع، فتفسَّحت لذلك عزائمهم؛ لكثرة المراد، لتنوعه واختلاف شؤونه، مع ملاحظة الأمر والنهي؛ إذ ما يخالفهما إنما ينشأ من قوة الوجود الطبيعي الساتر عن الأمر الحقيقي.

فلما شاهدوا ذلك تحققًا، أخذهم بقدرته ـ أيضًا ـ على حكم موافقته جذبًا وتوفيقًا، فاتحدت منهم الإرادة بالإرادة، بل صارت واحدة، وهي إرادته سبحانه لا غير، إذ لا مراد إلَّا مراده، ولا حكم إلَّا حكمه، ولا تدبير إلَّا تدبيره، فبطلت مشيئاتهم، وصارت شاخصة إلى مشيئاته، يتراءى لهم فيها فنون الحِكَم واللطائف، وبواهر القدرة

المنوطة بالحكمة التامة والعلم التام، والرحمة التامة.

ويرجعون إليه فيما قصر عنه إدراكه من ذلك، فأصبح غاية آمالهم مواقع الأقدار، يتعوَّذون به مما يعجز عنه الاصطبار من دقائق المحن والاختبار، يتبرؤون من حولهم وقوتهم، وعلمهم وعملهم واختيارهم ونظرهم إلى حوله وقوته وعلمه ومشيئته واختياره ونظره.

فهم منقطعون إليه حقيقة الانقطاع، وأي انقطاع أبلغ ممن ذهب علمه وعمله، وحسبه ونسبه، وإرادته وتدبيره، وبقي بإرادة مولاه وحسن تدبيره ونظره قائمًا به في سمعه وبصره، ونطقه وحركته؟

فهؤلاء انتهت إليهم الطمأنينة والرضا، وحقائق التفويض والغنى، ولا يشهدون ولا يدعون من نفوسهم ولا لنفوسهم شيئًا إلَّا آثار النقصان والانحراف، جُلَّ أمرهم الموافقة في كل شيء، بل الفناء في الموافقة بلا موافقة، بجريان الأحكام عليهم من معادنها، وهم إليها ينظرون، وهم على حسن تدبيره يعتمدون، ولأوامره ينفذون، وعن مناهيه يهربون بتنفيذ أمره الشرعي فيهم، وأخذهم عما يكره، فهم له وبه يعملون، وإلى تصريفه لهم في عملهم ينظرون.

فسبحان الفعال لما يريد، والكل في قبضته عبيد، عبدوه في هذا الموطن بعبوديات الربوبية، وتحققوا بمعرفة أفعاله والكون بها على حلية قربت منهم في هذا الموطن عين اليقين، فكأنهم هي من تحققهم بالموافقة، واقتران الإرادة بالإرادة.

ثم لَطَفَ بهم بأن كشف لهم شيئًا من حقيقة حقه الذي هو به من كمال الأوصاف والنعوت، فشكروا بذلك الحق شكرًا لا تطيقه

الإشارة، ولا تحده العبارة، فغرقوا غرقًا، وتلاشت نعوتهم تفريدًا محققًا.

ومن تجلّى لسرِّه لائحٌ من عظمة القدرة وهيبة الجلال وكمال الجمال، ونفوذ التصرف والاقتدار على ما هو به متصف مما لا يعلمه سواه، فهو متجلٍّ بذاته وصفاته لنفسه بنفسه في بهاء أضوأ مما لا يصفه الواصفون، كمال تمام ما لا يعلمه سواه، فلا هم به يحيطون، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، بحيث تندرج في هذه المعرفة جميع ما أبرز من المعارف وصنوف الأسماء والنعوت، بما لا يعلمه العارف، بل بما يعلم المعروف نفسه كما هو، فحَيُوا بهذه المعرفة حياة الأبد، وكانوا على قرة العيون منتهى الأمد، فزالت عنهم بها كلفة التكاليف، ووحشية الانفراد، وعفونات التعاسيف، ولهم من مدد فضل الحق بعد ذلك ما لا يستطيع حادٌّ أن يحدَّه، ولا حاصر أن يحصره، وهو وليهم في ذلك كله، لا يَكِلهم إلى غيره، حيث أراهم وكالته لهم ابتداء، وبالله المستعان.

تتمّة

لكلِّ مقام عبودية بحسبها، فما عبودية من أبدى له الحق من حقه؟

الجواب:

من أبدى له الحق حقيقة من حقه، وأبرز له لائحًا من حق اليقين، فعرف فيه عرفًا، وتلاطمت عليه أمواج الحقيقة، بحيث لا يرى

سواها، ويرى نفسه فيها وبها، فعبوديته مُلاحَظَةُ ما لازم ذلك اللائح من النهاية، والآجال والكمال قالبها، والجمال والعظمة والإفضال، فكأنّ روحه حيث ترى ذلك، تقول: أنت لك مما لا يعلمه سواك، وإنما برز لي أمر مجمل أنت تعلم تفصيله، فيكون في علمه بهذه الأشياء كأنه يعبد الله بالمهابة والإجلال، والنظر إليه بالكمال والبهاء والجمال، والعظمة والإفضال، شاخصًا إليها، معترفًا بها، قد احتوشه آثارها، وقرنته أنوارها مما لا يعلم سواه، وإنما برز للعارف أمر مجمل منه.

فهذه عبودية صاحب هذا المقام، والله المستعان.

تتمّة القاعدة وبداية لها

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

إذا أشكل عليك الدخول فيما تقرر في هذا القاعدة؛ من اتحاد الإرادة بالإرادة، فتكون واحدة وهي إرادة الله عزَّ وجلّ، والتحقق بانفساخ العزائم لمشاهدة الإرادة، إلّا عزائم الأمر والنهي، فإنك مطلوب بها، وهي مراد الله شرعًا، وما كان مراد الله عزَّ وجلّ شرعًا فلا يترك للقدر.

فإذا عزَّ عليك تفسح عزائمك، وامِّحاق مشيئتك، وانتظار مشيئة الله عزَّ وجلّ، والاستسلام لها، وبعُد عليك الفناء في موافقة الحق عزَّ وجلّ شرعًا وقدرًا، بحيث لا يبقى إلّا قدره وأمره، وأنت ذاهب بلا أنت، يجري عليك ذلك بمشيئته، وأنت تلاحظ الفضل

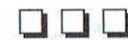
متيسرًا لا مع ربك، كيفما أراد قدرًا وشرعًا، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، وقد عرفت ما من ذلك بدايات الأولياء، وعرفت أنه مرقاة إلى محض الوجود لشيء من حقيقة حق الحق عزَّ وجلّ، الموجب للانتباه لكمال عظمته وكمال صفاته، بحيث يغيب وجودك له في وجوده لنفسه، وتعظيمك له فيما يستحقه من التعظيم القائم.

فإذا عزَّ عليك ذلك فاستعن بالله تعالى، وارجع إلى الأصول إذا انتبهت من النوم، أول ما يجري على قلبك أن روحك بيد الله عزَّ وجلّ، كما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**والذي نفسي بيده**»، وأن قلبك بين أصبعيه، كما صح في الحديث، وأن حركاتك وسكناتك آثار قدَرِه، وطاعاتك وقرباتك آثار فضله.

فارجع إليه بكُلِّك، واعلم أنك به، ثم اثبت على ذلك، فكلَّما تحركت رعونات نفسك فارجع إلى الأصول يتبين لك بطلان العوائد الفاسدة مما يجري على ألسنة الناس: أنا وأنا وأنا، ويكشف لك حقائق الصنع والتدبير في الخارج وفيك، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فهناك ترجو أن تغرق في الفضل ـ كما وصف في القاعدة المتقدمة ـ غرقًا، وتكون بالوصال محققًا إن شاء الله تعالى.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.



(٢٥)
قاعدة في بيان الطريق إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الملكُ الحق المبين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ربُّ الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبدُه ورسوله خاتم النبيين، ورسول ربِّ العالمين، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

بيان الطريق إلى الله تعالى في قاعدة ملخَّصة يسهل فهمها، ويقرُب إلى السالك الإحاطة بحملها، وإلى الله أرغب في الهداية وتقريب سبلها من البداية إلى الغاية؛ ليعلم السالك وفَّقه الله وأيَّده، وفتح له الطريق وسدَّده: أن الإنسان الطالب لغاية المحققين، ومراتب الواصلين مُرتهن بثلاث دوائر، كل دائرة منها فيها عوالم من خلق الله، فيها يعيشون، ومنها إلى المنية يُختطفون؛ لاتساع أرجائها.

*** الدَّائرة الأُولى:**

دائرة النفس والشيطان، التي أكثر الخَلق مرتهنون بها، محبوسون في مضايقها، مأخوذون في مصائدها من عوالم النفس والشهوات،

والأماني والاختيارات، بحكم الجِبلَّة الطبيعية، التي يظهر فيها خصوصية الحيوانية في الإنسان وإن كان ناطقًا.

وهذه الدائرة لا يتسع لشرحها مجلدات، وكلها معلومة معروفة عند ذوي العقول؛ من طلب الحطام، وطيب الشراب والطعام والنكاح والمنام، والتكالب على المناصب؛ طلبًا للرفعة بين الأنام، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وخصوصية هذه الدائرة: قلة المُبالاة بترك الأوامر، والوثوب على المناهي إذا لم يكن تحصيل الإرب إلَّا بذلك، والغفلة عن الله تعالى وعن شرائعه، وعن أيامه، وعن ثوابه وعقابه، وإن كان ثَمَّ إيمان؛ فإنَّه يكون في القوة، لا سبيل إلى ظهوره في الفعل بكماله، فالسَّالك يتعين عليه الوثوب من هذه الدائرة.

*** الدَّائرة الثَّانية:**

فأول ما يفتح له من هذه الدائرة الواسعة الأرجاء، التي هي دائرة النفس والشيطان طاقة إلى **دائرة المَلِك الديَّان، وهي دائرة القلب والإيمان**، فيعرف ربه من فوق عرشه، ومن فوق سبع سماواته، وأنه سميع بصير، قدير عليم، متكلم، شاء مريد، لا تخفى عليه خافية.

أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وأحلَّ وحرَّم، وله يوم عظيم يجمع الأولين والآخرين، فيجازيهم على الحسنات إحسانًا، وعلى السيئات بحسب ما تقتضيه المشيئة؛ إما مغفرة أو عقابًا، فيشعر القلب بذلك، ويتنبه، ويستيقظ، وينهض إلى التوبة النصوح، ويعرف ربه

ومعبوده من فوق عرشه، ويعرف نبيه محمدًا ﷺ بمعجزاته، وآياته، وكراماته، وترسخ نبوته في قلبه، ويعمل على اتباع سنته، وتستولي على قلبه عند ذلك عظمة الرب تعالى وهيبته، والحياء منه، والمراقبة لنظره وعلمه، والتفهم لكتابه في أمره ونهيه وزجره، ووعده ووعيده، ويفهم كلام الرَّسول ﷺ.

فإذا صدق الله في السير والسلوك، انتقل بالتدريج من الدائرة الأولى النفسانية، التي هي دائرة العادات والشهوات، إلى هذه الدائرة التي هي موطن الكرامات.

وكلما جاءت هذه الطاقة اتسعت، فيدخل منها إلى الدائرة الثانية أحيانًا، ثم يعود بحكم طبعه إلى الدائرة الأولى؛ لأنها وطنه، ثم يشتاق إلى وطنه من الدائرة الثانية، فإنَّه صار له فيها مقر ـ أيضًا ـ.

لكن لا يدوم، فلا يزال كذلك صاعدًا إلى المرتبة الثانية، ونازلًا من الثانية إلى الأولى بحكم طبعه، حتَّى يقويه الله تعالى، ويكشف له عن الميدان العريض السمائي، الذي هو خصوصية المرتبة الثانية، من العلم بالله، ويصل إلى قلبه منه أنوار من الكتاب العزيز ومن الصفات، فيقوي أُنسه ويتوطن فيها، ويجفو المرتبة الأولى ويقلاها إلَّا ما أبيح له منها؛ لصلاح جسمه وقلبه.

ويستولي على قلبه المراقبة والحياء من الله تعالى في الخلوات، وتتعوَّد جوارحه المسارعة إلى امتثال الأوامر، والتجافي من الزواجر، فينزل إلى الدائرة الثانية نزولًا لا يبرح منه، وكيف يطيب للقلوب الخروج من الأماكن الواسعة الأرجاء، المنورة الذوات والأسماء،

لى الأماكن الضيقة الحرجة الملوثة بأنجاس النفوس، وظلمات الطبائع والنحول؟

فيكون لسان حاله كما قيل:

كانتْ لقلبيَ أهواءٌ مفرقةٌ فاستجمعَتْ مذ رآك القلبُ أهوائي

وفيها تصحيح التوبة والعقيدة والأعمال والأحوال القلبية؛ من التوكل والصبر والرضا، فيذوب في هذه بقاياه، ويصفو من كدره.

فإذا يسَّر الله تعالى وتوطن في هذه الدائرة الثانية المنورة العلوية، وكان مرادًا بمقام من مقامات القرب، **فيرزق مقام الطمأنينة**، فتطمئن نفسه، ويسكن عن الخواطر، ويصير قلبًا محضًا، وناظرًا إلى الآيات والأخبار، ويقوم بأحكام الصفات.

* فعند ذلك تهيج روحه وتضطرب كما يهيج البحر ويلقي زبده، كذلك تهيج الروح وتلقي ما سوى الله تعالى كالزبد الذي يلقيه البحر، ويهيج بالمحبة الخاصة؛ لما باشرها من سطوع أنوار الجلال والعظمة.

فعند ذلك يرجى له **أن تدب فيه حُمَيَّا المحبة الخاصة**، الموجبة للسكرات، وهو الحب الخاص عن مكاشفة الأرواح بما لا يحل سطره في كتاب، ولا شرحه في خطاب، اللَّهُمَّ إلَّا على سبيل الإجمال، كي يعرف المريد طريقه وغايتها.

وعند ذلك يتنزل عليها الفيض الخاص المغني له عما سواه، ويصطلي بحرارة الروح، ويصير واجدًا بعد أن كان عارفًا مشاهدًا ببصيرة القلب في الدائرة الثانية.

إذا عُلِم ذلك؛ **فاعلم أن أصل الدائرة الأولى** التي هي دائرة النفس والشيطان تمتد من الكفر والطغيان، ومنتهاها الفسوق والعصيان.

وأصل الدائرة الثانية تمتد من الإيمان والإحسان، ومنتهاها المشاهدة والعرفان.

وأصل الدائرة الثالثة تمتد من المحبة المبغضة للأكوان، المنغِّصة للشهوات، الكافة عن الميلان، المتصلة بالحنَّان المنَّان.

* **واعلم أن طبيعة الدائرة الأولى نارية**؛ لأنها تنشأ من حرقات الشهوات، وتؤدي إلى طبيعتها في الآخرة.

* **والدائرة الثانية طبيعتها نورية**، تلتذ بها القلوب، وتبرد القلب من حرارات الشكوك، فعلها في البواطن فعل برودة القمر في الحيوان والنبات، تلوح عليها بهجة الجنة وميادينها، وتؤدي في الآخرة إلى ذلك.

* **والدائرة الثالثة طبيعتها نارية** جاذبة للأرواح بالمحبة، وهي نار تجذب إلى ما يلهب الأفئدة وتفتن القلوب من أسرار الغيوب، وفعلها في البواطن فعل حرارة الشمس في الحيوان والنبات من الإصلاح والنمو، يلوح عليها بهجة القرب والاتصال بالله، وإليه يؤدي في الآخرة.

* فمن وفقه الله تعالى لمعرفة طريقته علمًا، ثم إتقانه للمسير فيها عملًا، ثم التحقيق بجميع ذلك حالًا، فهو الذي يسمَّى: واصلًا بحسب جِدِّه ومرتبته، فيترقى من دائرة النفس والشيطان إلى دائرة القلب

والمعرفة والإيمان، ثم إلى دائرة المحبة والمراقبة إلى الكشف والعيان.

والدائرة الأولى: سفلية نارية، وهو المركز.

والدائرة الثانية: نورية سماوية قلبية صفاتية، تجر إلى العلو ومقر الروح والراحة، وهي الجنة، وهي دائرة نصيب العبد من الإيمان.

والدائرة الثالثة: قريبة ذاتية، وجْدية سُكْرية وصْلية، تجلب إلى العندية والمحبوبية، وهي نصيب العبد من ربِّه، فيتعين على العبد تعمير الدوائر الثلاث.

❋ **فتعمير الأولى:** بالانتزاح عنها، وتبديل صفاتها، والصعود من طبيعة المركز إلى السماء.

❋ **وتعمير الثانية:** بإتقان علومها وعقائدها وأعمالها، وتأسيس قواعدها على تحقيق الفهم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وبذلك يستوطن العبد ملكوت السماء، ويبتهج بأنوار الصفات؛ من المراقبة والتعظيم والحياء، وتشبه الملكية من بعض الوجوه، ويترقى عن الحيوانية وسائر الكنائف.

وتعمير الدائرة الثالثة: بالتخلي عن السوء، وطهارة المحل رجاء فتح تلك الدائرة من خزائن الألطاف والغيوب، ففيها الراحة والسرور، وبها تنسد فاقة الروح، فيصبح العبد فرحانَ بسيده من الوجود، ومن قرب ومن طرب، ولسان حاله فيها:

قد كنتُ قبلَ اليوم في حُكم ... وتَقَضَّى ذلك الحُكمُ
فزماني كُلُّه طَرَبٌ ... دُونه الأوتارُ والنَّغَمُ

فبذلك يستوطن العبد حضرة القرب ومجالس الأنس بعد استيطانه ملكوت السماء، وصعوده عن المراكز السفلية، وتحقُّقٍ لصفاء الحق الخاص؛ لما يبدو عليه من المشاهد الخاصة الذاتية بعد الحظوة في الدائرة الثانية بالمشاهد الصفاتية.

والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٢٦)

قاعدة في تمهيد ما قبلها وتناسبها

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي فتح للطالبين أبواب معرفته، وأجلسهم على بساط قربته، وجذب قلوبهم بجواذب محبته، وكسا ظواهرهم لبسة من آداب شريعته، وصبغ قلوبهم بما سترها عن شهواتها ورذائل آفاتها من أنوار بهجته، وأشعة عظمته، ففيهم من لا يعرف غير مولاه، مما به من قربه أفناه، فهو مستغرق في أحوال سكرته، متنعم به عن كل نعيم خلقه في بريته.

ومنهم من أصحاهم وقواهم، فهم صُحَاة سُكَارى، ينطقون بحكمته، ويهدون الطالبين إلى طريق اصطناعه ومحبوبيته.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، القادر في قيوميته، المدبِّر لما أتقن من صنعته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ ينبوع الهدى، وواسطة عقد الورى، الذي بعثه برحمته وهدايته، لنجاة الخلق في اتباعه وطريقته، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحابته.

وبعد:

فمن طلب هذا الطريق وابتغاه، وانبعثت همَّته إليه، وآثره على

ما سواه، فلا يفرِّق همه في تنوع أبواب القُرَب والطاعات، وما أشار إليه القوم من المجاهدات.

واعلم أن الناس طبقات، خلقوا لتعمير المراتب، والأكثر منهم إنما تقوم المراتب بهم في الحجاب عن ربِّ الأرباب، وخيارهم أهل العبادات من المحجوبين؛ فإنَّهم ليس لهم منه ما يشغلهم عن كل شيء غيره، منهم يتقربون بالسعايات لنيل الدرجات في الجنان، فلو تركوا ما هم عليه لم يبق معهم شيء.

والمرادون بهذا الشأن وقعوا على المطلوب فلهوا به عمَّا سواه، وحصل لهم من العبادات والمعاملات صفوها وخالصها؛ إذ كانت مغشوشة مشوَّهة في غيرهم؛ للعمى المركَّب فيهم عن المطلوب، وفي العمى يدخل النفس والشيطان.

فأكثر العباد لا يسلمون من الرياء والعُجب، وسبب ذلك كله الحجاب، وهؤلاء لمَّا وقعوا على المطلوب؛ استغرقت هممهم به، واستعملوا من الأعمال والعبادات ـ وإن قلَّت ـ أصفاها وأزكاها، وكانت أعمارهم كبارًا، راجحة مضاعفة، بخلوصها وصفائها، و ـ أيضًا ـ فإنَّهم عملوها بمشهد من معبودهم في نور المعرفة وجواذب المحبة، فصفت بذلك وزكت، فلذلك قلَّت أعمالهم الظاهرة، لكنها متقنة مصفَّاة من الشوائب.

وسبب قلَّة أعمالهم أن قلوبهم سرحت في ميادين الفكر والمصنوعات، والشواهد والاعتبارات، ثم فتح لأرواحهم مقامات المشاهدات، واستغرقوا بما وجدوه من لوائح الصفات، وفي سبر

ذلك شغل شاغل عن كثرة الحركات، اللَّهُمَّ إلَّا الكُمَّل؛ فإنَّهم يطيقون ذلك؛ لأنهم انجمعوا بمولاهم، وتوطنت قلوبهم في حضرته توطنًا، فهم وإن تفرقوا في الظاهر فهم مجموعون في عين الجمع، فاعرف ذلك، فإن كنت تطلب هذه التحف السنية، والمشاهدات العلية، من قرب ربِّ البرية، فتقرب إليه بأعلى الأشياء وأسناها؛ من الأعمال القالبية والقلبية، فإنَّ التقرب أثر لازم، أمَّا الأعمال القالبية فيكفيك إتقان الفرائض، وتحرير اجتناب المناهي وما لا تتفرق به من السنن والنوادب.

وأما التقرب إليه بالأعمال القلبية، فالحضور بين يديه من وراء حُجب الغيوب، كما تحضر مع حبيب لك غائب عن بصرك؛ فإنَّه يمكنك ذلك، فإذا تعودت الحضور لذلك، تطرقت إلى حريم المشاهدة، فعامله حينئذ بأفضل الأعمال؛ من الحياء، والمهابة، والحب المحرق لطلب ما سواه، فإنَّ سواه هو العذاب الأليم.

فصل

فإذا علمت ذلك فاستعمله واصبر على عكوف الهم، وعلى الاقتصار على هذا دون غيره، والنفس لا تدعك تقول: لك اعمل كذا، اعمل كذا؛ فإنها لا تصبر على الحضرة؛ إذ لا يصبر عليها إلَّا محب صادق مستعد، والذي لا يستعد تحطه النفس إلى السعايات والتكسب بالحركات من أنواع الطاعات فيحتاج الصادق إلى صبرين؛ صبر على دوام الحضور بالحياء والمهابة، والحب والتعظيم، وصبر آخر على الاقتصار على ذلك.

ثم استعن بالله تعالى في هذا الشأن خصوصًا، وفي غيره عمومًا، فإن قنعت بذلك وصبرت عليه وعمَّا سواه، يرجى أن يكشف لك في ذلك أسرار لا تسمع، وتجد نورًا في بصيرتك ترى الحق حقًّا، والباطل باطلًا، وغير ذلك من التحف التي يحظى بها المحبون والمقربون من قريبهم، وفي ذلك كفاية لكل صادق مستعد طالب، عرف المقصود فانجمع عليه، وعرف الطريق فلم يعرج عنها إلى ما يتفرَّق همّه لديه.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلَّم.



(٢٧)

قاعدة في الأمور
التي ينبغي أن تكون هَمَّ السالك

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي سبَّحت له السُّحب الماطرة، والبحار الزاخرة، والنجوم السائرة، والأفلاك الدائرة، بفنون ما أنطقها به بارئها، من أنواع تحميده، وتمجيده، وتقديسه، وتكبيره.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١]، ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ إذ عنَتْ لعظمته منقادةً، بالسجود طوعًا وكرهًا، بذواتها وظلالها، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

باعثِ الرسل ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٥]، ختمهم بمحمَّد ﷺ عبده ورسوله، وبعثه هاديًا، وجعله مهديًا، فتح به آذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا، وعيونًا عميًا، وألزم أمته ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الفتح: ٢٦]، ونحن نشهد بها مؤمنين موقنين، ونسأل الله أن يكتبنا مع الشاهدين بفضله وكرمه وامتنانه، آمين.

وبعد:

فلما رأيت معظم السالكين قد انصرفت هممهم إلى جزئيات من السلوك، تحرُف بصاحبها عن منهج الاستقامة، ويعطب فيها من لم يكن التوفيق إمامه؛ مثل صوم دائم، وتجريد غير ملائم، وتقطع في السياحات، ومطارح صعبة في الفاقات، تذوب فيها مهجهم، وتضمحل فيها قواهم ومددهم، وتذهب اللطيفة الذهنية من عقولهم، التي يلطف إدراكها بتبصُّر صاحبها ما بين يديه من المطالب العالية، والمعاطب الباطنة من معاثر النفس والشيطان، ومزالق الطوارق والحدثان، فمن عمي عن مطلبه كيف يظفر بأربه؟

ومن حُجب عن أعدائه، ربَّما قطع عن انتهائه، فيظل أحدهم صائمًا، وعن إصلاح مزاجه ساهيًا، ويعمل على تقطيع بدنه بلا أستاذ يرشده، ولا سائس يؤدِّبه، فيفتح له من ذلك أخلاق حادة، لاحتراق المادة، ويجمد القلب فلا يسير على الجادة؛ فإنَّ القلب الجامد بالرياضة لا ينفعل، ولا تؤثر فيه السياسة، وربما غُلب صاحبه على بغض كامن، وحسد باطن، وأخلاق سيئة، يقع بها صاحبها في الموبقات من الآثام، فيحبط عمله، ويبطل سعيه، فلا تفي رياضته بانحرافه، وربما فاته المطلوب من إسرافه.

وحققت النظر؛ فوجدت الحامل لهم على ذلك الجهل بالمطلوب وبطريق الوصول إليه، والكيس الفطن إذا عرف المطلوب وطريقه لم يعرج عنه إلى غيره من هذه الانحرافات، التي هي ـ عند المبصرين ـ عقوبات.

وجدت هذا الأمر لا يفطن له إلَّا الأكياس الأذكياء، أهل العقول السليمة، والأذهان المستقيمة، والهمم الحارة، والقرائح الحادة، فعلَّقت هذه القاعدة ـ بعد الاستخارة ـ لأجلهم، ورجوتُ أن الله تعالى يبصِّرهم بها المبادئَ والغايات، ويعصمهم من ورطات الانحرافات، ولحظت فيها تلخيص الأمور المهمة، التي ينبغي أن يكون همُّ السالك منصرفًا إليها، عاملًا على تحقيقها والوصول إليها، وبالله المستعان.

اعلم أيُّها الأخ الذي كاس وفطن، وطلب الحقائق، وارتفعت همته عن الانبتات على صور الأشياء دون حقائقها: أن المحققين نظروا إلى أهم المطالب وأعظمها خطرًا، الأهم منها فالأهم، فشغلوا هممهم بها، وعملوا على التحقيق بحقائقها، فارتفعوا بذلك عن العلوم الناقصة، والأعمال الزائغة، والأحوال التي هي غير نافذة، وساعدهم التوفيق حتَّى بلغوا إلى مراد الله تعالى منهم في ذلك كله، فأهم المهام التي يتعيّن الاهتمام بها أولًا وبالله التوفيق:

معرفة عقائد الإيمان، وما يجب لله من الصفات، وما يستحيل عليه منها، وهي معالم المعرفة والتوحيد، المستنبطة من كتاب الله تعالى، وسُنَّة رسوله ﷺ، بلا تحريف ولا تمثيل، وإتقان هذا الباب بحججه ودلائله من الكتاب والسنة من عقائد أهل السنة وفقهاء الحديث؛ كأحمدَ وسفيان وابنِ المبارك والشافعيِّ وأقرانِهم ونظرائهم.

ومجانبة ما أحدثه أهل الكلام من الرأي والمعقول، ومطالعة كتب أهل السُّنَّة في إثبات الصفات؛ كـ (كتاب التوحيد) لابن خُزيمة،

و(كتاب النَّقْض) لعثمان بن سعيد الدارمي؛ ففي الكتابين وغيرهما يُعلم مذاهب السلف في إثبات جميع الصفات بحقائقها لله تعالى من غير تحريف ولا تمثيل، وبالله المستعان.

فهذا المهم الأول الذي عليه تنبني المشاهد القلبية؛ فإنَّها تنبني على العقائد الإيمانية.

المهِمُّ الثَّاني: معرفة الرَّسول ﷺ، والطريق إلى ذلك العكوف على معرفة سيرته، وسنته وهديه وأخلاقه، حتَّى يختلط العلم بذلك في الأمشاج، وتصير الأيام النبوية كأنها بمَنْظر العَيْن، من كثرة استماعها ومطالعتها والتفكر فيها، فحفظ الدماغ والأوطار وتناول الشهوات بحصول هذين المهمَّيْن، أفضل عند الله من صيام النهار وقيام الليل مع الجهل بذلك، وضعف الذهن وعوزه بسبب الصوم والرياضة يحجب عن استقرار هيئة ذلك في القلب، فهذه علوم المحققين وأصولهم، وسترى ما يترتب على ذلك، إن شاء الله تعالى، فيما يأتي.

المهمُّ الثَّالث: معرفة ما يلزم العبد من أحكام الشريعة من الفرائض والمسنونات والمندوبات المدونة في كتب الفقه ونصوصها من كتب الحديث، وشدة الاهتمام باستخراج نصوصها؛ لتقوم بذلك الحجة عند الله، ويكون الإنسان متبعًا لرسول الله ﷺ، فبذلك يعرف الإنسان دينه، ويصير مسلمًا حقًّا، كما صار بمعرفة أصول العقائد من الكتاب والسُّنَّة، مؤمنًا حقًّا.

المهمّ الرَّابع مِن مهمَّات المحقِّقين: رعاية صحة التوبة، واستصحاب حكمها؛ من المحاسبة، وحفظ الجوارح، والقيام

بما علمه من الأوامر، ومن ذلك قضاء الديون، وردّ الودائع، وقضاء الفوائت من الصوم والصلاة وغير ذلك، ويكون مستحضرًا في كل أمر أصله من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله؟، فبهذا الاستحضار يصير عبدًا لله تعالى، يمتثل أوامره، وينتهي عن مناهيه، ويخرج عن جمود التقليد.

المهمّ الخامس: لا ينتفع من الأعمال بصورها، بل يطالب نفسه بالنصح فيها وإتقانها، فيتقن المناهي بالاحتراز عن جليلها ودقيقها، ويتقن الأوامر برعاية الخشوع والحضور الباطن فيها، ومناجاة الرب تعالى، والإخلاص له فيها مبلغَ الطاقة؛ إذا صلَّى فيصلِّي بقلبه وقالبه، وليفهم ما يقول، وليواطئ في ذلك بين ظاهره وباطنه، وكذا إذا تلا كتاب الله تعالى يكون حاضرًا مع معانيه؛ يفهم عن الله تعالى، ومن لم يَعْتَدْ ذلك فليعتده؛ يصر له طبيعةً، لا يصبر عنها، إن شاء الله تعالى.

المهمّ السَّادس: معالجةُ أخلاق السوء وممارستها، وإخراج الخبث والغل والحقد والحسد من القلب، وتبديل ذلك بالرحمة والمحبة والنصيحة، فإذا أحس في قلبه على أحد حقدًا أو خبثًا أو ثقلًا فليكارمْه بالبشاشة والإكرام، والبداية بالسلام، والإيثار إن أمكن، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون مؤذيًا لقلبه وحاله، فيدعو له في ظهر الغيب، ويعمل على مفارقته؛ فإنَّ مجانبة من يفسد الوقت شرط في الطريق.

وإذا آذاه أحد أو سبَّه أو نال من عرضه فليبادر بالدعاء له بصدق من قلبه، ويعمل على نصحه؛ ليكافئ الإساءة بالإحسان، فهذه أعمال

الصدّيقين، وأي صيام أو قيام يعادل هذا؛ فبهذا تصفو القلوب لمشيئة الله تعالى، وتنزل عليها الرحمة من الله تعالى، ويصير مهبطًا للملائكة؛ فإنَّ القلب الطاهر نظيف ليس فيه رائحة خبيثة، فهو أنسب المواطن بالملائكة، والقلب المحشو بالآفات؛ من الغل والحقد والبغض والحسد مزبلة، فيه أقذار وأنجاس، فهو أنسب بالشياطين؛ لأن محلهم الكُنُف والمزابل، وهذا أصل عظيم من الأصول، من اهتم به ورعاه وصابره حتَّى تبدلت أوصافه ونعوته المذمومة بالأوصاف المحمودة، رُجي له أن يكون من الأبدال، وأن يبدل الله سيئاته حسنات، وهذا يحتاج إلى مدة طويلة، وممارسة شديدة، وتَعَوُّد، فيبقى صاحبُه سليمَ القلب للناس، رحيمًا بهم، محبًّا لمحسنهم، داعيًا لمسيئهم، راحمًا للمسيء العاصي، مع بغضٍ له في الله، ممزوج برحمة، فهذه أخلاق الأبدال، إن شاء الله تعالى.

المهمّ السَّابع، وهو القطب: الاهتمامُ بمعرفة الله تعالى والقرب منه، وتقديم ذلك على كل أمر، وتعرُّف الطريق إليه وإلى قربه.

ومن قطع المهمَّات الستة التي سبقت وحقق أصولها ومبانيها، وعمل بها فقد قطع نصف الطريق إن شاء الله، وقارب المنزل، فليجعل الهم همًّا واحدًا؛ بالعكوف على ذكر الله ومحبته، واللهج به، ومراقبة نظره واطلاعه ومهابته ومخافته، وشدة الاهتمام به، وقطع الشواغل، وتحقيقها، إن لم يمكن إزالتها، والافتقار إلى الله تعالى في ذلك كله، والصبر على ذلك، ومواصلة الأيام والليالي بذكر الله تعالى ومحبته، واستعمال الأوطار إن أضعف الصوم عنه، وكذلك السهر المفرط.

فليترك جميع هذه الأشياء، ولا يجعلها بالقصد الأول، بل يستعملها بحسب الحاجة وما يصلح به القلب، ولو استمر النوم بحسب ضعف المزاج فلا يضر إن شاء الله تعالى، مع انفراد الهم بالله والعكوف عليه، والعمل على محبته وإرادته ليلًا ونهارًا، حتَّى في معاشه وسوقه، وأموره الضرورية؛ فإنَّ الأمور الضرورية من الأكل والنوم والمعايش لا تضر في ذلك إن شاء الله تعالى.

ولا يضر إلَّا ما كان فضولًا من الشهوات والأعمال، لا يزال كذلك حتَّى يستقر الطلب والإرادة في القلب، وهو مع ذلك لا يصغي إلى أحكام قلبه، بل إلى حكم الله ورسوله؛ فإنَّ القلب ربَّما حكم عليه بالتجريد والسياحة، وترك الأسباب، ولبس الخُلْقان بحكم الحال، فلا يصغي إليه، ولا يعمل إلَّا بالسُّنة، فيجعل السنة حاكمًا، لا القلب، فبذلك ينصلح وينفذ إن شاء الله تعالى، ويستعمل كتمان الأسرار، فلا يبوح بشيء وقع في سره من الأحوال، اللَّهُمَّ إلَّا أستاذًا يحتاج إليه في تقويم انحرافه لا غير.

المهمّ الثَّامن، وهو الغاية التي إليها عمل العاملون، وعليها ثبت المتَّقون، ورسخ المحبُّون: عبودية الله تعالى، وذلك لا يتم إلَّا عن كشفٍ إيماني، وجميع ما تقدم هو أقسام العبودية.

لكن هذا القسم: هو العبودية الخاصة لأهل الخصوص، وهو الانخلاع عن التدبير والاختيار، فلا يدبرون ولا يختارون إلَّا ما اختاره الله شرعًا؛ فإنَّ ذلك باختيار الله لا باختيارهم، وذلك إنما يكون بعد ملاحظة صفة القيومية، يشهدون الباري تعالى قائمًا بالتصرف والتدبير، لا متصرفَ غيره، ولا مدبِّر سواه.

فتدبيرُ العبد في تدبيره رعونةٌ من بشريَّته؛ لِعَماه عن قيوميّته، ولو أبصر بقلبه المدبِّرَ المختارَ الذي يبرز في كل نفس مقادير مختلفة، وإرادات متنوعة، كما يشاء ويختار؛ يذلُّ هذا ويعزُّ هذا، ويُفقر هذا ويغني هذا، ويُميت هذا ويحيي هذا، ويبتلي هذا بالمعصية، ويفيض على هذا خِلَعَ الطاعات، أشْخَص إلى مشيئاته، وذهل عن اختياره، ودام التجاؤه إلى مولاه، ومن ذاق هذا بقلبه ذوقًا يرتفع به عن مجرد الإيمان والعلم، خمدت بشريته، وهرب شيطانه، واتصل شهوده بمشهوده، وتحققت محبته، وعظمت مخافته، وتم توكله، وتحقق تفويضه، وصار عند الله تجري عليه تصاريف المشيئة، وهو يقابلها بمقتضاها من العبودية.

إن استعمل بالطاعة شكر، وإن رأى مبادئ الخذلان صرخ وافتقر، وإن قوي سلطان الأنوار فني، وإن جاءت الأوامر والنوادب بقي، فهو بين سُكر وصَحو، وفناء وبقاء، وغيبة وحضور، وتعظيم وإجلال واضمحلال، يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال، وقلبه معلَّق بالعرش، وهو عبد الله؛ فلا إرادة ولا اختيار إلَّا ما أراد الله من الأوامر واختار.

وهذا حال المقربين إذا دام، ومن أذواق الموقنين إذا لم يدم.

وهذا حد العبد وسيره، ويبقى بعد هذا تدارك الحق تعالى بالجذبة والقرب الخاص، لمن يشاء من عباده وصفوته ومحبيه، وذلك إنما يكون بالله، فإنَّ العبد قد فنيت رعونته، وزال اختياره وتدبيره، وبقي بالله يقلِّبه كيف يشاء، وهو مع ذلك في الأوامر مختار مدبر

مريد، واختياره وتدبيره وإرادته لأمر الله؛ إنما هو بالله لا بنفسه، وبه يستعين في عبادته، وبه يريدها، وهو فيما عدا ذلك من حظوظ نفسه وبشريته، فإن ناظر إلى مشيئة المختار المريد، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

معاشر الإخوان؛ من طلب منكم ركوب المحجَّة المثلى، وطريق المحققين إلى مقاعد السابقين، فليعتنِ بهذه المهام، وليُحْكِم قواعدها وأصولها، ويعمل على إكمال فروعها، ولا يعوج عنها إلى جزئيات ليس لها كثيرُ منفعة، ولا عظيمُ جدوى، بل ربَّما ضرَّت وحرفت، وإذا وجدتم أستاذاً يشير إلى ذلك، ويمشي مع السالك فيها، فاعلموا أنه غنيمة، وانتهزوه قبل فوته، فإنَّ الآجال بيد الله.

وهؤلاء هم في الدنيا مسجونون، راحتهم الوفاة ولقاءُ الله تعالى، فاغتنموا أيامهم، واقبلوا إشاراتهم، واستعينوا بالله تصلوا[1]، وبقرب مولاكم تفوزوا، وتفرحون إن شاء الله تعالى.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(١) في المخطوطة: (تصلون) و(تفوزون).

(٢٨)

قاعدة في سلوك التحقيق إلى غاية المطالب للسائر إلى ربه الذاهب

وهذه هي الغاية القصوى لمن يروم محل الكرامة من القربى والزلفى؛ فإنَّها طريق الأبدال الذين يستعدُّون به لمحبَّة الله لهم في سائر الأحوال، وفَّقنا الله تعالى ذلك، وجَمَّلنا فيه بالعافية آمين.

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله، وسبحان الله، والله أكبر، المتعالي عن خطرات الظنون، القدوس السلام، الذي بيده ملكوت كل شيء، بكلمته: «يكون»، له خزائن السموات والأرض، يبسط منها ما يشاء ويقدر، بيده الخير وهو عنده مخزون.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، من قصده بإرادته لم يخب من نواله، وكيف يخيب من كرمه الآملون؟

خلق الخلق ليربحوا عليه، فمن تاجر كان أجره غير ممنون، ومن عوَّل على غيره فهو المغبون، سبحانه عدد ما سبَّحه المسبِّحون، وحمده الحامدون، وهلَّله المهلِّلون، وكبَّره المكبِّرون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، الذي أذعن له بالعبودية العارفون، وصدق في طلبه المحبون، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، الذي ائتمَّ به ليلة مسراه النبيون، صلَّى الله عليه وعلى آله ما صلَّى عليه المصلُّون.

وبعد:

فإن جذبات الله بدت من الغيوب على أسرار المنيبين، تخلَّصوا بها من ورطاتهم، واستقاموا بمددها من عثراتهم، ورأوا بنورها حقيقة أمره فاتبعوه، ولاح لهم فيها خَطَرُ زجرِه فاجتنبوه، فاستقاموا على الطريقة المثلى، وتوطنوا على الاستقامة في الحركات الباطنة والظاهرة قسطًا وعدلًا، فسمت بهم هممهم إلى سني المطالب، ورامت في عُلا الدرجات أعلى المراتب.

فاشتاقوا إلى الحضرة بصفو اليقين، وتاقوا إلى مِنَح الموقنين، فألاح الله لهم سبلها، وكشف لهم عن وجوهها إذْ كانوا ممن رامها وطلبها، فوصلوا بقلوبهم إلى الواسطة، وجعل الله بين قلوبهم وبينه رابطة، وهو الرَّسول ﷺ.

فلمَّا أوصلهم الله إليه من الطرق الدالة عليه؛ تلقوا منه سر الدعوة، وارتضعوا من رضاعة لبان الفطرة، فأشرق عليهم نور الجلال، فشرعت نفوسهم في الاضمحلال، وحييت قلوبهم بحياة السعادة والإقبال، فأوصلهم التعلُّق بالرسول إلى الوصول إلى لوائح صفات المأمول؛ كشف بواسطة الرسول عن مشهد الإلهية، وخرقوا إلى ذوق أسرار الربوبية، فعبدوه بما اقتضته ألوهيته،

واستسلموا لأحكامه بما عرفوه من ربوبيته، فصار لهم من مشهد الصفات مقام معلوم، ودام لهم نعيم غير مفصل ولا مفصوم، فلاح لهم مما وراء ذلك بوارق لا تدوم، من أثقال العظمة التي هي حقائق السر المكتوم.

فابتهجوا بالجلال، وانجذبوا بالجمال، وتتابع عليهم الإفضال، واستقبلهم من طلائع الكرم فيض النوال، فصاروا لله عبيدًا يعبدونه بأمره، ويستسلمون لقدره وحكمه.

ومع ذلك فالبقايا في النفوس موجودة، والخطرات السيئة تكون أحيانًا غير مفقودة مع تمكنهم في النصيب، وتعلقهم بالحبيب، تزاحمهم أحيانًا من الخطرات والطوارق المعارضات من دسائس الشهوات، وكوامن آفات النفوس الخفيات، ما يكاد أحدهم أن يصير حياء من الله كالرُّفات؛ لكونهم يجدون من بواطنهم خطرات المخالفات، وهم في قبضة جبار السموات، فيعيل لذلك اصطبارهم، ويعدمون قرارهم، ولا يدرون الطريق إلى تصفية أكدارهم، وتطهير محلهم من درنهم حتَّى يعرفهم الله تعالى سبيلهم، ويكشف لهم عن ترقيهم عن ذلك، ويريهم تحويلهم، ويرون أن الإذعان للعبودية الكاملة لم تقم لها القلوب، ولا خلصت من رقِّ النفوس، لتعلق عن الرسوب.

فالنفس هي المتصرفة بَعْدُ في الأسرار، لم تنهض بحقيقة التوبة إلى الجبار، فيشرعون في التوبة الخاصة، بعد أن حققوا التوبة العامة، فالتوبة العامة تقييد الجوارح عن المحرمات، وإلزامها وظائف

المأمورات، بذلك يرتقوا إلى مشاهدة الصفات والمعارف البينة النيرات، ومع ذلك فالنفوس لها الحكم والهيمنة، تتصرف بمقتضى جبلَّتها الكامنة، لكنه وفي الرتبة العامة، وبقيت عليه طريق الخاصة.

فإذا أراد الله تعالى نقلهم من الطريق الظاهر إلى السير الباطن الباهر، يعلمون أن المراد منهم حقائقهم الباطنة، التي هي نظر الحق، لتبقى من الإبعاد آمنة، وإن كانت لا تزال خائفة من العواقب الخافية، فإذا علموا وصلوا إلى قلوبهم فقادوها، وظفروا بها فرمُّوها، وذلك أول الفتح المبين، والظفر بالعدو المشين، فتبقى الحقيقة الباطنة التي تزيد السرور، وهي الحقيقة الطالبة لمعالي الأمور، فينهض القلب تائبًا توبة الخصوص، وهذا خاص لمن ظفر بقلبه، فزمَّه عن النكوص.

ومثل هذا الذي يسمَّى صاحب القلب، وإن كان في الاصطلاح المعهود يسمَّى: الخاشع أيضًا صاحب قلب مع امتزاج قلبه بنفسه، وخيره بشرِّه، وهذا أمر آخر وهو الشعور بتجرد القلوب عن مراكز الطبائع والعيوب، فيرى العبد حقيقة الباطنة ناهضة إلى التوبة بلا تكلف قائمة، فإنَّ التوبة الأولى كانت بحكم العقل عليه، وهذا صارت التوبة حاجة قلبه، فهي تميل إليه، وقد قيل: (فضح التطبُّع شيمة المطبوع).

وشتان بين من كلَّفه العقل أمرًا فتكلَّف، وبين من أحب الشيء بطبعه وتلطف، ومثل هذا الذي يقال في حقه: استقام باطنه كما استقام ظاهره، وهو التحقق بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] ذوقًا وحالًا، لا تكلفًا وجهدًا، وما سبب ذلك إلَّا أنه حيث حقق القلب مشاهد الإيمان، وتوطن حقيقة العرفان، فصار له

أمرًا يركن إليه، ويستند في أموره عليه، لا يغيب عنه ساعة من الزمان، وإن خطفه عنه أمر من الأكوان، لكنه غالب أمره مشاهد الإيقان.

فلمَّا استقرت في ذلك قدمه نهضت إلى حقيقة التوبة عزائمه، فتجرَّدت القلوب عن النفوس تجرد المتجرد عن الملبوس، هذا علامة خواص الملك القدوس، فعاملت ربها بالتوبة، بلا أمر تهابه [...][1] وهذا أول طريق الخاصة، منه يرتقون إلى محبة القلوب، فنهضت قلوبهم إلى الإرادة كما نهضت بالتوبة، وذلك حين صار لها عادة.

فصاحب القلب لو أن آخرًا إذا عمل عملًا من الأعمال الظاهرة؛ مثل ذكر أو صلاة أو تلاوة أو غيره، أو من الأعمال الباطنة؛ مثل توبة أو محبة أو رضا أو غيره، تراه غائبًا بذلك العمل عن غيره، مستورًا فيه عن هواجس نفسه، فإنَّ محل الخواطر هو المشتغل بتلك المعاملة، فليس فيه فضل، ولا للآفات النفسانية والشيطانية في غالب الأمور عليه مدخل، وهذا إن شاء الله أول طريق المقربين، وهو تخلص قلوبهم من أسر نفوسهم وخطراتها لصفائها عن أدرانها وأدناسها، سكن العقل فيها فلم يهمّ إلَّا بخير، وكيف لا؟ وقد صار هو صاحب المعاملة طبعًا لا تكلفًا.

وأما العُبَّاد والصالحون الأبرار؛ فغالبًا إنما يسلكون بحكم نفوسهم على عقولهم، ولهذا ترى فيهم المرارة والمنازعة؛ لأن قلوبهم

---

(١) كلمة مطموسة في المخطوطة لم تستبن قراءتها.

محكوم عليها؛ لم يصر الخير طبيعة لها، ولا التوبة عملًا بالطبع لها، لكنها تتطبعه وتتكلفه، فلهذا ترى أحدهم مغمورًا في أحواله، مستورًا في أنواره، الحسد قائم في قلبه، والشهوة تميل بنفسه إلى حظه، وخطرات السوء تزاحمه في قصده، وسببه أن المحل محكوم عليه؛ لم يقم بتلك الأحوال والأعمال شهوة وطبيعة، فالعقل يورد الحق عليه، وطبيعة المحل تورد الشهوات إليه، فقلْبه مَحَلٌ لتزاحم الحق والباطل، وأمره ناقص ليس بكامل.

وأما من صارت التوبة شيمة قلبه، والمحبة طبيعة سره، بعدت عنه الآفات، وهمست في سره الخطرات، وصارت حقيقته هي الثابتةَ وهي المحبة، قد اشتغل محل الخواطر بذلك، وصارت عليه مكبة، واطمأنت نفسه على الحق وأرادته، فصارت النفس تريد ما يريد القلب والعقل بطبيعته، وهذا هو العطاء الفاضل والمنحة الشريفة، وهو أن يصير العدو صديقًا، والمبغوض الممقوت حبيبًا حقيقًا.

وكان ـ والله أعلم ـ أن مراد الحق من العبد هذا القدر، وأن الرب تعالى لا يكمل رضاه عن العبد وفي باطنه طبعه من العذر، يحب ما يبغض، ويكره ما يحب، وإن كان معفوًّا عنه لكراهية ما في طبعه بالاعتقاد واللب، وأما شخص انقلب طبعه فصار يحب ما أحب الله، ويكره ما يكره الله، فهذا ـ والله أعلم ـ هو الاستعداد لمحبة الله تعالى له؛ لأنه لم يبق في باطنه ما يكره الله، وانجَمَع بكُلِّيَّته على مراد الله، وهذه غاية السياسة التي ينتهي إليها الاكتساب، وإن كانت في الأصل من فضل الله الوهاب، وهو طريق الأبدال الذي يبدل الله سيئاتهم حسنات.

وإنما كان ذلك لتبدل صفاتهم، وتغير طباعهم وعاداتهم، فاستحقوا بذلك أن يبدل الله سيئاتهم حسنات، وأن يصطفيهم ويصطنعهم ويفيض عليهم سجال الكرامات، فيصيروا محبوبين، ويجعلهم مكرمين.

فعليكم معشر الإخوان بتحقيق ذلك في السلوك، وتفقُّدِه من نفوسكم؛ فإنَّه الغاية القصوى الموجبة إن شاء الله لمحبة الرب في الأولى، والاشتغال بغير ذلك من الأمور الخارجة ـ مع تضييع هذا السر الشريف ـ بلادة وجمود أو مَيْل بالطبع إلى التخلف عن مراتب أهل الكمال بالتأخر والركون، وهو ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على محمَّد وسلَّم.



(٢٩)

قاعدة في أنواع التفاريق
وصفة الجَمْع في الأمر المكمّل لصاحبه

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

المبتدئ متفرق الهم، متشعِّب الخاطر بين أمور متنوعة، أولها تحصيل همَّة يرتقي بها في علومه وأعماله وأحواله، فهو متعوب في تلوُّنه فيها، تارة يفقدها، وتارة يجدها.

فإذا وجدها فهو متفرق بين علم يضبطه حفظًا، أو يفقهه معنى، فإذا حصل ذلك العلم الذي يحتاجه فهو متفرق من نفسه الأبية، التي تأبى الانفعال لمتقضى العلم من المحاسبات والمراقبات، والقيام بحقائق التقوى؛ من أداء وظائف المفروضات على أكمل هيئاتها المشروعة، فتارة يجد همّة تبعَثُه على ذلك، وتارة يفقدها.

فإذا وجدها فتارة يقوم بالوظائف قيامًا مقارنًا، وتارة يقوم بها قيامًا ناقصًا، وتارة تغلبه نفسه وتبرد همته، فيهمُّ إلى ركون المحافات، ويتقاعد ويتكاسل عن القيام بوظائف العبوديات؛ من المفروضات والمسنونات، فقلبه متفرق ـ أيضًا ـ من التقصير في ذلك، ومن النشاط في وقت، ومن الكسف في وقت آخر.

وهو متفرق ـ أيضًا ـ من عدم مؤاتات الأسباب والأصحاب

والأزمنة والأوقات في حقه؛ فإنَّه يرى الكل مفرقًا عما يطلبه، صادًّا عما هو بصددِه، فهو يداريهم ويداري وقته جمعًا بين المصالح، فتارة تغلبه تلك العوارض حتَّى تستوليَ عليه وتنسيَه ذكر الله تعالى، فينفعل لها، فيبقى بارد القلب، جامد الخاطر، قد انحرف عن دائرة السالكين، ثم يقويه الله تعالى بمشيئته ومعونته على مقاواتها والعود إلى حالته التي يحبها الله منه ويرضاها.

وهو متفرق ـ أيضًا ـ من إبطاء وقت البوارق:

فتارة يلوح له قمر الإيمان حتَّى يتوهم أنه قط لا يتوارى عنه، فيعيش في تلك البهجة والنور زمنًا ما أطيبه وما أحلاه!

وتارة يمر على قلبه غيوم الطبيعة وغانها، فتحجبه عن ذلك حتَّى كأنه لم يعرف ربه، ولا وجد رائحة أنسه، ولا ذوق معرفته وقربه..

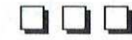
وتارة تبرد ناره، ويعكف على حظوظه، كأنه يطلب أمرًا غير ذلك.

فمن وَفَّقَه الله تعالى حتَّى دامت همَّته الجاذبة له إلى مرضاة ربه في تحصيل العلوم والأعمال والأحوال، ثم حصل له من العلوم ما يمكن مثله أن يعبد الله به في الأمر الظاهر والباطن من علوم الأحكام وعلوم المقامات والأحوال، ثم ألان الله تعالى له جوارحه وطبعه كما ألان الحديد لداود عليه السَّلام، فيبقى عمل الحق واعتقاده طبيعة فيه خارجة عن مراد الحق ولا خارجة عن أمره، ولا مائلة إلى معصيته ومكروهاته، ثم فتح على قلبه لائحة من شمس المعرفة الجاذبة لقلبه إلى محبة ربه، بحيث لا يتوارى عنه لمحة ولا طرفة، كيف

التفت وجد بقلبه ما يهيج غرامه، ويكثر منه المهابة لربه مع تلك المحبة الزائدة، والتعظيم له على معاينة باطنه.

روحه تشهد في نورها تفاصيل الأوامر والنواهي والشرائع والنبوات، متصلة بشارعها سبحانه وتعالى لربه بالعبودية الظاهرة والباطنة على تلك المعاينة، فقد تم حاله وشهوده، وصار واصلًا بحسب مرتبته ومقامه.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



(٣٠)

قاعدة يعرف العبد فيها نصيبه من ربّه وبُعْده من حُظوظ نفسِه

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وصلواته على أشرف الورى محمد وآله نجوم الهدى.

من أراد الله أن يقطعه إليه ويصطنعه بمرتبة يوقفه فيها بين يديه، يُجْرِ رِقَّه أوَّلًا عن رق النفوس، ويدخله في رقه، ويوقفه للقيام بأحكام عبوديته ووظائف حقّه، فمن استولت عليه مطالب النفوس ومآربها فهو عبد لها، وإن كان يعبد الله بظاهر جسمه وصورته.

وأغلب الخلائق لا يخلون من شَوْبٍ ما من عبودية النفوس، والنادر منهم من رقَّها إلى رق الله تعالى وعبوديته، فإنَّه بالناظر عبد نفسه وشهوته.

فإذا أعان الله تعالى وأراد بعبد مقامًا من مقامات العبودية؛ فَطَمَه عن مراد نفسه الحظوظي إلى مراد ربه الشرعي، ويكشف لقلبه عن عبادته له عن اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، فيعبد الله تعالى بواسطة معرفته له بذلك الاسم أو الصفة، ثم لا يطيع نفسه في حظوظها ومرادها إلَّا ما كان موافقًا لمراد ربه عزَّ وجلّ.

ولو كشف المحققون أنصبة العابدين لله من أسمائه وصفاته لرآهم يعبدون إلهًا واحدًا في مظاهر متعددة، ويستحق كل واحد أن يسمى باسم يليق بعبوديته لله بحسب مشهده من أسمائه وصفاته.

فهذا عبد النور، وهذا عبد المعبود، وهذا عبد القهار والمنتقم، وهذا عبد الكريم، وهذا عبد الرقيب، وهذا عبد الرحيم، وهذا عبد الملك، وهذا عبد الجليل، وهذا عبد الجبار، وهذا عبد القادر، وهذا عبد الجميل، وهذا عبد اللطيف، وهذا عبد الحبيب، وهذا عبد الله، وأمثال ذلك.

فمن كشف له عن لائحة من وجوده فهو: عبد النور، أي عَبْدُ الله الذي اسمه النور؛ لأنه عرفه بأنوار ساطعة تلوح لقلبه من مطالع فوقيته على عرشه.

ومن عرف أنه يستحق العبادة فعَبَدَه بالطاعات والقربات، والأذكار والدعوات، فهو: عبد المعبود.

ومن كشف له عن قهره للعباد في الدار الآخرة قيَّمه ذلك المشهد في الطاعة، ويلزم قلبه خوفًا بحجزه عن المكاره، فذلك: عبد القهار وعبد المنتقم.

ومن كشف له عن كرمه فأقامه ذلك بين يديه راجيًا مشتاقًا إلى لطائف كرمه فهو: عبد الكريم.

ومن بدئ على قلبه بادئ من اطلاعه ونظره فهابه وأجل نظره حياء ومراقبة فهو: عبد الرقيب.

ومن شاهد رحمته في مخلوقاته وأقامه ذلك في العبودية فهو: عبد الرحيم.

ومن ساس العباد بعلمه وسياسته قربه إلى الله ونأى به عن شريعته فهو: عبد الملك.

ومن استولى عليه بادئ من جلال الله تعالى فقمع نفسه وأذلها ونهرها فهو: عبد الجليل.

ومن بدا عليه سلطان الجبروت القاصم للظهور، المذلّ لأعناق الفراعنة، فعبدُ صاحب ذلك المشهد: عبد الجبَّار.

ومن شاهد بادئًا من قيوميته وقدرته في مصنوعاته ومبتدعاته فهو: عبد القيوم وعبد القادر.

ومن اصطلم قلبه بارقًا من أشعة الإكرام المقرب إلى الصفة المدواة بالجلال والإكرام فهو: عبد الجليل.

ومن ورد عليه ما فتن قلبه وألهب فؤاده وصبغ باطنه وظاهره بصبغة المحبة، فلم يبق فيه عرق ولا مفصل إلَّا كان مجذوبًا، وبلواعج الأشواق مكروبًا، كما قيل:

لم يبقَ إلَّا نَفَسٌ خافِتٌ ... ومُقْلَةٌ إنْسانُها باهِتُ
ومُغْرَمٌ تُوقَدُ أحْشاؤه بالنَّـ ... ـارِ إلَّا أنَّهُ ساكِتُ
لم يبقَ من أعضائه مفصلٌ ... إلَّا وفيه سَقَمٌ ثابتُ
عدوُّه يبكي له رحمةً ... حسْبُك من يبكي له الشَّامِتُ

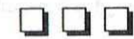
فمثل هذا يحق له أن يسمَّى: عبد الحبيب وعبد الحنَّان وعبد الودود.

ومن حظي بنصيب من حقيقة الاسم الجامع، المُغني لما سواه، المحتوي على جميع الأسماء والصفات المعبَّر عنها بلسان القوم جمع الجمع في الفرق الثاني فهو: عبد الله، والكل عبيد الله، لكن هذا ارتقى عن المشاهد الجزئية إلى المعنى الكلي الجامع لجميع المعاني والجزئيات.

فرحم الله عبدًا انفطم عن رِقِّ النفوس إلى عبادة الملك القدوس حتَّى يتبعه في الآخرة حقيقة عندما يتبع أهل الطواغيت طواغيتهم، كما جاء في [. . .][1] متصلًا بذكره، قائمًا بأداء حقّه، غير مُخْلِدٍ إلى نفسه وشهواتها، مترقيًا إلى ذرى أوطان العبودية ودرجاتها.

وليعلم أن المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم، كذلك هو عبد نفسه ما بقي عليه خُلُقٌ من أخلاق النفوس مما حرم أو كره.

جعلنا الله وإياكم من الفائزين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم كثيرًا.



(١) فراغ بمقدار كلمتين.

(٣١)

قاعدة في الأمور الموصِّلة والأمور القاطعة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي ظهر بأفعاله ومصنوعاته، فشهدت الفِطَر بآياته ودلالاته، وقطعت بوجود حكيمٍ متقنٍ مبتدعاته ومخلوقاته، رحيم بها في تيسير أسباب معايشها، وتكوين موادها من مطره ونباته، مرسل الرياح فتثير سحابًا ماطرًا من خزائنه التي لا تنفد وآياته، وجعل من الماء كل شيء حي ليعبر فيؤمن بوجوده بشهادة ما أبرز من قدرته في تصرفاته.

سخَّر الشمس والقمر لصلاح العالم، وجاعل الليل والنهار آيتين، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلًا من مواد صدقاته، دحى الأرض على تيَّار الماء، فرفع السماء عليها بلا عمَد، ليُظهر بواهر قدرته في بريَّاته.

هذا بعض حكمته في العالم الصغير المتضايق الأجزاء في كرة التراب الملتوية على مركز السفل وطبقاته، فما ظنك ببدائع قدرته في ملكوت السماء وما أودع فيه من الأفلاك الدائرة، والنجوم السائرة، والأملاك المسبِّحة العاكفة على امتثال مأموراته؟

ينزل الأمر بين الأطباق العلوية والسفلية، فيكون بذلك ما يريده من إبرامه وتأثيراته، وما ظنك بتعظيم ما يبرز من بواهر أفعاله وصفاته في عالم الآخرة التي لا يكيفه العقول، بل تؤمن بوجوده وإثباته حين ترتفع الوسائط الحكمية التكوينية والشواهد العقلية الاستدلالية بظهور صريح القدرة الإلهية وسطوع بواهر أنواع العظمة الربانية، فيضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا من مثقال حبة خردل من طاعات العبد وجناياته.

فسبحان الإله الحكيم الفاطر المجيد، المُبدئ المُعيد، المُوفي كل عبدٍ ما اكتسبه من سعاياته.

تعرَّف إلى قلوب العارفين بتعرُّف خاص، فعرفوه به بعد أن ظهر لهم في المصنوعات في أنوار تجليات أسمائه وصفاته.

انكشف جلاله وعظمته لأحداق البصائر، فامتلأت من أنوار عظمته وإشراقات ظهوره وبيناته.

ألفت الأرواح استنشاق نسيم التقريب بواسطة تلك الأنوار فلم تلتفت عنه رغبة في غيره من تلذذ عاجلة العبد وراحاته، وإن خطفه على ذلك أدنى خاطف من العوارض الكونية فهو سريع الأوبة والرجوع من دركاته، صاعدًا متشامًّا بروقَ الوِصال، طائرًا بهمَّته المحترقة إلى أوطانه وأعلى درجاته، لا يستقرّ في شوقه واضطرابه إلَّا في مقاعد الصدق تجال والعندية بين أطباق العزِّ وسُرادِقاته.

لولا الآجال المكتوبة والأقدار المحتومة لزهقت الأروح طربًا لما باشرها من سطوع أنوار الجلال وإشراقاته، حقيرة إذا نظرت إلى

حسنها وسفالة قدرها حين رامت عن ما بها أعلى المراقي، وأين الثريَّا من يَدِ المتلامس، نسبتها الماء والطين والصلصال والحَمَأ المسنون، تأكل الطعام فتظل حجلاته متعثرة في أذيال الطلب متقاعدة عن نهاياته، كما قيل:

أيها المنكح الثُّريَّا سُهيلًا   عَمْرك اللهُ كيفَ يجتمعانِ
هي شآمية إذا ما استهلَّتْ   وسُهيل إذا استهلَّ يماني

فإذا ولَّت مدبرة حياء من طمعها، نازلة إلى التخوم، طالبة قدرها ومحلها، عبثت بها أيدي الغرام، وتأجَّجت فيها نيران الوجد والهُيام، مما انصبغت به يوم الميثاق من لذيذ الخطاب والتلاق، فتقول: قدري التراب، وهمَّتي تعلو السحاب، فلا أغالط نفسي في خِسَّتي، ولا أتقاعد عن طلب مآربي، وبغيتي حقيرة إذا نظرت إلى نفسها، عزيزة إذا لاحظت جنَّات ربها، لا تيأس أن يقبلها إذا انحطت في السفول رتبتها، فإنَّها تقول:

بَرَقَت مِنْكَ في الفُؤَادِ بروقٌ   احتظى كلُّ عضو ببريق

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله نبي الرحمة، وكاشف الغمة، ومصباح الأمة، صلوات الله عليه وعلى آله صلاة دائمة لا انفصال لها في الآباد دارًّا مَدادها في الدنيا والآخرة حين تقوم الأشهاد.

وبعدُ:

فإنَّ بعض من وجب عليَّ حقُّه أبان في نطقه التماس قاعدة في معرفة الأمور القاطعة الموصلة، فاستخرت ربي تعالى في تعليق هذه

الكلمات إجابة لسؤاله، ورغبة في هدايته ونواله، وبالله المستعان، وعليه أتوكل وإليه أنيب.

اعلم وفَّقك الله تعالى: أن من أراد معرفة القواطع والوسائل فعليه بمعرفة المقاصد والمطالب؛ فإنَّها متعددة متنوعة، ولكلّ مقصد سبب ووسيلة، ودونه حائل وقاطع، فمن عرف المطالب وعرف وسائلها وقواطعها، وعرف مطلوبه من جملتها، استبان له بعون الله رشده، واستقام على الطريقة حده، وبالله المستعان.

*** مقاصد السعادة ومطالبها مراتب أربع**:

ـ **المطلب الأوَّل**: طلب صحة الإيمان والاستقامة في الأعمال.

ـ **المطلب الثَّاني**: طلب صحة ذوق الإيمان والنصح التام في دقائق الأعمال.

ـ **المطلب الثَّالث**: طلب المحبة الجاذبة للأرواح إلى موطن الأنس والأفراح.

ـ **المطلب الرَّابع**: الأمر الكلِّي الذي به يحصل المقصود، وفيه تتبدل الصفات والنعوت، ويرجى به أن يصير محبوبًا.

*** المرتبة الأُولى: صحة الإيمان والاستقامة في الأعمال.**

فمن الناس من لا تتجاوز همَّته هذا المقصد، وعليه يعمل حتى يفنى عمره وينفد.

فالوسيلة إلى صحة الإيمان بعد الاستقامة لله معرفة النبوة معرفة ترسخ دلالتها وهيئاتها في قلبه، إذا صح له ذلك؛ فجميع جمل

الإيمان من العقائد والمعارف والأعمال من لوازم النبوة، فمتى تثبت ثبت بطريق اللزوم، ومتى تزلزلت ـ والعياذ بالله ـ تزلزلت جميع ما بنى عليها من ذلك.

والوسيلة إلى الاستقامة في الأعمال: رياضة النفس على المحاسبة في الجوارح، والمراقبة في الخواطر، وإكراه النفس على التقاعد على النهوض إلى الأوامر، والصادق إن شاء الله إذا تدرَّب على هذه الرياضة سنة؛ نرجو أن يذهب عنه كلف التكليف، وتصير التكاليف محبوبة عنده، يتلذذ بعملها، ويتألم إذا فاته شيء منها، ويعينه على ذلك الاعتدال في الطعام والشراب والكلام، والمخالطة والمنام.

والقاطع عن تصحيح الإيمان والعقائد الفاسدة، والغفلة عن تصفح وجوه معالم الإسلام والسنَّة من الأصول والفروع، فيخلو القلب عنها، ومتى كان القلب خاليًا عن معرفة السُّنَّة؛ تطرقت إليه الشكوك والبدع.

ومن القواطع عن ذلك صحبة المنحرفين؛ فإنَّه يسري بواسطة امتزاج المعاشرين وكيفيتهم التي تكيفوا بها.

ومن القواطع عن ذلك: ركوب المخالفات، والتقاعد عن المفترضات؛ فإنَّ ذلك يسوِّد القلب ويضعف الإيمان وينقصه، كما أن بالطاعة يزيد الإيمان وينمو.

وأمَّا القواطع عن الاستقامة في الأعمال؛ فمن أسبابه الجهل بقواعد الشريعة وأحكام فرائضها وسننها ومندوبها أوَّلًا، فمن جهل أمرًا كيف يعلمه؟ وإذا علمه فآفته التواني والكسل عن تنفيذ حكم علمه

على نفسه، وذلك يحتاج إلى رياضة وصبر وسياسة مدة، حتَّى تتمرَّن الجوارح على الاستقامة، ويتمرَّن القلب على تبديل الأخلاق والصفات المنهي عنها بالصفات الممدوحة المأمور بها، فقد بان خاصية المقصد الأول.

المطلب[1] الثاني: طلب صحة ذوق الإيمان والنصح التام في دقائق الأعمال.

فمن وسائل ذوق الإيمان ما سبق من وسائل صحة الإيمان، فهو كالجسم؛ لما سيأتي من الوسائل، وما يأتي كالروح له، وقد سبق ذكر جسم هذه الوسائل، وأما روحها ـ بعد الاستعانة ـ فاستخراج نصوص المعارف من الكتاب والسنَّة، وهي آيات الصفات وأخبارها والإيمان بها.

فاستشعار وجود الرب تعالى، وعلوّه فيه على عرشه، ونظره واطلاعه على ظاهر العبد، وعلمه بما خفي من خواطره وهواجسه، ثم المراقبة لنظره وسمعه وعلمه بهُدوِّ الحركات والأدب في المساعي والتقلبات، بحيث لا ينحرف في ذلك المراقب، فيخرج إلى الكمود وسوء الخلق وإهمال حقوق المسلمين؛ من البشاشة، وردِّ السلام، وطيب اللقاء والكلام، ومتى عدل أمره فيما بينه وبين ربه، وبينه وبين عباده؛ كان ذلك هو المطلوب منه إن شاء الله تعالى.

---

(١) هكذا ورد في الأصل ومثله الآتي في ص٢٢١ و٢٢٢، ولكن السياق أن يقول: «المرتبة الثانية» لما ورد في ص٢١٦ بعد ذكره المطالب: «المرتبة الأولى».

ومن روح الوسائل لهذا الأمر التلاوة بالتدبر، وتعرُّف معاني الصفات بالكلام؛ مثل العظمة، والقدرة، والرحمة، واللطف؛ فإنَّ الكلام العظيم متضمِّن لآثار هذه الصفات، فإنَّه يتكلم سبحانه تارة بكلام عظيم وجبار وقهار، وتارة بكلام رحيم لطيف وقادر وعليم، وأمثال ذلك، متى استحلى في التلاوة هذه الصفات، كان بمشيئة الله تعالى وعونه وسيلة إلى ذوق الإيمان.

ومن روح الوسائل ضبط القلب في حضرة علم الله تعالى، فمن واظب على ذلك وأدمن علمه بحيث يصير ذلك أغلب أحواله في خلواته؛ كان ذلك تطهرًا لمحل الفيض، واستعدادًا، ووسيلة لأن ينصبغ قلبه بذوق الإيمان صبغة لازمة، فيجد نورها في أكله وشربه ومنامه وسائر أحواله.

وبعضهم يشير إلى أن من راقب الله تعالى في الخَطْرة والهمَّة صار صدِّيقًا، وأما الوسيلة إلى إتقان الأعمال والنصح فيها؛ فمن الوسائل ما سبق في قسم الاستقامة في الأعمال، وذلك جسم لما سيأتي من الأعمال، وأما روحها فهو ألّا يعامل بالكسل وقلة المبالاة، بل يعامله كما يعمل المحب للحبيب، يرجو بذلك قرة عينه به في لقائه في القيامة، ولا يعامل مولاه بالكسل والكره والكزازة، بل يعامله بالطبيعة والطلاقة، حتَّى تجد الأعضاء لذة الكد في الخدمة، فذلك من علامات النصح في الأعمال وإتقانها.

ومن ذلك أن يوقع الأعمال في أماكنها وأوقاتها على حسب مراد الرب تعالى منه، فيضع كل عمل في موضعه، فلا يقدِّم ما لا يفوت

على ما يفوت، ولا يقدِّم العمل المفضول على العمل الفاضل، ولا يراعي الجمعية مطلقًا، بل يراعي مراد الرب تعالى في العمل ورضاه به، وإن تفرقت جمعيته إذا كان العبد مطالبًا بذلك العمل المفرق، أمَّا إذا لم يطالب فرعايته الجمعية أفضل وأولى من رعاية غيرها.

مثاله: إذا رأى مظلومًا وأمكنه نصرته باليد أو اللسان بلا فتنة وشر يترتب على نصرته، وله جمعية وحال يعلم أنها تتفرق بنصرته، فليقدِّم النصرة على الجمعية؛ لأنها مراد الرب تعالى منه في ذلك الوقت وذلك الموطن، فكذا إذا رأى منكرًا وقد انتهكت المحارم وله جمعية يعلم تفرقها في إقامة دين الله؛ فليُقِم دين الله، ولا يلتفت إلى الجمعية؛ فإنَّ إقامة الدِّين هو مراد الرب تعالى في هذا الوقت وفي هذا الموطن، وأمثال ذلك، فكما أنه يتلذَّذ بالجمعية مع الله؛ ينبغي أن يتلذَّذ بالتفرق إذا جاء أمر الله؛ فإنَّ الجمعية لله، والتفرق لله، فيكون الفرح برضا الله لا بغير ذلك، ولا بد من استعانة الله تعالى في الجمع بين وجود القلب ومرضاة الرب، وذلك يسير على من يسَّره الله تعالى عليه، وبالله المستعان.

وأما القاطع عن ذوق الإيمان؛ فقد سبق في صحة الإيمان جسمه، وأما روحه فهو الغفلة عن الله تعالى، والالتهاء بالدنيا عن ذكره، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، والذكر الكثير: أن يُذكر فلا يُنسى، ويطاع فلا يُعصى، ويُشكَر فلا يُكفر، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾

[المنافقون: ٩]، والغفلة مفتاح كل قاطع وشر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] الآية.

وأمَّا القاطع عن إتقان الأعمال والنصح فيها؛ فقد ذكر جسمه في استقامة الأعمال، وأما روحه فهو العمل على الغيبة عن الله تعالى، وهو قدر زائد على مجرد الغفلة؛ فإنَّ الغفلة تقتضي الغيبة عن الشعور بوجوده وبوجود صفاته، وهذا يقتضي الغيبة عن نظره إليه في حال عمله، ومن غاب عن رؤية ربه له في عبادته؛ لم ينصح فيها، وربما داخله الكسل والفتور.

ومن ذلك إيقاع العمل على هوى النفس، وطلب الجمعية بلا قصد؛ لإيقاعها على الصواب ورضا الرب تعالى، وإهمال وضع كل شيء في محله المأمور به، وإيقاعه في أحايينه المندوب إليه فيه، وقد سبق شرح ضده، وذلك كاف إن شاء الله تعالى لمن أراد إتقان الأعمال، والله المعين.

المطلب الثالث[1]: المحبة الجاذبة للقلوب والأرواح.

فمن الوسائل إليها ما سبق شرحه، فذلك أصول ما سيأتي وقوالب له، وأما روحه فهو رعاية القلب عن الميل إلى سوى الله ميلًا يشغل السر، ويملأ الباطن، ويعلق الهم، وليجعل همه وهواه محبة مولاه، ومحبة أمره، ويتعوَّد ذلك حتَّى يستقر في عروقه ومفاصله، ويختلط بأمشاجه، ويستقر ذكر الله بالمحبة في سويداء سره،

(١) يُنظر ما سبق ص ٢١٨.

وهو حبة القلب، فمتى سكن حب الله تعالى وذكره في تلك الحبة، وسكن محبة طاعته وعبادته في جوارحه بحيث يألفها ويحبها ويعتادها كان محبًا.

ومن الوسائل: صحبة المحبين واستنشاق أنفاسهم، والاقتباس من هممهم وأوارهم، وسماع كلامهم؛ فإنَّه جنود تجذب القلوب من جميع الأشياء إلى محبة علّام الغيوب.

وأما القواطع عن ذلك؛ فالميل إلى الأغيار، وإيثار السِّوى في الهموم والأسرار، وتعاطي أمر مكروه كما سبق ذكره.

ومن القواطع مجالسة الأضداد ومن لا يريد مُرادك ولا يحب محبوبك، خصوصًا الحَسَدة البغاة، وأهل السلب والبغي والحسد على نعم الله؛ فإنَّ مجالستهم سموم قاتلة، وكذلك مجالسة أهل الغفلة البطّالين محبي الدنيا ومؤثريها، الذين أكثر كلامهم في ذكر الأموال والزوجات والتعلُّقات الدنيوية؛ فإنَّهم موتى القلوب، تموت الهمم بمجالستهم وسماع كلامهم، كما قيل:

وما ينفعُ الجَرباءَ قُرْبُ صحيحةٍ   منها، ولكنَّ الصحيحة تَجْرَبُ

المطلب الرَّابع[1]: طلب حصول الأمر الكلِّي الموجب لرضا الله تعالى ومحبته لعبده وتوليه له، وكفالته ووقايته وحماته، بحيث يكون لطفه بائنًا على العبد في جميع تصاريفه وشؤونه إذا شاء، وهذا هو الغاية القصوى والمطلب الأجل الأسنى.

---

(١) يُنظر ما سبق ص ٢١٨.

فمن الوسائل إلى ذلك استعمال ما سبق ذكره في الوسائل، واجتناب القواطع عنه مما سبق ذكره في القواطع، وذلك كالقالب والجسم لما سيأتي من الوسائل والقواطع.

وأما روح ذلك بعد الإيمان والذوق والمحبة، فهو الاستسلام لأحكامه نفسًا وعقلًا وقلبًا وروحًا، وهو في الشاهد مثل: من وجد ملكًا قادرًا غنيًا عالمًا، يحيط علمًا بجمل الأشياء وتفاصيلها، فيستهلك علم الواجد ومعرفته في علم الملك وحسن تدبيره، فيسلم إليه، ويتبرأ من جميع اختياراته، فإن صحَّ ذلك منه؛ فإنَّ ذلك يوجب فناء ذاته في شهوده له، ومحبته له، وفناء صفاته في تدبيره واختياره في شهوده لصفاته.

فهذا رجل معلَّق القلب بالله تعالى، مفوّض إليه، قد أخذت القدرة بأزمَّة قلبه وفؤاده، فكيف ما أدير فهو راض عن ربه، راقد النفس في حسن تدبيره، يستريح إليه، ويستعين به في ذلك. ويطلب المدد منه، فيكون بذلك مفوضًا إليه في تفويضه، غير مستبد في تفويضه ـ أيضًا ـ.

وهذا شأن الأولياء البدلاء، الذين تبدَّلت منهم النعوت بالنعوت، والأسماء بالأسماء، فغلبت عليهم النعوت الربانية، بمعنى أنه انقهر لها، وخضع وفني فيها، وصار بجملته متعلِّقًا بمولاه، ناظرًا إليه، قد أفنته محبته عن محبة الأشياء، وإفناؤه وهو بتدبيره عن تدبير الأشياء إلَّا فيما أمره به فهو مريد لذلك، مدبِّر له بإرادة مولاه وتدبيره له، فإنَّ ذلك إنما ينسب إلى الرب لا إلى العبد.

إذا علم ذلك؛ فالقواطع ضد ذلك من التدبير والاختيار والركون إلى الأسباب والحول والقوة.

وميزان هذا العبد العارف المحب في حالة وجدانه أن يحدث كل قوة منه معنى من المعاني الربوبية، بحيث لا يلهيه معنًى عن معنى، فتكون الروح مجذوبة إلى الحال الكلي، والقلب خاضع لملاحظة الصفات؛ من مراقبة العلم والسمع والدعاء والاستعانة والافتقار، في مقابلة القدرة والقوة والغنى، بحيث لا يلهيه مشهد الروح عن الانجذاب إلى الأمر الكلي عن مشهد القلب؛ من عبوديات الصفات.

ويكون العقل في تلك الحال متفقهًا في الأمر والنهي الخاص به، يلحظ الأمر ليحكم على القلب والجسم بالإيمان، بحيث لا يلهيه المشهدان الأولان عن ذلك.

وتكون النفس خاضعة منقهرة لسلطان العظمة والجبروت، ساكتة عن حديثها وأمانيها، راضية بمقدور ربها، مستسلمة لأحكامه، مقبوضة محصورة في القبضة، مأسورة في القدر مع استصحاب تلك المشاهد.

ويكون الحسّ قائمًا بالوظائف التي شاهدها العقل من الأمر والنهي، والفرائض والفضائل فعلًا وقالًا، فالمشهود واحد، لكن لكل جزء من العبد حظ من العبودية.

فيكون حظ الروح: المحبة والاشتياق لما لاح من الإكرام السرمدي الباقي على الأزل والآباد، وذلك لا يشهده إلَّا الروح.

ويكون حظ القلب: العبودية في مقابلة الصفات كما سبق من التضرع والدعاء، والحياء والمراقبة. فهذا حظ القلب، لا يكون للروح هذا النصيب؛ لأن الروح بسيطة تشهد أمرًا كلِّيًا، والقلب مركب يشهد المعاني في الصفات، ويقوم بأحكام عبودياتها.

ويكون حظ العقل في هذا المشهد: مشاهدة أمر المشهود ونهيه، وانتظار وروده بحسب الأزمان والأوقات، فذلك حظ العقل، وهو يورد هذا المعنى على القلب؛ لأن ذلك هو في محل النظر، بخلاف المشهد القلبي؛ فإنَّه في محل الفكر، والمشهد القلبي بخلاف المشهد الروحي؛ فإنَّه وجدان محض وانجذاب محض.

ويكون حظ النفس في هذا المشهد: الخضوع والانقهار للعظمة وسلطان الجبروت والرضا والاستسلام للأحكام، فتخمد نارها، ويخبو شررها، وذلك هو حظها في الشهود.

وإنما يورد ذلك على النفس القلب؛ فإنَّه يشهد الصفات، ويورد حكمها على النفس، ويتنوع جميع ذلك من البصيرة الباطنة المشاهدة لجميع ذلك، ويكون حظ القلب العمل لا غير، والكل يشتركون في كل مشهد من المشاهد، لكن لكلّ صفة خصوصية لا بد من غيرها، وفي الجمع من هذه المشاهد تتبدل صفات العبد، ويتعلَّق كل وصف منه بالحق بحسب ما يليق به.

وبيان ذلك: **أن النفس خصوصيتها**: الفرعنة والاقتدار والمنازعة للأقدار، والاستسلام والرضا بالأحكام، فيتبدل ذلك منها بأضداده من الصفات الحميدة، **والعقل خصوصيته**: التعقل والنظر في المصالح

الدنيوية العاجلة، فيعبد ربه بالتعقل لأمره ونهيه، والنظر في مصالح آخرته، **وخصوصية القلب**: العمل بالفكرة الحظوظية، وتأله المخلوقات؛ من الخوف منهم، والرجاء لهم، والطمع فيهم، فتتبدل هذه الصفات بعبودية الله تعالى؛ من العكوف عليه، والاستعانة به، والالتجاء إليه، والخوف منه، والرجاء له، والطمع فيما عنده في مقابلة مشاهده.

والروح كلية؛ خصوصيتها تعشق الأشياء الجميلة الحظوظية، وانجذابها إليها، فتتبدل ذلك منها بانجذابها إلى محبة العلي الأعلى، وعكوفها عليه، **ويبقى الجسم خصوصيته**: السعايات في الحقوق اللائقة، والحظوظ الآجلة بالقال والفعال، والله الموفق للصواب.

وطوبى لمن وفقه الله تعالى للجمع بين هذه المشاهد في آن واحد، بحيث لا يلهيه شيء عن شيء، وإن كان الأغلب من الواجدين قد يغيب غالبًا بمشهد عن مشهد، لكن هذا الكمال الكلِّي إن شاء الله تعالى.

وقد أنشدوا في هذا المعنى:

يَسْقِي وَيَشْرَبُ لا تُلْهِيهِ سُكْرَتُهُ   عَنِ النَّدِيمِ وَلَا يَلْهُو عَنِ الكَاسِ

فنسأل الله الكريم أن يوفِّقنا للتلبُّس بما وصفناه، ويقبله منا بكرمه، ولا يكلنا إلى ما علمناه وعرفناه، **فجملة الوسائل بعد الاستعانة في الإيمان**: معرفة النبوة وشواهدها، واستخراج نصوص المعارف من الكتاب والسنَّة، والإيمان بها، ورياضة النفس على المحاسبة في الجوارح، والمراقبة في الخواطر، وإكراه النفس عند

التقاعد على النهوض إلى الأوامر، وكفِّها عند المسارعة إلى المناهي.

والوسائل في الذوق والإيقان استشعار وجود الرب تعالى وعلوِّه على عرشه، ونظره واطلاعه على ظاهر العبد وباطنه، وعلمه بما خفي من خواطره وهواجسه، ثم المراقبة لنظره وسمعه وعلمه بهدوء الحركات، والأدب في المساعي والتقلبات، بشرط عدم الانحراف في الحركات والسكنات، ثم التلاوة بالتدبر وتعرف معاني الصفات من التلاوة، ثم ضبط الخواطر في حضرة علم الله تعالى ونظره في سويداء سره، ثم الاعتدال في الأكل والمنام، والمخالطة والكلام، ولا يعامل ربه بالكسل وقلة المبالاة، بل يعامله كما يعامل الحبيب حبيبه، وإصابة الصواب في الأعمال، وإيقاعها في أوقاتها وأماكنها، وعلى الوجه المشروع الذي أريد منها فيها، ولا يقدِّم العمل المفضول على الفاضل، ويعمل على رضا الرب تعالى، لا على مجرد الجمعية، فيرضي ربه وإن تفرَّقت جمعيته.

والوسائل في مقام المحبة رعاية القلب من الميل إلى سوى الله، وعن الشرك في توحيد الله، وليجعل همّه وهواه في محبة مولاه والقيام بأمره، والتعلق بأنفاس المحبين وصحبتهم، والوسائل في الكمال الكلي الاستسلام لله تعالى؛ بترك التدبير والاختيار، إلَّا التدبير الشرعي فيما أمر به، أو تدبير ما نهى عنه، ذلك بالله لا بنفسه.

وجملة القواطع أضداد هذه الصفات، وفي باب الإيمان منها العقائد الفاسدة؛ فالجهل وإهمال تصفح العلم وتعلمه، وصحبة منحرفي العقائد، والتواني والكسل عن أداء المفروضات، ومجانبة

المنهيات.

والقواطع في باب الذوق والإيقان؛ فالغفلة عن الله تعالى، والالتهاء بالدنيا عن ذكره، وعدم المراقبة في الخواطر لنظره، والمعاملة على الغيبة عن الله وعن نظره، والعمل على هوى النفس من غير أن يقصد إيقاعه على الصواب الذي يرضاه الله تعالى، بل يعمله كيف اتفق، وكيف أحب، مثل أن يقدم المفضول على الفاضل.

والانحراف في الأكل والمنام والمخالطة والكلام عن حدّ الاعتدال إلى طريق الإفراط والتفريط.

والقواطع في باب المحبة؛ فالميل وإيثار السِّوى، ومعاشرة الأضداد، والاختلاط بهم، ومجالسة أهل الغفلة وموتى القلوب، والقواطع في النهايات التمني والتدبير والاختيار، أمَّا الأوامر فلا كلام فيها، وأما المختارات قادحة، وإن كانت براء.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.



(٣٢)

قاعدة في معرفة النقص الداخل على الكمال من العارفين، ومعرفة الكمال في حق مَن قام به من الواصلين، أهل البقاء بعد الفناء، والصَّحو بعد السُّكر من مقامات المقرَّبين

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله حمدًا كثيرًا كما يليق به وبعظمته وكبريائه وجلاله وإعلائه، وصلواته على سيِّدنا محمَّد أشرف أنبيائه، وعلى آله وصحبه ورفقائه.

وبعد:

فإنا نجِدُ في بعض من انصبغ باطنه بصبغة المحبة لله تعالى، والانجذاب إليه، غفلة عن أمره ونهيه، وركونًا إلى غيره، وتعاطيه الشيء بما يكرهه، من الحركات أو الكلام، مع بقاء تلك الصبغة التي في باطنه من محبة الله تعالى.

وكذلك نجد في بعض من تلبَّس بالتقوى ظاهرًا وباطنًا، وقام بحقوق الله تعالى، وفتَّش عن دقائق أوامره ونواهيه، واكتسى كسوة الخوف والخشية والإشفاق، جُمودًا عن صبغة المحبة، ويُبسًا في أخلاقه، وجفاء في طباعه، بحيث إذا ذكرت عنده المحبة وشؤونها كان بعيدًا عنها.

وكذلك قد نجد في بعض من انصبغ بصبغة الخوف والمحبة معًا صولة في بعض الأوقات، وتدبيرًا واختيارًا واستبدادًا ورعونة وكِبْرًا وتيهًا، وتعلقًا بغير الله من الخوف والرجاء والطمع في غيره، وأمثال ذلك.

وكذلك نجد في بعض من كَمل فيه ذلك، وأكثره في بعض الأوقات استيلاء خواطر السوء على قلبه، وعدم تصفيته وطهارته عن الأكدار؛ مِن تسَخُّط الأقدار وإرادة الأشياء المحرَّمة وشهوتها، لم يتخلَّص قلبه بالأصالة عن شهوتها وإرادتها في بعض الأوقات.

وكذلك نجد في بعض من كمُل فيه جميع ذلك برودة عن معاملة الله تعالى بالأركان، وعدم التلذذ بالأعمال المشروعة؛ استغناء بما وجده بقلبه من الأحوال، أو لضيق القلب عنها، ففتشنا عن أصول هذه العلل، فوجدنا أصولها من ملاحظة شيء، والغيبة عن شيء؛ إما لجهل أو لضيق محل.

بيان ذلك:

اعلم أن المعبود سبحانه وتعالى واحد، وإله فرد، له صفات متعددة متنوعة، وكل واحد ممن يعبده صورة واحدة، لكن ركب فيه معان مختلفة، وصفات متنوعة، ولا تكمل عبادة من يعبده حتَّى يعبده بجميع أسمائه وصفاته وعظمة ذاته بحسب قدرته واستطاعته واتساعه.

ولكلٍّ من صفات المعبود سبحانه وتعالى في التأله له بها والقيام بأحكامها من العبودية: محلٌ في وجود العبد وصفاته، يقع أثر ذلك

الوصف من المعبود سبحانه في المحل الذي فيه وصف ذلك العبد، بحيث ينفعل ذلك المحل من العبد، ويتأثر بأثر ما يقابله من صفات الرب تعالى، فمتى قام العبد بأحكام الأسماء والصفات، وعبد الله تعالى بها، بحيث يتأثّر بعبادته محل كل وصف من صفاته، ونعت من نعوته، فيتغير عن هيئة الوضعية المعهودة بأثر ما باشره من صفات ربه كملت عبودية العبد لربه بحسبه؛ إذ هم متفاوتون ـ أيضًا ـ في الكمال، وبالله المستعان.

وتفصيل هذا المجمل هو: أن العبد مأمور بمحبة الله تعالى؛ **إما فرضًا**: وهي المحبة الظاهرة، **أو ندبًا**: وهي المحبة الخاصة، ومحلها الروح الكلية من العبد، ومستقر المحبة الخاصة في الأمر الجامع الكلي لجميع الأسماء والصفات، فيقع تأثير الأمر الكلي في روح العبد الكلية، وتنفعل به قواه جميعها، بحسب ذلك المؤثر، لا بغيره من مؤثرات الصفات.

وكذلك العبد مأمور مع تلك المحبة بالتعلُّق بالله والاستناد إليه، والتفويض لحكمه، والرغبة في ثوابه، والرهبة من عقابه، والحياء من نظره وعلمه وسمعه وبصره في الظواهر والخواطر، ومحل العبادة بهذه المعاني المتعلقة بالصفات: القلب من العبد، فمتى عبد القلب ربه بهذه المعبودات انفعل بحسب هذه المعاني المؤثرة، ومنها تنفعل جميع القوى كما سبق ذكره.

وكذلك العبد مأمور مع تلك المحبة والعبودية التي تقدَّم ذكرهما بالتأمل والنظر والفكر في أوامر الله تعالى ونواهيه،

وتفاصيل أجزائها وما يخصُّه منها، وما يخصُّ غيره إن ابتلي بالقضاء أو الفُتيا مثلًا.

وكذلك هو مأمور ـ أيضًا ـ مع تلك المعاني المتقدمة بتسريح النظر والاعتبار في المخلوقات والآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتَّى يتبين لهم أنه الحق، ومحل جميع ذلك في العقل، وإن كان العمل للقلب ـ أيضًا ـ، إلَّا أن آلة القلب من مجموع الوجود الإنساني لهذه الخصائص التي أمر العبد بها هو العقل، فمتى عبد العقل ربه بهذه المأمورات انفعل بها بحسب هذه المعاني المؤثرة، ودخل في العبودية.

وكذلك العبد مأمور بعبادة الله تعالى مع ما سبق ذكره بترك الاختيار والتدبير والخضوع والانقهار لعظمة الملك القهار، والطمأنينة والرضا بالأقدار إذا وافقت الأمر ولم تخالفه.

والذي يعبد الله تعالى بهذه هو القلب، لكن يتأثر بهذه العبوديات النفس؛ لأن من طبيعتها الاختيار والتدبير، والكبر والجبروت، فمتى عبد العبد ربه بهذه المعاني تأثر بالعبادة محل النفس، وهو محل الأخلاق الذميمة، وإن كانت النفس ـ أيضًا ـ تتأثر بجميع ما سبق شرحه من المعاني الروحانية والقلبية، لكن هذه الصفات بالنفس أليق؛ لأنها أخس الصفات وأرذلها.

وكذلك العبد مأمور بعبادة ربه بقالبه وجسمه؛ من الصلاة والحج والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقائم بهذه العبوديات مجموع العبد، لكن معظم أحوالها هيئات فعلية محسوسة ظاهرة،

يظهر أثرها في الجوارح، والحس أغلب من أثرها في الباطن؛ لأنها قد تتعدَّى إلى غيرها، وقد ينتشر حكمها في الآفاق؛ لظهورها، بخلاف الأعمال القلبية والروحية الباطنة؛ فإنَّها مقصورة على صاحبها.

فصل

إذا عُلم ذلك يتبيَّن النقص الداخل على المحبِّين والخائفين والعابدين وأنواع المتوجِّهين في عبادة ربِّ العالمين من أيِّ الجهات هو، وما ذاك إلَّا من إقبالهم على شيء يعبدون ربهم به، وغفلتهم عن شيء آخر يهملون به أمر ربهم فيعصونه، وهم في إهمالهم لأمر الله في ذلك المعنى الذي فاتهم قد لا يغيب عنهم حكم ما هُم متلبِّسون به من الأعمال التي قاموا بها، فلا يغيب حكمها عنهم في حالة إهمالهم لغيرها كما سبق ذكره من المحب المنحرف في أفعاله، ففيهم مَن رُزق حبًّا يعتني به ولا يُعنى بغيره من أمر الله كاعتنائه به، فيقوم بحكم الله في حبه، ويضيِّع أحكام ربه في غيره.

ومنهم مَن رُزق خوفًا وطاعة؛ فهو يعتني بذلك ولا يعتني بأمر الحب كذلك، فيتوارى عنه حكم ما ضيَّعه من مجموع الأمر الكلي.

ومنهم مَن رُزق مجموع ذلك، ولم يؤدب نفسه، فنفسه قائمة بالاختيار والتدبير، ولها كبر وتيه وصولة ونخوة، فهو معتن بعبادة ربه فيما قام به، مضيع لأحكامه فيما أمر به من مجموع الأمر الكلي الذي لا يكون الكمال إلَّا به.

ومنهم من رُزق ذلك وهو مقصّر في عبادة الجوارح والأركان، وإقامة الدِّين وإظهاره؛ لاعتنائه بأمور باطنة، وإعراضه عن كمال إقامة ما أُمر به.

فمن وفَّقه الله تعالى لمحاولة الأمر الكلي، وإن لم يطق جمع جميع أطرافه، لكن بحسب جهده ومقدرته، كان قاصدًا لكمال عبادة ربه، قائمًا بمحاولة جميع ما أمر به، ونرجو أن يجزيه الله تعالى على قدر نيته، وإن قصرت عنه أركانه وجِبلَّته، هذا إذا بذل مجهوده، واستفرغه في مرضاة ربه، بعبادته له بجميع ما فهم من الشريعة المحمدية، من أحكام عبادة الله تعالى بالظاهر والباطن، فلا يقنع من روحه إلَّا بقسط تام من محبة الله تعالى الخاصة، الذاتية المباشرة لحبة قلبه وسويدائه، ولا يقنع من قلبه إلَّا بالقيام بما يمكنه من عبوديات الصفات؛ من الحياء والمهابة والأدب، ومحو خواطر السوء وعزائمه، والخشية والإشفاق، والتعلُّق بالله، والتوكل عليه، والاستعانة به ومراقبة نظره وعلمه ضمن محبته الخاصة، فإنَّه متى انفك حكم تلك المحبة، خرج صاحبها إلى ما شرح أولًا من الرعونات المذكورة، وتعاطي شيء مما يكرهه الله تعالى بالقال أو الفعال.

وكذلك لا يقنع من عقله في حال محبته وعبادته القلبية إلَّا بتأمل أمر الله تعالى الخاص به في ذلك الوقت على نفسه وعلى غيره، مبالغًا في التأمل بما وجب عليه في وقته وفيما نهي عنه في وقته، وفيما ندب إليه في وقته، وذلك في حال محبته وعبادته القلبية؛ فإنَّه متى انفكت المحبة والعبادة القلبية عن التأمل لمراد الله تعالى، من العبد في وقته

ذلك؛ دخل عليه داخل من جهة تضييع الأمر الخاص، في الوقت الخاص، فينقص صاحبه بذلك، أو يعصي.

وكذلك لا يَقْنع من نفسه مع محبته لله الخاصة وعباداته القلبية وتأمُّله لأحكام شريعة ربه بتدبير نفسه واختيارها وصولتها وتيهها بما رزقته من الأحوال والأعمال والعلوم، بل يكون مع جميع ذلك خاضعًا لربه، مفوضًا إليه، غير مستبد ولا متخير، وذلك في حال محبته الخاصة وأعماله القلبية وعلومه التأمُّلية، فإنَّه متى انفك جميع ذلك عن عبوديات النفس، تحركت بجميع مقتضى طبيعتها وجِبلَّتها، فكدَّرت الوقت، وشَوَّشَتْ السر، وأفسدت الأحوال والأعمال؛ فإنَّ الكِبْر والعُجْب محبِطٌ، والتدبير والاختيار للحظوظ مؤخر مُبْعِد.

وكذلك لا يقنع من وجود ذاته في محبته الخاصة وأعماله القلبية، وعلومه النافذة، وطمأنينة نفسه إلى مراد ربه وخضوعها له بالانقهار والعبودية والتذلل أن يكون خاليًا عن الحركة بالقالب والجوارح في طاعة الله وعبادته تحصيلًا لمجموع الأمر الكلي في مجموع الوجود؛ فإنَّ الحركة في طاعة الله بركة، والكسل في ذلك اعتمادًا على الأمور الباطنة دون الظاهرة مُفْشِلٌ مُعطِّل بمصالح البدن ونوره في الدنيا، مؤخِّر عن الثواب الخاص به في الآخرة، فحينئذ تبين بذلك أن علامة الكامل في وصوله أن يقوم بوظائف العبادات ببدنه وقالبه، ويجد اللذة في الكد والاجتهاد، ويزول عنه كلف التكاليف، ويجد الراحة والنشاط فيها بعد الكسل عن ذلك والتقاعد عنه، فيتبدل ذلك الوصف المذموم منه بهذا.

ومع ذلك فتسكن الخشية والإشفاق، والتسليم للأحكام، والرضا عن المنازعة للأقدار، والخضوع والذل والانكسار لعظمة الملك القهار في محل نفسه؛ لأنها محل الأمن والدَّعة، والمنازعة والتحير والاستبداد، فتتبدَّل تلك الصفات المذمومة بهذه الصفات المحمودة.

وأن يسكن التفتيش عن الأوامر والنواهي ومراعاتها في أوقاتها وحدودها المشروعة في محل عقله؛ لأنه في محل التفتيش عن المصالح الدنيوية والنظر في المصالح والمعاطب المعيشية، فينظر في هذا الأمر الشرعي كما ينظر في الأمر الدنيوي.

وأن يسكن التعلُّق بالله، والاستعانة به، والتوكل عليه، والتفويض لأمره، والحياء من نظره وسمعه، وعلمه في حركاته وأقواله، وهمومه وإراداته، فتخمد الخواطر إجلالًا لعظمته في محل قلبه؛ لأنه محل التعلق والطمع والرجاء، والرغبة والرهبة لغير الله تعالى من الأمور العاجلة الدنيوية، فتتبدل تلك الصفات منه بهذه الصفات.

وأن يسكن الحب والانجذاب بصبغة المحبة في محلِّ روحه؛ لأنها محل محبة غير الله، والانجذاب إليه مما يجب ويستحسن من الأمور الفانية والصور الفانية، فيتبدل ذلك منها بهذه الصفات المحمودة.

فمن اجتمعت فيه هذه الصفات واستحكمت فيه، وانصبغ ظاهره وباطنه بها، ورزق القيام بأحكام جميع ذلك فهو الكامل في وصوله، وكمال كلٍّ بحسبه، وبالله المستعان.

فإن قلت: هذا أمر كبير خطير، يستوعب الحس والنفس والعقل، والقلب والروح، فلا طاقة لي بجملته؛ فإن أمكن أن يكون لهذا مدخل وباب يدخل الإنسان منه ويرجو أن يترقى بدخوله إلى هذه المقامات؟ **فذاك الجواب**.

نعم؛ لكلٍّ مَدخلٌ يدخل الإنسان، فيدخل من الأمر الجزئي إلى الأمر الكلي، كفن الفقه مثلًا؛ ألا ترى أنهم يدخلون إليه من بعض المختصرات، فينفذون فيه، **فذاك هذا**.

وهنا مدخل قريب يسهل الدخول منه إن شاء الله تعالى؛ وهو أن تستعمل في شؤونك من التسبُّب أو التفقُّه، أو غير ذلك بما ابتليت به، مراقبة نظر الله تعالى إليك لا غير، فيكون ذلك هِجِّير قلبك على الدوام.

فإن وفَّقك الله تعالى لذلك، وثَبَتَّ فيه، يرجى بمشيئة الله تعالى أن تغمر هذه الصفة قلبك، فإذا استولت على قلبك وعَمَرته، وحالت بينه وبين الوساوس، وحصل لك الأنس بنظر الله تعالى واطلاعه، دخلتَ بعون الله تعالى إلى جميع ذلك؛ فإنَّ الصفة تجذب بالضرورة المعهودة إلى الموصوف.

فإذا انغمر قلبك بحكم هذه الصفة؛ رجوت أن تنصبغ روحك بالمحبة الخاصة للأمر الكُلّي الجامع بجميع الصفات، فإنَّ ذلك موهبة تتجلّى، تحصل للروح، ويحصل الالتجاء والتعلق للقلب بواسطة البصر، فينغمر القلب بذلك حيث انغمرت الروح، وتنغمر النفس ـ أيضًا ـ بالتذلل والخضوع والتفويض وترك التدبير لمن راقبت بصره.

والهيبة الحاصلة من المراقبة تحمل العبد على جولان الفكر في أمر المُراقب ونواهيه، وعلى حركة الجسم بعبادته والتلذذ بها، فعليك بلزوم هذا المدخل تَحْظَ بجميع ذلك إن شاء الله تعالى.

فإن قلت: الإنسان حقيقة واحدة، مركَّب من ظاهره وقالبه، ومن روحه القائمة بظاهره، وأنتم تذكرون القلب والعقل والنفس، فالإنسان هو الذي يفكر بعقله، وينظر بقلبه، ويتحرك بنفسه، والكل إنسان واحد، بروح واحد، فكيف يمكن تخليص هذه المعاني من الشيء وتميز ذلك؟

الجواب: نعم؛ الإنسان حقيقة واحدة، له ظاهر وباطن، فظاهره الجسم، وباطنه ـ أيضًا ـ شيء واحد، لكن له صفات باعتبارها تسمَّى تلك الحقيقة الباطنة باسم القلب أو العقل أو النفس أو الروح، والمتحرك في هذه الصفات المختلفة شيء واحد وهو الإنسان الباطن.

فباعتبار: المحبة والميل وهو معنى روحاني يقال: تحرك بروحه، **وباعتبار**: خوفه ورجائه واعتماده وعزمه وأمثال ذلك، وهي صفات عملية يمكن أن يراد بها الآخرة والدنيا، يقال: تحرك بقلبه، **وباعتبار**: تعقُّله للأشياء وتمييزه بين حقها وباطلها، ومصلحها ومفسدها يقال: تحرك بعقله ورأيه، **وباعتبار**: شهوته الحيوانية؛ من شهوة الأكل واللبس والنكاح، والغضب والعلو والفخر والخُيلاء، يقال: تحرك بنفسه، وليس ذلك مذمومًا مطلقًا؛ فإنَّه مباح فيما أحل له من الأكل والنكاح والعلو، والفخر والخُيلاء في حرب الكفار، فإنه وضعه في محله، وهو مذموم في غير ذلك إذا وضعه في غير محله.

والمحرِّك في جميع هذه الصفات واحد، وهي الحقيقة الإنسانية، إلَّا أنها تختلف مظاهرها وصفاتها، فتنسب تلك الحقيقة الواحدة إلى الوصف الذي ظهرت تلك الحقيقة فيه.

مثال لذلك: ألا ترى أن حبة العنب إذا كانت قبل البلوغ تُسمَّى: حصرمة، وهي تلك الحبة بشكلها وجلدها وماهيتها، فنسبت إلى وصف الحموضة التي غلبت على صورتها، فإذا بلغت وصارت حلوة تسمَّى تلك الحبة بعينها لم يتغير من كميتها شيء، بل تغيرت كيفيتها فتسمَّى: عنبة، فإذا أخذت من دُرْدي الخَلّ تلك الحبة بعينها وكميتها فإنك تسمِّيها باسم آخر، فتقول: دردية.

فاختلفت أسماء الحبة الواحدة باختلاف كيفياتها، فكذلك تختلف أسماء الحقيقة الإنسانية إذا تحركت باختلاف صفاتها وكيفياتها، وهي حقيقة واحدة، والله أعلم.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٣٣)

قاعدة في نقي الخواطر

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي فتح طريق الوصول لمن أراد إسعاده وتقريبه، واختصر المقامات له في أقرب الأعمال لمن كمل به تهذيبه، وكسا باطنه من لوائح أشعة الجلال والجمال الطالعة من أفق الغيوب لمن أراد به تطهير ذنوبه وتذويبه، فأوصله بلا تعب له ولا عناء، وأزال بذلك تشعيبه وتعذيبه.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، منزل الكتاب، متضمِّنًا ترغيبه وترهيبه، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، المبعوث بواضح الدلالات وباهر المعجزات، السَّادِّ لشبهة أهل الريبة، صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة، ما دارت الأفلاك بالحركات الغريبة، وما سبَّحتْ الأملاك بصنوف اللغات العجيبة.

وبعد:

أيُّها الطَّالب للوصول إلى حضرة المحبَّة، والفوز بمراتب القربة، لا تتعب ولا تتفرق في جزئيات الطريق وشعبها؛ فإنَّها كثيرة الشعب والأعمال، واسعة الأرجاء، متنوعة السبل والألجاء، أجمع لك أمرك

في أصول، فعليها فاعتمد، وإياها فحقق، يرجَ لك النفوذ إلى حضرات الفوز والسعود إن شاء الله تعالى.

* **أوَّلها: صحَّة العقيدة**، وتحقيق مسألة العُلوّ والفوقية، وما يتبعها من معرفة الموصوف بها جل وعلا، بإنزال الكتاب، وبعث الرَّسول ﷺ معرفة مجملة، ثم السير في تفاصيلها قدرًا يقوم به حججها وشواهدها في العقول، يرتفع به الريب، ويحصل به كمال اليقين بالغيب، ومعرفة النبوَّة وشواهدها من الخوارق والمعجزات التي دلَّت عليها كتب السِّيَر والمسندات، ومعرفة أصول السنن بالمرور عليها، وتدبر الكتاب العزيز كأنك تسمعه من متكلِّمه، فتفهم عنه مراده منك فيما أنزله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، واجهد على المداومة والمواظبة على تحصيل معرفة مراد الرب منك في الكتاب والسنة، **فتستفيد بذلك أمرين:**

أحدهما: معرفة الأمر الإلهي.

والثَّاني: معرفة مراده، فتعرف ما يرضاه منك وما يسخطه من فعلك، وما أباحه لك وجعلك فيه مخيرًا.

فمتى وصل ذلك إلى قلبك سَرَتْ فيه كيفية عجيبة، فيُسر بما يرضاه، وينقبض لما يسخطه ويأباه، ألا ترى في الشاهد: مملوك الملك يعرف كيفية الملك فيما يحبه ويبغضه، فهو أبدًا يقصد إلى العمل الذي يحبه، ويجتنب ما يبغضه؛ لما وصل إلى قلبه من كيفيته وكيفية مزاجه، فكذلك العبد العارف بربه؛ يعرف صفات ربه، لأنه جل عن الكيفية، فيعرف ما يحبه من أمره، وما يكرهه من فعل عبده،

فيقف القلب عند مراضيه فلا يتعداه، ومتى تَعَدَّ شيئًا من ذلك تألَّم باطنه، وأظلمَ سِرُّه، وانطبقت الدنيا عليه قبضًا، كما يجري لمن حاضر الملك وجالسه عندما يبدو منه ما يكرهه المَلِك.

فهذا الأصل من ضرورة السالك، لا يتم السير إلَّا به، وهو الطريق الذي يسمُّونه: طريق التعرف المؤدي إلى المعرفة بالمعروف وبمراده منك، فهنا شيئان؛ معرفة به، ومعرفة بمراده.

* **الأصل الثَّاني**: الإرادة، لا يتم السلوك إلَّا بها، ويفتقر إليها أولًا وآخرًا، فبذلك يمكن الوصول إلى الحقائق الباطنة الروحية، وهي بمثابة الريح للمركب، متى وقفت الريح وقف المركب، وإنما تسير المراكب على قدْر ما يطيب لها الريح.

* **الأصل الثَّالث**: وهو القطب، وعليه المدار، فلا تغفل عنه، ولا تلتفت يمينًا ولا شمالًا، فهو أصل.

إن غفلت عنه أو أهملته تعبت كثيرًا، أو طالت عليك الشقة، وإن حفظته يُرج لك في حفظه اختصار الطريق، فاعكُفْ عليه، واجمع همَّك على حسن الاحتيال له مستعينًا بالله تعالى، مفتقرًا إليه في تسهيل هذا الأصل؛ فإنَّه طريقك إلى مولاك بعد تحقيق ما سبق من الأصول، إن كنت طالبًا حضرة القدس والفوز بما فاز به المحبون والواصلون والمكافحون لصريح الحق.

وهو أن تجعل معاملة لك بينك وبين مولاك؛ ألَّا تعصيه بحقيقتك الباطنة أبدًا، فإنك عرفت في الأصل الأول: ما يحبه من باطنك وما يكرهه، فتجعل عملك بعد الفرائض والنوادب: رعاية باطنك

ألا يختلج فيه ما يكرهه الله تعالى، فتعمل على طهارته من المكاره أبدًا، وكلما انفلت منك ضَبَطْتَه وأقمته على حكم الله وما يرضاه من العدل، فتراه يستعصي عليك أحيانًا، ويغلظ ويجفو أحيانًا، وينقاد ويرق أحيانًا؛ فإنَّه سريع التقلب، ولذلك سمِّي القلب قلبًا لكثرة تقلُّبه، وكان ﷺ يدعو: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**».

فلا تزال تعالجه كذلك مدة حتَّى تملكه، فإذا ملكته ضبطته على العدل بين يدي الله عزَّ وجلّ، وتجعل ذلك هو طريقك ومعاملتك ورابطتك مع الله عزَّ وجلّ، لا تعرِّج عن ذلك إلى غيره، فإن كان قد قسم لك نفوذًا فإنَّه يكون غالبًا على هذه المعاملة.

فصل

في ضبط أصناف تقليبات القلب لتضبط بذلك شؤون حقيقتك الباطنة، فتقوى بذلك إن شاء الله تعالى على رعايته وإصلاحه، عساك تنفذ إلى الحقائق المطلوبة إن شاء الله تعالى.

وينبوع ذلك أصناف، بحسب تنوعه يكون تسفل العبد في الدركات وترقيه إلى أعلى المقامات والدرجات، فإنما أنت عند الله عزَّ وجلّ على قدر ما قام بقلبك في الأمر الظاهر من الطاعة والمعصية.

واعلم أن بهذا التقليب يكون نزول العبد إلى الهاوية، وصعوده إلى الجنات العالية، وها نحن نضبط ما يفتحه الله عزَّ وجلّ من ذلك.

*** الصنف الأوَّل من ذلك: أَنزلُ الأصناف وأقربها من الدركات السُّفلى من النار:**

يكون في حال صلابة النفس وقوتها وانحرافها عن الفطرة إلى طبيعة النفس الأمارة بالسوء، تكون آثار النفس في القلب الشهوات الكثيفة المحرمة من خواطر الزنا والفواحش وتمني الأمور التي يحصل بها ذلك، ويقابلها من أخلاق النفس البغض الشديد والحقد، والعزم على المقاطعة الفاحشة وإرادة هلاك الخصم والكبر، والتيه والعجب، ومهلكات الأخلاق؛ فإنَّ للنفس في القلب غالبًا أثرين: أثرٌ شهواني وأثر غضبي، وهذه المرتبة من مراتب الدرك الأسفل من النار، وفيه يكون الشكوك في العقائد، وبغض الأولياء إذا خالفوا مراد النفس، وذلك للانحراف عن محجة الحق إلى محض الباطل والإفك، وهذه المرتبة أكثف المراتب وأبعدها عن الله تعالى.

*** الصنف الثَّاني من تقلُّبات القلوب: إذا لطفت النفس قليلًا عن تلك المرتبة الأولى كان أثرها في القلوب الأماني الشهوانية المكروهة أو المباحة؛ مثل محبة المال والجاه والرفعة والسَّعة وأماني الأكل والشرب وراحات النفس:**

فحيث يكون حديث النفس وأثرها في القلب ذلك، وفيه تكون الوساوس الباطنية أيضًا، ويقابل ذلك من حكم القوة الغضبية ذكر عيوب الناس ونقائصهم، ورؤية تخلُّفهم عن مرتبته، وربما كان فيه المداهنة والرياء وما يناسب ذلك من الأخلاق السيئة، فإنَّها مراتب مرتبة أكثف من مرتبة، وهذه المرتبة من مراتب الطبقة العليا من النار،

وهي جهنم المعدة للعصاة، بمعنى أنه من عالمها وإن لم يستحق فاعل ذلك النار؛ لموانع أخر من حسنات وغيرها.

*** الصنف الثَّالث من تقلُّبات القلوب إذا لطفت النفس قليلًا عن هذه المرتبة كان أثرها في القلوب الفِكَر العقلية في ترتيب المصالح المعيشية:**

وذلك أول صفاء العقل وتكيف القلب به، وذلك من عالم الجو بين الأرض والسماء القريب من الأرض؛ لأنه من مصالح العقل.

*** الصنف الرَّابع: إذا لطفت النفس قليلًا أكثر من ذلك سَرَت الفكرة في العلوم الدينية والمعاني الفقهية، وانحلت المشكلات المعنوية:**

وذلك من عالم الجو القريب من السماء؛ لأنه من مصالح الأخروية لا الأرضية.

*** الصنف الخامس: إذا لطفت النفس أكثر من ذلك سرت الفكرة في الحكم الرياضية وترتيب الأمور السلوكية المؤدية إلى منازل القرب:**

وذلك من عالم أبواب السماء؛ لأن ذلك مفتاح لأبوابها، وذلك من عالم العقل.

*** الصنف السَّادس: إذا لطفت النفس أكثر من ذلك أحبت العبادة، واشتاقت إلى الذكر والفكر، والتلاوة والتدبر، والدأب لله عزَّ وجلّ في الطاعة:**

وذلك أول صفاء القلب وتكيف النفس بطبيعته، وهو من عالم

السماء، ولأنه يكون مقرونًا بالذكر الخالص لله عزَّ وجلّ، فيستغرق القلب في أنوار الذكر وذلك من عالم السماء القريب إلى الأرض.

* الصنف السَّابع: **إذا لطفت النفس قليلًا أكثر من ذلك، وقعت الفكرة في ميدان الطلب والإرادة لله عزَّ وجلّ، وعكوف الهم عليه سبحانه، وجمع الخاطر بين يديه، والمراقبة لعلمه ونظره بالمحبة التامة، والإرادة الكاملة، والشوق الزائد إلى اللقاء:**

وذلك من عالم السموات العلى، القريبة من العرش لمن فهم ذلك وعَقَلَه، وكان لبيبًا.

* الصنف الثَّامن: **إذا لطفت النفس أكثر من ذلك تخلَّصت من عالم الأرض والسماء، واستغرقت في عالم الشهود والعبودية، وملاحظة الصفات، وكان حديثها المسامرة للحق تعالى بالتوكل والتفويض والدعاء، والنظر إلى الأوامر الشرعية والأحكام القدرية والمعاني الصفاتية كأنه عند الله عزَّ وجلّ ومعه وبين يديه:**

وهذا من عالم العرش المجيد، ليس من عالم الأرض ولا عالم السماء.

* الصنف التَّاسع: **إذا قوي هذا المعنى عليها هجمت المعرفة الذاتية على الأرواح المورثة لالتهاب الروح بنيران المحبة الخاصة، الموجبة للسكرات، وتقرب الحقائق منه قربًا لا يغيب عنه:**

بحيث يلتبس باطنه ويشرق أنوارها على ظاهره، بحيث يبقى وجود العبد عرشًا للمثل الأعلى.

وكمال هذه المرتبة ألا يغيب تمييز العبد فيها بقوة الاصطلام، بل تكون أجزاء العبد قائمة بما يناسبها من عبودية المعبود، فتكون النفس منكسرة منقهرة، قد ذهب تدبيرها واختيارها، واستسلمت لأحكام بارئها، ويكون العقل ملاحظًا للأوامر والنواهي، قائمًا بالعزم التام على تنفيذه، ويكون القلب ملاحظًا للصفات؛ من الهيبة والحياء، والتوكل والتعظيم، والمراقبة والمناجاة في الصلاة وفي غيرها من حوائجه العامة والخاصة، يكون هِجِّيرَاه الحب والتعظيم، والخوف والهيبة، وتكون الروح مستغرقة بما باشرها من سطوع أنوار الجلال والجمال، قد أفناها ذلك وألهبها، وأنساها وأطربها، وعمَّمها واستوعبها، بحيث لا يشغله ذلك عن حكم غيره.

وهذا أعلى أطوار العبد وأتمّه وأكمله، وهو المطلوب من السير والسلوك، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وهذا من عالم القدرة، ليس من عالم الملك ولا الملكوت، وهو من معادن الفضل والمنة، يخصُّ الله بذلك من يشاء من عباده ومحبِّيه، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

أيُّها الأخ؛ إن أردت وصولَك إلى هذا الأمر فاستعن بالله، واشتغل بالأصول المذكورة، ثم اشتغل بمراعاة قلبك كما وصفت لك، وعالجه مدة طويلة حتَّى تحصله وتضبطه على العدل والحق بين يدي مولاك، وكلما انفلت عنك فاضبطه، فإنَّه بمثابة السمكة تحتاج إلى تحيل كثير حتَّى يمكن تحصلها.

واعلم أن ذلك من أشرف الأعمال وأفضلها، فإياك أن تحقر ذلك، فلا عمل أفضل من أن يطَّلع الحق على حقيقتك الباطنة فلا يجد فيها ما يكرهه، ولا ما يمقته، فيرجى أن يصبغه إذا أدمنت الاستقامة بصبغة المحبة الخاصة المورثة لالتهاب البواطن بمحبة الله عزَّ وجلّ.

وهذه القواعد تعينك على ضبطه إن شاء الله تعالى، إذا حرَّرتها عرفتَ أطوار تقليبات القلوب من الدرك الأسفل من النار إلى أعلى علِّيين، إلى ملك القدرة والعظمة الخارجة عن الأكوان، علويها وسفليها، فتعرف كل وقت ما الغالب على قلبك عند ضبطه، فتعرف طورك ومرتبتك في ذلك الوقت، ولا ترضَ إلَّا بعالي الأمور منه، فبذلك يتم السير والسلوك إلى الحقائق المطلوبة إن شاء الله تعالى.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.



(٣٤)

قاعدة في الجِدّ والاجتهاد

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

عليك بثلاث أعمال؛ شُدَّ مئزر جهدك في إتقانها واعتيادها، وتمرين النفس بحُسن الرياضة للتمكُّن فيها.

العمل الأوَّل: لا تعص ربك بقلبك في خواطرك.

والطريق إلى ذلك أن تحصِّل قلبك وتضبطه بين يدي الله عزَّ وجلّ بالحق والعدل، فذاك طريق الرضا إن شاء الله تعالى، فيستقيم بذلك باطنك، وتستريح من وجه خطرات الآثام والمعاصي، ويصفو قلبك لاستنشاق نسيم الرضا والقرب من الله، فتصبح طيبًا، وتمسي طيبًا، لا يلج قلبك مكروه، ولا ينطوي على غلٍّ وغش.

وذلك يحتاج إلى رياضة شديدة في مدة طويلة؛ لتعتاد ذلك، وهو أصعب عقبة في الطريق، فربما يكون الإنسان ذا أحوال عالية، ولم يصحح مع ربه حفظ باطنه كما أمره تعالى بقوله: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

العمل الثَّاني: اعقد على تفويض أمورك في شأن دينك ودنياك، واستند إليه في وعده بكفالتك ووكالتك، واترك الاختيار والتدبير مع

تدبيره واختياره، وارضَ عنه، واصبر على ما أصابك، واستعن به في ذلك، فتستريح من كدر التدبير والاختيار، وتقليبات القلوب فيه.

فما أكدر قلب من يصبح مفكرًا فيما يصنعه، مدبّرًا لما لا يجدي عليه، يقول: أصنع كذا، لا بل أترك كذا، لا بل أسعى كذا، كأنه محيَّر في أمره، فيغفل عن تدبير المدبر له، الذي يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، فالأقدار جارية مع التدبير وعدمه، لكن المفوض يُلطَف به فيها إذا شاء الله، ويتولى أمره، ويكفى مؤنه.

والمدبر المختار المتسخِّط بالأقدار، الشاكي منها لا يُلطف به، وخُلِّي إلى نفْسه وتدبيره، ولا يجدي عليه ذلك شيء، وما أروح سر من أصبح مسرعًا إلى ربه، ساكنًا إليه، مفوضًا إلى حسن تدبيره، عازمًا على التوطين والإحكام، والاستعانة فيها، مع اهتمامه الشديد وتدبيره للأمر والنهي؛ لأنه موكل إلى العبد، ولا بد من تدبيره له مع استعانته بمولاه، ويستريح من تدبير ما قدره الله تعالى من أمور المعايش، وما لم يوكل إلى العبد فهذا نصيبه راحة معجلة من عناء الفكر والتدبير، مع ما له عند الله، إذا شاء الله من حسن التولي، والحيطة بالعناية.

العمل الثَّالث: التخلِّي عن الوجود الذهني.

وذلك مفتاح طريق الفناء، ومفتاح الصبغة الروحية بالمحبة الخاصة المورثة لالتهاب الباطن بحب الله عزَّ وجلّ، لما يبدو على الباطن الإسرار من الشاهد التي هي برزخ بين اليقين والعيان، وذلك أشرف مواريث الصدِّيقين وأعلاها وأسناها، وهي تحقيق مقام الخِلَّة

الإبراهيمية المحمَّدية صلوات الله على محمد وعلى أبيه إبراهيم الخليل، وعلى جميع الأنبياء، فهم الذين قاموا بتحقيق ذلك حقيقة، ومن قصدها وطلبها وعمل عليها، يرجى له نصيب منها.

وحقيقتها مَجْلَى حكم الذات المقدس على الأرواح، وهو غير التجلِّي الخاص بالقلوب؛ من مشاهد الصفات، فإنَّها تورث أنوارًا، وذاك يورث التهابًا واستغراقًا وابتهاجًا ووجدًا، ولا يكون إلَّا بعد الفناء ومشارفة حال البقاء، وذلك مع المتابعة، وهو مقصود القوم من السلوك والسير والرياض، فطوبى لمن حققها وقام بشروطها، وقُبل ذلك منه، وجوزي عليه بالحسنى.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين، وحسبي الله.



(٣٥)

قاعدة في التجريد

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

اعلم أن هذا الأمر يتركَّب من شيئين؛ شيء تبذله لله من نفسك، وشيء يَرِدُ عليك من تعريفاته، وقد شرح ذلك في غير هذا الموضع أصناف التعريفات الواردة من فضل الله سبحانه على العارفين.

فمن ذلك: التعريف بصفة الفوقية، والإلهيَّة، والربوبيَّة، والدَّيَّانيَّة، والمعِيَّة، وبصفة الوجه والعظمة، والجلال والبهاء، والكلام والحكمة والرحمة، والقوة والبطش، وغير ذلك مما يجده الواجد من آثار الصفات المقدسة في أوقات التوجهات والأذكار.

ومن ذلك ظهور الأمر الكلِّي على الأرواح من آثار الجلال والجمال الذاتي المُلهِب للأفئدة، والمُسْكِرِ لها فوق تلك المشاهد الإيمانية القلبية، ثم القوة على استعمال تلك الصفات وعبودياتها في المشهد الكُلِّي الروحي.

فيكون العبد في حالة مشهده الروحي مستعملًا للتفويض والتوكل، والخوف والرجاء، والافتقار وسائر أعمال القلوب بقلبه، أو ما يفتح منها، فيورث ذلك نفسه الخضوع والخشوع.

ولذلك لا يحجبه ذلك عن تأمل العقل لمواقع الأمر والنهي، وحكمها وتراتيبها، وكذا لا يحجبه ذلك عن معاملة البدن، بحيث يكون البدن والنفس، والعقل والقلب والروح، كل منهم قائم بوظيفته، بحيث لا تحجبه وظيفة عن وظيفة.

والغاية أن يتولى الله عزَّ وجلّ حركاتِه وسكناته، فيصير به في كل شيء من أموره، وهذا هو خاتمة ما يبادئ به العبد من ذلك الطرف، وتفصيل الكون بالله وأنواعه لا ينضبط من أنواع ما يرد عليه من التعريفات والواردات والتنبيهات وظهور الحقائق العينيات على أكمل الوضوح والظهور، وبهذا استوى مجمل الأحوال من ذلك الطرف.

وأما ما كان من جهة العبد مما يبذله من نفسه لله؛ فمنها: التوبة والإنابة، وسائر ما ذكر من المقامات والأحوال العملية؛ كالورع لله، والزهد له، والصبر، والخوف منه، والرجاء له، والتوكل عليه، والثقة به، والرضا عنه، والحب له، ثم التقرب إليه بالأعمال البدنية؛ كالصدقة والصوم والصلاة، والقراءة والأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأعمال القلبية؛ كالأذكار والمعاملات القلبية؛ كنفي الخواطر السيئة حياء من الله تعالى، والنيات الصالحة في المستقبل، والندم على ما مضى عند هجوم ذكره.

وأعلى الأعمال القلبية الإرادة والمحبة والخوف والرجاء والحياء من الله تعالى في الغيب، والصبر له عند المحبوبات والشهوات،

والثقة به والتفويض إليه، والاستناد التام إلى كرمه، والإخلاد إليه عند النوائب إليه، والرضا عنه وبأقداره.

وأعلى ذلك كله المحبة الخاصة فوق المحبة العامة، وقد تقدم ذكرها.

ومن علامات القلوب ما يفتح به على أهل الله الصادقين في حبه وإرادته، المحققين للتقوى والزهد ظاهرًا وباطنًا حال يسمَّى التجريد، وهو عمل من أعمال القلوب، وهو حقيقة الإرادة لله، والإرادة لله هي مفتاحها، فمتى استحكمت الإرادة لله عزَّ وجلّ في القلب على المعرفة التامة، فإنَّها قد تكون إرادة إلى مراد لا يعرف.

فإذا كملت المعارف من ذلك الطرف، وكملت الإرادة من هذا الطرف، أدت إلى حال التجريد، وهو تجرد الروح والقلب والنفس عن الأكوان، متنزهة عنها، صاعدة إلى فناء قرب المطلوب، فتنخلع القوة النفسانية والطبيعية متجردة صاعدة إلى المحبوب، وعندها يحب الطالب السياحة والأسفار، فإنَّها قد تعينه على تحقيق حال التجرد الباطن، وفيهم من لا يدخر شيئًا لحكم حاله.

فإنَّ التجريد يقتضي حقيقة الفقر، ومن كان له حقيقة الفقر كان المولى موجوده، فهو يحب ألَّا يدَّخِر شيئًا مع موجوده، لا يألف إلى مكان يقيم فيه، ولا صاحب غير الله يسكن إليه.

فإن غلب هذا الحال على صاحبه حكم عليه بمثل هذه الأعمال تحقيقًا لمقام التجريد، المؤدي إلى مقام التفريد، الذي هو حقيقة الفقر مما سوى الله، وبان الاستغناء بالله، ومفتاح ذلك كله الإرادة الصحيحة لله عزَّ وجلّ.

هذا إذا غلب الحال وتصرف في صاحبه؛ فإن قوي صاحبه حتَّى تصرف فيه واستعمله في وجوهه، وادَّخر لله، وصحب لله، وأقام في المكان الذي يقيمه الله فيه، مع قيام حكم التجريد على باطنه، فهذ أتم إن شاء الله تعالى وأكمل.

واعلم أنه كما كان المشهد الروحي على قسم من أقسام ذلك الطرف، فحال التجريد على ما تقرب به العبد في طريق المحبة إلى مولاه، فإنَّه ترك كل شيء سواه، والتجريد عن غيره.

إذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى رجُل يتقرب إلى الله عزَّ وجلّ بلسانه، إلى رجل يتقرَّب إلى الله بنفي خواطره، إلى رجل يتقرب إلى مولاه بإرادته وطلبه، إلى رجل يتقرب إلى الله بالتجريد عمَّا سواه، والفقر من غيره، وهذا إنما يكون سببه قوة طوالع الأنس، وبالتحقق بالوجدان والقرب، والكمال أن يتقرب بجميع ذلك في حال التجريد.

فقد عرفت بهذه القاعدة معالي الأمور من ذلك الطرف، ومن هذا الطرف، وبالله التوفيق، وهو أعلم.

تتمَّة لهذه القاعدة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

من فتح الله تعالى على قلبه بحال التجريد ارتفعت همَّته عن الذات، وغالبًا لا تؤثر فيه الأمور المفنية لصعوده عن مناسبتها، وتجريده عن موادِّها الجالبة لها، إمَّا قبل حال التجريد في حال الإرادة

ونحوها، وبما أثرت في الإنسان الصور ونحوها، وفي حال التجريد يرتفع عنها بتوفيق الله تعالى.

قال الشيخ عماد الدِّين: قال لي الشيخ نجم الدِّين ـ أعاد الله بركته ـ كلمات جَمَعَت البدايات والنهايات، لم أفهمها إلَّا بعد خمس عشرة سنة، وعرفتُ بها: أنه لم يترك لي من النصح شيئًا.

قال: فكرك فيما فات، وتدبيرك لما هو آت؛ شغل عن الحال في الوقت، وهذا يقتضي كمال التقوى [في] الباطن، والمراقبة في الخواطر حياءً من الله تعالى، الذي هو مبدأ طريق المقربين.

وقال لي كلامًا معناه: كان الله ولا شيء معه، فينبغي للإنسان أن يغيب قلبه في هذا المعنى.

وهذا مفتاح المعرفة لله تعالى على طريق أهل الكلام، والعلم بوجوده، أمَّا على طريق أهل السنَّة؛ فمفتاح المعرفة العلم بالفوقية كما يليق بجلاله، لا كما يُتوهم من صفات المخلوقين.

وقال لي ـ وقد ذكرت له أن الإنسان يَرِدُ عليه واردات متنوعة ـ فقال: هذا تفرقة الإنسان، ينبغي أن يروح هذا الطلب الذي عنده، ويشهد شيئًا مليحًا.

وهذا الذي قاله إشارة إلى أن الطلب حجاب عن المطلوب؛ فإنَّ الطالب محجوب بحال طلبه عن موجوده.

ثم قال لي مرة: وترى شيئًا مليحًا إشارة إلى المشهد الروحي، الذي تقدم ذكره، وهذا غاية ما يشار إليه.

وقال لي مرة ـ ورأى حيوانًا يمشي ـ فقال: أنا أحسد هذا على تجريده.

وهذا يقتضي تنبيهه لي على التجريد عن السِّوى، فجمع لي رضي الله عنه جميع ما يحتاج الطالب إليه من البدايات والنهايات؛ من المراقبة، والمعرفة، والفناء، والمحبة، والتجريد.

لكن لم أفهم إلَّا بعد هذه المدة، والله يُسْمِع من يشاء، وبالله المستعان.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(٣٦)

قاعدة في الفرق بين العابد والمُشاهد

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

قد يقع الغلط لبعض الناس في ذلك، وذلك أن العابد لله عزَّ وجلّ بذكر، أو صلاة أو تلاوة، أو تفكر بلا شهود: يلحقه الملال والفتور، ويجد زيادته في وجود همته ونشاطه، ومتى فترت همَّته ملَّ العبادة، وسئم.

وصاحب الشهود يعبد الله عزَّ وجلّ بما تراه بصيرته من عظمته وجلاله وكبريائه واعتلائه، وجماله وكماله الملازم لذاته، فيكون ذكر القلب والروح هو ما بدا عليهما من ذلك، حتَّى يغيب المشاهد في عبادته لربه عمَّا يعرفه ويشاهده من نصيبه من معرفة صفات ربه، وتصير عبادته لربه ذِكرُه له بما اتصف به من الصفات التي يستحقها من العظَمة والجلال والجمال والكبرياء والحمد والثناء، والقدس، والسلامة والفضل والجود، مما استأثر الله بعلمه من صفاته عن جميع خلقه.

فيكون المُشاهد أولًا يعبد ربه بما يراه ببصيرته من معارف ربه، ثم يترقى إلى عبادة ربه بما لا يطَّلع عليه غيره سبحانه، من عظمة شأنه وباهر جلاله، فيكون عجزُه عن تعظيم ربه بما يعلمه، ورجوعه إلى التعظيم القائم بكمال جلال ذات الحق عزَّ وجلّ، هو غايةَ العلم منه بالله، كما جاء عن الصدِّيق: سبحان من لم يجعل للخلق طريقًا إلى

معرفته إلَّا بالعجز عن معرفته، فيكون هِجِّيرًا، قلبه في صلاته وتلاوته، وذكره، بحمل ما قام بذات الحق عزَّ وجلّ، من الكمال الملازم له في الآباد والآزال، ويكون ما عرَّفه مولاه من نفسه برزخًا بين المُشاهَد وبين ما لا يطلع عليه غير المتصف به.

فصل

وربما غاب ذكره عن شعوره وخفي، لأنه خفي لا يعلمه غير المتصف به، فيتولَّاه مولاه في النيابة عنه في ذكره، فيبقى ذكره لربه ذكر الحق لنفسه بما يعلمه من ذاته المقدسة؛ من العظمة والجلال والجمال والكمال، في الآباد والآزال، بل في الفردانية والوحدانية قبل وجود الموجود الموصوف بالزوال، الذي يجري عليه الاضمحلال.

فصل

وهذا الذكر الخفي الذي استأثر الله بعلمه عن عباده، يجد الواصل آثاره تتنزل على قلبه، ويرى أنواره بعين بصيرته، لكن معرفة مجملة، ونورًا مجملًا، يتولى الحق تعالى تفصيله؛ إذ لا يقدر على تفصيله من الخلق غيره.

فإن قلت: بيِّن لي نصيب العارف من معرفة ربه الذي ذكرت أنه برزخ بين العارف وبين ما لا يحيط به أحد غير الله تعالى، فإنَّه قد بينت لك الذي استأثر الله عزَّ وجلّ بعلمه عن عباده، فيكون العارف يذكره ذكرًا مجملًا؛ بذكر الله عزَّ وجلّ لذلك، إذ لا يقدر أحد أن يذكر به ربه، ولا يقوم بمعرفته إلَّا من اتصف به، وقد عرفنا أنه يراه

العارف ـ أيضًا ـ رؤية مجملة لا يقدر على تفصيلها، فما النصيب الذي يقوى العارف على تفصيله؟ وهو نصيبه من معرفته؟

فيقال: وهذا الذي يقوى على تفصيله، وهو نصيبه من ربه ـ أيضًا ـ، لا يقوى على الإحاطة بتفصيله، **فمن ذلك**: ظهور فردانيته لعين بصيرته، التي إذا انكشفت انمحى ظلام الوجود، وصار كالخيال والظلال، قائمًا بعبادة ذي الجلال، فهل يقدر العارف على الإحاطة بهذا الظهور؟ لكن معه منه طرف بحسبه، وبقية الأطراف لا يحيط به غير صاحبه عزَّ وجل.

ومن ذلك ظهور مراقبته لعباده، الماحية لتكلف مراقبة نظره.

ومنه ظهور إرادته الفاسخة لإرادة من غلب عليه شهودها، الماحية لتكلف ترك الإرادة والاختيار.

ومنه ظهور الأمر والنهي المُذْهِبِ لكلفة العبادة، الحامل للعابد على بذل المجهود.

ومنه الجمال والكمال الذي اتصف به ذو الجلال في الآباد والآزال، الموجب لصفو المحبة والتفريد في صفاء علم التوحيد.

وهذا الظهور بلا صفات؛ هو ظهور في عالم البقاء، بمعنى أن العبد بقي بها، وهو ظهور غير الظهور الذي كان قبل الفناء، الذي كان يظهر تارة، ويتوارى أخرى.

أما في عالم البقاء؛ انجلت هذه المعارف للبصائر، وصار صاحبها كمن جلس في ضوء الشمس أو القمر، فهل يمكنه أن يغيب

عنهما؟ بل ربَّما غاب فيهما عن نفسه؛ لغلبة نورهما، فينسى نفسه ورؤيته برؤيتهما، فهل يمل مثل هذا عن رؤيتهما؟

ولو ملَّ لم يدعه شعاعهما عن الشعور بهما، والشعور بهما وذكرهما بما اتصفا به من الضياء والإشراق هو غاية وصفهما بما اتصفا به في حق من رآهما.

كذلك من أشرقت عليه شموس المعارف؛ هل يدعه ذلك الإشراق عن الغيبة عنها؟ ونظره إليها، وعلمه بها هو ذكره مولاه بها، بل هو شهوده مولاه بما اتصف به، وذلك غاية عبادة العابدين، بل نفسٌ من مثل هؤلاء قد تعادل أمثال الجبال من عبادات المحجوبين.

فمثل هؤلاء؛ أي ملال يلحقهم؟

ولو فرضنا أنه ملَّ من جلوسه في ضوئها؛ لم يجد في الكون ظلًّا يستره عنها، فيهرب من ضوئها إليه، فكيف إذا ارتفع الملال، ووجد لذة إشراقها، بل وجد حياة قلبه وروحه مرتبطًا بذلك النور، لو حجب عنه لحظة للحقه كما يلحق الإنسان إذا حجب عن الهواء الذي به يقوم وجوده من الضيق والكرب، فذلك النور هو نسيم الأرواح، به يكون روحها في عالم الغيب، كما أن النسيم الظاهر به يتم روح الوجود الظاهر في عالم الشهادة.

فقد عرفتَ الفرق بين العابد والمُشاهِد؛ فالمُشاهِد كلَّما ملَّ أو حُجِب فاض عليه أنوار الشهود، فابتهج بوجوده، فعاد إليه حاله، كمن يكون جالسًا في الشمس؛ كلما غاب عنه شعوره بالشمس حضر فوجد الشمس معه، كذلك من وجد شمس المعرفة، فوجد أنه لها هو غاية

عبادة ربه؛ لأنه إقرار وعبادة بما تراه بصيرته من جلاله وعظمته، وذلك أنهى العبادات وأرفعها، خصوصًا إذا انضم إلى ذلك عبادة الجسم؛ من صلاة أو تلاوة أو ذكر كان في غاية الكمال، بخلاف العابد الذي ينظر إلى الشمس من وراء حائط بعلم اليقين فهو موقوف على دوام نظره، فهذا يلحقه الملال، فيحتاج أن يستريح ليعود إلى فكره.

فعبادة هذا في صلاته وتلاوته: التفكر والإيمان، فإذا فتر وملَّ لم يكن له ما يهجم عليه، مما لا يقدر أن يدفعه عنه، ولا يستظلُّ بظلٍّ يستره، فتضطر رويّته إلى الشعور به، فليس له مثل هذا الحال، فيلحقه الضَّجر والمَلال والكلال، وربما فتَر أسبوعًا أو شهرًا، وربما سُلِب حاله فعاد إلى الغفلة؛ فإنَّ حالة الهمّة لا غير، فمتى فترت الهمة عاد إلى العادة.

والعارف خَرَق بهمته حُجُب الأكوان، وطلع عليه شموس المعرفة، فلم يبق له ليل يستره عن الصبح، ولا جدار يحجبه عن الشمس؛ فأينما تقلَّب فحرارة الشمس تقرعه، فإن تأمل فضوؤها يبهره، فإن غفل عنها فمتى فتح بصره وجدها، فعبادته دائمة، وروحه متصل، وهو مع ذلك يترقى من ذكر الشمس بما يراه منها، إلى ما كمن فيها من الصفات، التي لا يحيط بها؛ ليكون ذكره أكمل من شهوده، ليذكر الأمر على ما هو عليه، لا على مجرد علمه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٣٧)

قاعدة في الفرق بين مشاهدة القيومية والتحقق بها والفرق بين مشاهدة الجمع والتحقق به

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

وهنا قد يلتبس المشاهد بالمقاعد، **أمَّا مشاهدة القيومية**: فهي أن تشهد الكل قائمًا بالله عزَّ وجلّ، تحركه الموجبات القدرية، والآثار الإرادية، **فهذا هو منشأ القيومية**.

وأما مشاهدة الجمع: فهي أن يطلع صبح التوحيد من أفق ظلام الوجود، فينجاب قليلًا قليلًا كما ينجاب الليل من ضوء الفجر، وتشهد نفسك مع الوجود كالخيال المضمحل، ولا وجود حقيقة إلَّا وجود التوحيد، وسائر الوجودات غيره كالظلال والخيال.

ومن ادَّعى أن الوجود في الجميع واحد، فقد كذب وأعظم الفرية على الله عزَّ وجلّ؛ حيث جعل الوجود واحدًا في الحق والخلق، **فهذا هو مشاهدة الجمع**.

أما التحقق بالقيومية: فهو أن يجد العبد نفسه مأخوذًا بيدي القدرة، والقدرة قابضة على ناصيته، متصلة بأصله اتصال الفرع بأصله، وهذا يصح له أن يقال: اتصل بالله عزَّ وجلّ، وهو الاتصال المعنوي لا الحسي؛ فإنَّه سبحانه بائن من مخلوقاته فوق عرشه

وسمواته، وعلامة هذا الاتصال المعنوي: أن تتَّحد الإرادةُ بالإرادة، وهو الاستقامة مع المشيئة.

مثاله: رجل أخذته جرية الماء، فهو منعطف؛ لانعطاف الجرْية بلا مُقاواة لها ولا مخالفة.

وربما يقول القائل: لا ينبغي للإنسان أن يسترسل مع القدر كيفما جرى؛ فإنَّه يجري بالمعاصي والطاعات.

فيقال: من كشف الله عن بصيرته هذا المعنى؛ فإنَّه قد أحبه بذلك واصطنعه، فهو يجريه على وفق أقداره المحبوبين، لا لعموم الخلق، ومن علامة ذلك: حفظهم في أمره ونهيه، وتعريفهم مراده منهم.

وفي الجملة؛ فعلامة التحقق بالقيومية الاتصال المذكور، واتحاد الإرادة، والحماية من الإصغاء إلى حديث النفس بالأصالة؛ لأن التحقق بالقيومية انفصال عن النفس، واتصال بالحق، ودوام الإصغاء إلى قدره وأمره بلا إصغاء، فإنَّه يبقي الفاعل واحدًا، والعبد منفعلًا، هذا في غاية الأمر، وأما في المبدأ؛ فلا بد من الإصغاء إليه قدرًا وشرعًا، والإعراض عن مناغاة النفس قطعًا، وبالله التوفيق.

وأما علامة التحقق بالجمع فهو سر دقيق، قد يلتبس بالاتحاد، وتذهب الوحدة، وليس الأمر كذلك؛ فإنَّ الرب سبحانه وتعالى رب، والعبد عبد بوجودين متغايرين، قائم ومَقُوم به، فعلامة التحقق بالجمع بعد التحقق بالقيومية؛ فإنَّه في التحقق بالقيومية اتصل الفرع بالأصل، وصار الأصل متصرفًا فيه، يقلبه كيف شاء، على وفق أمره وشرعه، فهو متصل بهذا الوصف خاصة، وهو وصف القيومية، ثم يرقى من

ذلك إلى أن يبقى اتصال الفرع بأصله غير مقيد بهذا الوصف، ثم يتصل بالحقيقة الجامعة لجميع النعوت، وهنا يتصل الفرع بالكل، لا مجرد اتصاله بوصف مخصوص بالقيومية، ثم يتحقق بذلك بحيث قد لا يرى غيره تحققًا به، وتهيُّمًا وغرقًا فيه؛ كأنه نفسه أولًا، ثم ليس إلَّا هو آخرًا، وهذا يشبه الوحدة والاتحاد من بعض الوجوه، ومعاذ الله أن يكون ذلك.

هذا اتحاد وصفي نوعي، وأولئك يشيرون إلى الاتحاد العيني الذاتي، فإنَّ أهل الحق مع هذا الاتحاد الوصفي النوعي يعلمون بينونة الحق من خلقه، وعلوِّه عليهم على العرش، لكن سبب هذا الاتحاد الوصفي النوعي جاذب المحبة؛ فإنَّ المحب بمحبته يقرب من حبيبه قربًا معنويًّا لا ذاتيًّا، ذاك إنما يكون في الآخرة.

ومعنى آخر من أسباب ذلك: قوة اليقين والغرق فيه؛ فإنَّ الموقن بالشيء على ما هو به وعليه من كمال الصفات وعظمتها تمحق هذه المعرفة ما سواه من الموجودات التي هي كالدخان الذي لا حقيقة له، وهذه المعرفة محلها سرّ العارف، فيحصل القرب والاتحاد الوصفي بذلك، مع اليقين بالوجودين المتباينين، الذي يستحيل حلول أحدهما في الآخر أو الاتحاد به شرعًا وعقلًا، لكن موجبه المَعْنَيان الذي تقدم ذكرهما.

ذكرت هذه القاعدة ليفرق بين وجود أهل الحق وحقائقهم، وبين وجود أهل الباطل والإفك؛ كوجود صاحب (الفُصوص)، و(البُدُّ).

و(الفُكوك)[1]، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

كان الأستاذ رحمه الله ذكر مسألة وأُنسيتها، حتَّى جرَتْ على خاطري تذكرة من الله عزَّ وجلّ، وهي:

في الناس من تكون غايته العبودية، ومنهم من يترقى مع العبودية إلى غير ذلك، هذا هو الصواب، فإنَّ في الناس من يسلك حتَّى يَعرِف، فإذا عرف وعرف حقائق الصفات محت الصفات مشيئاته، واتحدت إرادته بإرادة مولاه فصارت واحدة وهي إرادته.

ففي الناس من وقفت همته هنا، فصرف لوقوف همته إلى شغل من أشغال الظاهر مع شهوده تولي مولاه له في ذلك الشغل.

وفي الناس من لمَّا وصل إلى هذا الموطن أشير على قصده الأول، فقال: إياكَ أريدُ، لا زوجةً ولا مالًا ولا سماطًا، ولا مشيخةً ولا أتباعًا، ولا ذكرًا بين الناس ولا شهرة، بل إياك أريد، وإرادتي لك من إرادتك، فهي واحدة، ظهر أثرها فيَّ، فهناك يرجى أن يقع في تربية الحق فيتولى سيره إليه كما تقتضيه رحمته وحكمته، فيطهر من أدناسه، ويرقيه إلى الخصوصية ملكًا ملكًا، حتَّى يصلح لقربه ونجواه كفاحًا.

بخلاف من انتهت همَّته عند وصوله إلى العبودية، وزعمت نفسه أنه وصل، فماذا يعيقه عن الزاوية والاجتماع والتسليك؟ فهذا أبله

---

(١) أسماء كتب في فلسفة وحدة الوجود، وهي على الترتيب من تأليف: ابن عربي، وابن سبعين، والصدر القونوي.

القلب، لم ينتبه بعدُ إلى حقائق الوصول، فيستعين بالعبودية على الظهور في عالم الكون، واللبيب المراد استعمل العبودية على القَبول للحضرة، والوقوع في تربية الحق حيث انتهت تربيته لنفسه، وتربية العلم له، وبقيت تربية اللطيف الحكيم لعباده الذين أرادوه ابتداء وانتهاء، ورفضوا ما سوى قربه من الفضائل وإن عزت أخطارها في الدنيا والآخرة.

والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٣٨)

قاعدة في الوصال واللقاء
وهي: بُغية المُحبّين وروح المشتاقين

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

أمَّا بعدَ حمدِ الله تعالى وصلواته على سيِّدنا محمَّد وآله أجمعين...

مَن أراد السَّعادة الكبرى، والفناء التام في الدنيا والآخرة، وهو الفناء الذي لا يقدح فيه الضرورات الظاهرة، والكنز الغيبي الذي لا ينقصه العدم من الأعراض في الدنيا ولا الآخرة إن شاء الله تعالى، فعليه بلقاء رسول الله ﷺ وصحبته، والاحتظاء من أنواره الباطنة الملازمة لسنَّته وظواهر شريعته، تنقدح تلك الأنوار بين مقادح المكابدة في الاتباع للآثار بالأركان والهموم في العلانية والإسرار، ولا يتصور لقاؤه ﷺ وزيارته ومشاهدته بالحس الظاهر، فإنَّه انتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ولا يمكن صحبته ومشاهدته إلَّا غيبًا في غيب، وسرًّا في سرّ.

ومتى عرف العبد سيرته وأيامه، وسنَّته وأعلامه، وخوارقه ومعجزاته، وآياته وكراماته، وعرف النسبة بينه وبين الأنبياء من قبله، فقد عرفه ووصل إليه بقلبه، وشاهده في الغيب، فعليه حينئذ أن يحبه.

وعلامة محبته الاهتمام بمعرفة سنَّته بعد العلم بسيرته، ثم التلبس بها، مشاهدًا لأنوار بهجته كأنه معه في زمانه، لا يفارقه في سره وإعلانه، فناهيك بها من صحبة ما أتمَّها، ومجالسة ما أنورها وأبهجها، كما قيل:

إن كنتَ في الغيب عن عينيَّ محتجبًا ... فالقلبُ يرعاكَ في الإبعاد والنائي

فمن حصل له هذه الحالة يومًا من الدهر فقد وصل إلى الرَّسول ﷺ وصحبه، فكيف يطيب له مفارقته وترك محاضرته والاحتظاء من أنواره ومنادمته؟!

فإن اقتصرت همته على ذلك فنعمة كاملة شاملة، وعافية في الدين، مع مشيئة الله ملازمة، والمرء مع من أحب، وناهيك من يصير خير الخلائق مؤنسه في باطنه، وسميرَه وصاحبَه ورفيقَه، يراه بعين قلبه، ويتبعه بقالبه وسره، فنعم الصاحب حينئذ ونعم المصحوب، لقد جلا الله قلب هذا المهموم والمكروب، وإن ارتفعت همتُه في هذه الدار إلى لقاء الله تعالى ـ أيضًا ـ، والفوز بقربه، ومشاهدته، والاحتظاء من أنواره وخالص محبته، وبالرجوع إليه في أحواله وعوارضه، فتلك همة عالية استعدادها بَذْلُ النفس واستفراغ الهموم في طلب الملك القدوس.

أول ذلك استخراج نصٍّ من العارف من سنَّة نبيه ﷺ، ثم تتحرَّض البصيرة للتعرف لربه منها، ودوام التوجه بتخلية الباطن، وطهارة الظاهر، والشوق الدائم، والقلب الهائم عساه يحظى بوميضٍ بارقٍ فيذوق بها بوادي الحقائق، فمن ذاق برقًا من تلك البروق نفسًا

أو نفسين، فإنَّه يودع قلبه حرقة لا صبر معها، وهيمانًا لا سلو بعده، وإن ظهر على صاحبها السكون وتعاطي الطعام والشراب، والدعة والركون، فإنَّه لا يعلم ما في الأسرار إلَّا الملك الجبار بذلك:

بـروق فـي دجـى الـلـيـل لـوامـع   تـحـرك وجْـدًا والـدمـوع هـوامـع

فإن حظيت أيها الأخ بحقيقة تلك البرقة، وصار لقلبك هنالك وقفة، واستمر عليك حكمها صباحًا ومساء، طوباك ثم طوباك، لقيت نبيك، وحظيت بصحبته، ووجدت ربك وعبدته بعبوديته.

فمن أشرف حالًا ممن رُزق صحبة الأنبياء في موقف شريف بين يدي الله من مواقف الأولياء.

أضحى موجودك أفضل موجود، وشهودك أكمل الشهود، وطوباك إن خُتم لك، وخرجت من هذه الدار، وأنت لنبيك معانقًا، ولجلال ربك مشاهدًا وامقًا.

لقد صحبت في هذه الدار خير مصحوب، وخرجت إلى من عبدته بمحبة جاذبة للقلوب، فلقيتهم وأنت لهم محب، وعلى طاعتهم واتباعهم مكبٌّ، فيرجى لمثلك أن يلاقوك بمثل محبتك أضعافًا مضاعفة؛ لأن الحسنات تتضاعف هناك على مقادير أقدارها، كما أخبر سبحانه، قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

هذا فيمن أنفق ماله، فكيف بمن أنفق همَّه وهواه وسعاياته، ومُناه طاعة فيما يحبه ربه ويرضاه؟

إنَّ أجرَ مثل هذا لا يوصف، وحقيقة ثوابه لا يُعرف.

فلمثل هذا فليعمل العاملون، وعلى ذلك فليتنافس المتنافسون، وبالله المستعان، وعليه التكلان.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



(٣٩)

قاعدة في ميزان الاستقامة لأهل القُرب والكرامة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي تقرُّ عيون المشتاقين بلقائه، ويحظى بكرامته من قام بحقِّه متقنًا لأدائه، ويفوز بمعرفته من رُزق الاهتمام بذوق حقائق صفاته وأسمائه، ورقي إلى مقاعد الصدق من استعد بعبوديته ناجيًا من شقائه، له الحمد في الأولى والآخرة، ومنه المبدأ، وإليه الرُّجعى.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمَّدًا ﷺ عبدُه ورسوله نبي الرحمة، الهادي إلى الحظوة بدار السلام لمن قسم الله له منها موطنًا ومعنى، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة بالليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلَّى، وما خلق الذكر والأنثى.

وبعد:

فإنَّ العبد يهتم برهة من الزمان في طلب العلوم والمعارف، مكبًّا على طلبها، مخاطرًا بنفسه وعقله بالمشاق والمتالف، فلا يبرح حتَّى يرتشف من العلوم صفوها، ومن المعارف ذوقها ورقمها، فيُكسى قلبه أنوارًا علمية، ويصبغُ قلبه بآثار علومه، يكون ذلك لقلبه وطنًا، ويشاهده ببصيرته سرًّا، كما يقوم شواهده من النصوص علنًا، وذلك

لا يتم إلَّا مع التلبُّس بأحكام العلوم؛ من المحاسبات والرعايات للخواطر والهموم، والقيام بمراضي الرب تعالى ظاهرًا وباطنًا، والتطهر من الرذائل الظاهرة وما كان منها كامنًا، فعند ذلك يشد مئزره لتكملة سلوكه بأمر يتم به جميع ذلك، وفيه تظهر حقائق علومه وعقائده ومعارفه وأعمال جوارحه، وهو الغاية التي إليها المنتهى، وهي العاقبة التي تكون ختامًا لأهل النهى.

وفيهم من يستصحب هذا الحكم من بدايته إلى غايته، وذلك لمن كمل في عقله ودرايته، وفيهم من لا يتسع فهمه للجمع بين الفضائل، ولا ينتبه لذلك في الأواخر والأوائل.

وجملة هذا الأمرُ المُشار إليه لزومه حالةً يحب لقاء الله تعالى عليها، واستعمال هذه الحالة في جميع شؤونه، مصاحبًا لها في تصاريفه وفنونه.

اعلم أيَّدك الله: أن التائب والعالم والعامل، والذائق والعارف والمحب، ومن التبسه حال الفناء وحال البقاء، ومن بدت عليه بوادي التوحيد فغيبت شعوره في حقائق المواجيد من طلائع الأسماء والصفات وحقائق الفردانية المشيرة إلى عظمة الذات، كل هؤلاء قد لا يخلو أحدهم عند محوه ورجوعه أحيانًا إلى طبعه من رُعونات نفسانية، كلٌّ بحسبه؛ فأهل البدايات رعوناتهم حُظوظية، والمتوطِّنون رعوناتهم اختيارات أمانيَّة، والكُمَّل رعوناتهم بهيَّة، لتحقُّقِهم بحقائق التقريب من لطائف ربِّ البرية.

وهذه الحالة إذا لزمها المبتدئ أَفْنَتْ بعون الله ومشيئته حظوظه المذمومة، ولذلك يفنى من المتوسط إراداته ورعوناته المكتومة،

ويصفى من أهل النهايات بقايا عندهم من سكر المقامات معلومة.

والسر في ذلك هوان من لزم الحال الذي يحب لقاء الله عليه، مستعينًا بالله في سائر تصاريفه وشؤونه، فإنَّ صاحب هذه الحالة منتظر تصفحات وجه ملك الموت للخروج إلى الدار الآخرة، فمثله كمثل من هو في دار وهو متشرف في طاقة منها إلى دار أخرى يريد لقاء ربها بأحب الأعمال وأخص الأحوال، فلا يرضى أن يلقاه على أدنى كدر وإن قلَّ، ولا على لوث ما وإن هان أو جَلَّ، فيصفو بذلك مع مشيئة الله ومعونته كدره، وتذوب بقاياه، وتنمحي آثاره، وتصفو الروح في مشاهدها، وتزكو النفوس في عملها ومطالبها، وهذه القاعدة ميزان يعرف به العبد كل وقت انحرافه، ويزن به كل وقت عدله وإسرافه.

أوّل ذلك: أن يَعلم الحال الذي يحب لقاء الله عليه من الأعمال والأحوال والمساعي الظاهرة والباطنة، في الحركة والانتقال، ثم يستعمل ذلك يومًا من الدهر، صابرًا عليه في السِّر والجهر، ثم يتصرف بعد ذلك في شؤونه، فيعرف انحرافه عن الدائرة المستقيمة في أعماله وظنونه، وهذا ميزان الصادقين أهل اليقين من المتقين؛ فليستعِن بربه في استعماله لهذا الميزان في الخلوة والجلوة؛ فإنَّ موازينه بمشيئة الله شهية حلوة، وفَّقه الله تعالى للقيام بمرضاته، وقام له بالحماية والرعاية، وكان مؤيده وكافيه، آمين يا ربَّ العالمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٤٠)

قاعدة في استجلاب الوِداد في معاملة ربِّ الأرباب

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ]

الحمدُ لله الذي يقبل التوبة عن عباده وهو الغفور الودود الرحيم، الذي هو بالرحمانية مشهود، وعلى سائر الألسنة بوصف نعمائه وآلائه محمود، وبالشرائع المنزلة المحروسة من الشبه معبود، المنزَّه بصفاته وأسمائه عن الأمثال والحدود، موفق أهل طاعته لإصابة الحق والصواب؛ ليأمنوا من حال المردود، ويصفو لهم الوداد في عبوديتهم وخالص محبتهم، فيستحقوا قربه في ظل ممدود.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة من شبه الجحود، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي خصَّه بالشفاعة يوم العرض، وشرَّفه باللواء المعقود، صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة تزيد على القدر المعدود.

وبعدُ:

فاعلم أنَّ الله تعالى إذا جذب عبده إليه، وفتح له طريق القرب منه لديه، وسقاه من المحبة أعذب كؤوسها، وكشف له من الغيوب أشرف مستورها، أقامه بين يديه بصفاء العبودية؛ ليطهر وجوده من

أدران البشرية، ويحققه بوداده في مشاهدة الفردانية، وحقائق المحبة والمحبوبية.

ومن علامات ذلك أن ينطويَ على إرادة إصابة الحق والصواب، في مساعيه الظاهرة والباطنة، وهذا حدٌّ جامع إن شاء الله تعالى لمجموع ما يوجبه حال الوداد، ويستمر به صفاء المشارب، لمن خاف الإبعاد، وتمثل على إرادة الحق والصواب.

أمثلة يتبين منها شرح حال طالب الوداد مع ربِّ العباد:

أوَّلها: الواجبات:

فإن لم يزدحم وكانت صلاة، فليكن الوقت مستغرقًا بمعانيها، وللقلب في معاني الصلاة وشؤونها شغل عن غيره، وإن ازدحمت فليقدِّم أهمها على ما يغلب عنده، ويقطع عن قلبه خواطر غيرها؛ ليكمل له إصابة الحق والصواب في القيام بها، والتلبس بها ظاهرًا وباطنًا، فإنَّ من كان في واجب وباطنه ممتلئ من واجب آخر، لا يقوى على إقامة الحق والصواب في الواجب الذي هو متلبس به، هذا إذا أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه؛ مثل أن يكون في حرب وجهاد يملأ القلب، ودخل وقت صلاة؛ فإنَّه يصلي صلاة الخوف، ويجب عليه مزج حال الصلاة بحال الجهاد؛ فإنَّه مطلوب بكل واحد منها، لا يقنع منه الالتفات إلى أحدهما بقلبه دون الآخر.

فمثل هذا يمكن في شأنه استغراق القلب بأحدهما دون الآخر، بل ربَّما غلب حال الجهاد وقهر القلب عن تفهم حقائق معاني الصلاة وشؤونها الباطنة، فقد تُعذر في ذلك، ولا يقوى على ذلك إلَّا الكمَّل

الأقوياء، أهل الصحو والتمكين، وقد يضعفون عن ذلك، فيستعينون بمولاهم، ويستعيذونه، فينصرهم.

وكذلك كلُّ حالٍ مُشْغِلٍ عن حقائق الصلاة، إذا كان العبد مطلوبًا به في وقته، بحيث يفوت بفوات وقته؛ فقد يُعذر المصلي إذا غاب قلبه عن حقائق الصلاة بما هو مطالب به في ذلك الحكم، ومضايق به لفوات وقته، فهذه قاعدة يعلم منها بطرق الذات والعرض إصابة الحق والصواب إن شاء الله تعالى.

ويجب على طالب صفاء الودِّ مع ربِّ العباد أن يقصد إصابة الحق والصواب، في الحب والبغض، على مقدار لا يتجاوز إلى الانحراف، فيخشى بذلك أن يسقط عن الوداد، ويخرج إلى دائرة الإبعاد.

وكذلك في معاشرة الإخوان في الله تعالى، يوفيهم حقوقهم، ويعطيهم نصيبًا تامًّا من محبته، وصفاء وداده، وصِدق ألفته، بميل القلب وظهور وصف المحبة والرحمة، والإكرام والإعزاز على ما فيهم من قلة الاستعداد، وغلظ الطباع، وبُعد الأفهام؛ رحمة لهم، وتعطفًا عليهم، فلا يملّهم فيبعدهم عنه، لملالته وتبرُّمه لثقل طباعهم؛ فإنَّ لهم حقًّا عليه، ولإرادتهم للحق حرمة، يجب محبتهم لأجلها، فينبغي أن يوزن فيصاب فيه الحق والصواب، ولا يخرج إلى الإفراط من امتلاء القلب بمحبتهم، وأنسه بمعاشرتهم، وسكون محبتهم في محل يسكن فيه النصيب الخالي، فذلك انحراف في الصحبة، وظلم يخرج به من إصابة الحق والصواب.

ومن الانحراف أن يتغافل عن تأديبهم[1] إذا زلُّوا، ويسامحهم في شيء يحب تعريفهم به، أو يسكت عن نصيحة ينتفعون بها، أو يرى في أحدهم طبيعة سوء، يعلم أنها تزول بانتهاره والغلظة عليه، فالسكوت عن مثل ذلك تضييع لحقهم، بل يحبهم ويألف إجماعهم، ويؤلفهم، ولا يسكت عن نصيحة ينتفعون بها، وفائدة يستفيدون بها ـ وإن شقَّ عليهم ذلك ـ ولا يشغل قلبه بمجيئهم وذهابهم، بل يشتغل بحاله عنهم كيلا يحجبونه عن قصده، فإذا جمعهم الله قام لهم بما يجب لهم من حقهم، ومحبتهم، ونصيحتهم على الوجه المذكور.

ومن وجوه إصابة الحق والصواب في الأشياء: أن يقصد رضا مولاه في سائر مساعيه، فإذا وجبت خصومة في الله، أو مخالفة لمن تعدَّى حدود الله، أو إنكار منكر حرَّمه الله، فلا يشتغل حينئذ بمراعاة جمعيته وشؤون قلبه، بل يستعين بالله، ويقيم من الحق ما أمكنه، ولا يضعف فيه؛ فإنَّه حق الله وجب، فيجب مراعاته، فيكون معينًا للحق والصواب.

ومن وجوهه إذا نابت الإسلام نائبة من عدو ظهر، أو دجَّال ظهر، فتن الناس ببدعته، أو أصابت المسلمين جائحة في أموالهم أو أبدانهم، فمن أصابه الحق في ذلك أن يكون مهتمًّا بذلك، ملتجئًا إلى الله تعالى، ويجعل ذلك من أهم مطالبه وحوائجه إلى ربه، ولا يكن كمن يقول من المتصوفة والمتفقِّرة: الفقير ينبغي أن يشتغل

(١) في المخطوطة: تأدبهم.

بقلبه وبحاله. فيخشى على من أهمل ذلك السقوط من حال الوداد مع ربِّ العباد، إلى دائرة النقص والقلب والإبعاد.

فصل

وجملة ما يعتمده طالب الوداد لرب العباد أن يعامل مولاه قاصدًا إصابة الحق والصواب، فيما أمره به، وفيما نهاه عنه، مقدمًا في جميع ذلك الأَولَى فالأَولَى، فيكون دائرًا مع رضا مولاه، لا مع قلبه وجمعيته.

واعلم: أنَّ الجمعية جمعيَّتان؛ جمعية منحرفة، وجمعية صحيحة.

فالجمعية المنحرفة: أن يجتمع قلبه على عبادة يحبها، أو على شخص يحبه، أو على صحبة شيخ، فمتى خرج عن ذلك العمل أو الشخص أو الشيخ؛ تفرَّقت همته، وتشوَّش وقته، وربما تتغير محبته بحسب اختلاف مزاجه وطبيعته؛ فإنَّه مع قلبه وهواه، فمتى خرج عن ذلك اضطرب، ومتى سمع من أستاذه ما يكرهه من الحق المحض؛ خرج عن محبته، وتغير قلبه فيه؛ لأنه مع هواه، فما وافقه انجمع قلبه فيه، وما خالفه أبغضه وخرج عنه.

وصاحب الجمعية الصحيحة: جمعيته مع الله فيما يحبه ويرضاه، فما رضي الله به شرعًا كان ذلك هو الأمر الذي يطيب وقته به ساء أو سرَّ، بل قد يصيبه من ذلك ما يسوء، وهو متلذذ القلب برضا مولاه، فهو يجتمع في موضع التفرقة، طلبًا لرضا مولاه، ويتفرق في

مواطن الجمعية إذا فجأه من أمر الله ما يوجب ذلك؛ طلبًا لرضا مولاه، وهذا هو الاستعداد التام إن شاء الله لرضا مولاه ومودته ومحبته له.

فصل

ومن أقسام ذلك: أن يكون في كل عبادة كما يرضى منه ربه أن يكون فيها، إذا ذكر الله فلا يفكر بقلبه في غيره، وإذا تلا القرآن فليقطع الخواطر، إلَّا ما كان متعلقًا بأمر التلاوة والفهم عن الله تعالى فيها، وكذلك إذا كان في المراقبة، فلا يمر بقلبه إلَّا ما يناسب الوقت، وليقطع ما جاء مما لا يليق بالوقت ـ وإن كان خيرًا ـ، فإنَّ ذلك خير، لكنه لا يليق بهذا الموطن.

وهذا السَّالك إنما يعمل على إتقان المعاملة فيما بينه وبين مولاه، وهي مرتبة فوق تصحيحها بشروطها وأركانها، وذلك بمثابة التجويد لمن يعلمه الكتابة، وذلك يستجلب الوداد فيما بينه وبين مولاه؛ لموافقته العدل والحق والصواب، وهذا شغل من اعتنى بمولاه أشد الاعتناء، واهتم بوداده ومحبته له أشد الاهتمام، يعمل على إتقان المعاملة، وإصابة الحق والصواب فيها.

فصل

والتحقيق: أن هذا لا ينكشف إلَّا لمن عرف دين الله، وعامل الله به، وتعودت الجوارح إدمان المعاملة على الصحة، ثم اتصلت شؤون قلبه وحباله بمولاه، وذاق شيئًا من طعم وداده، فهو في ذلك الاتصال

والنور يعلم ما يقدح فيه من الأمور، التي تحرف صاحبها عن إصابة الحق والصواب في المعاملات، وما يقدح في استجلاب وداده من رب العباد.

ومن رغب في الوداد، وصفاء المحبة من ربِّ العباد؛ فليعمل على إتقان هذه الأشياء، وليضع كل أمر لله وعبودية له، الموضع الذي تليق بها على الأمر الذي يطلب منه أن يضعها فيه، حسب إمكانه، وإن أشكل عليه شيء من ذلك في معرفة وضعه في مواضعه؛ فليسأل عنه، وأرجو أن يكون في هذه القواعد كفاية للمتحفظ اللبيب، إن شاء الله تعالى الكريم، وأن يرزقنا صحة المعاملة، وصفة الوداد لننال به رضاه عنا، ومحبته لنا في هذه الدار، ويوم يقوم الأشهاد.

آخر ما تيسَّر،
والحمد لله وحده،
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد،
وآله وصحبه وسلَّم.



(٤١)

قاعدة في ذكر الكرامات المعجَّلة للمنقطعين إلى الله عزّ وجلّ في الدنيا

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ]

إذا خلا القلب من الاهتمام بالدنيا والتعلُّق بما فيها من مال أو جاه أو صور أو حظ على الإطلاق، وتعلَّق القلب بالآخرة والاهتمام لها؛ من تحصيل العدة والأهبة للقدوم على الله عزَّ وجلّ، فذلك أول الفتوح والمواهب، وإلا فكم ممن أفنى عمره، وبلغ إلى الستين والسبعين وهو معلَّق القلب بالدنيا ومتعلَّقاتها! يبيت مهمومًا في تحصيلها، ويصبح كذلك.

فإذا فرَّغ الله عزَّ وجلّ القلب منها، ومال به إلى الآخرة، فذلك مبادئ فتوحات أهل القرب، فعند ذلك لا يسكن قلبه إلَّا بتحصيل علوم الأمر والنهي، فيعلم بما يجب لله عزَّ وجلّ عليه من صباحه إلى مسائه في كل حادثة ونازلة؛ من أحكام الوضوء وفرائضه، وأحكام الغسل وفرائضه، والصلاة وآدابها، وعلم ما يفسد العبادات، وما لا تكمل العبادات إلَّا به.

وإنما يعرف ذلك من كتب الفقه والحديث، فذلك برهان صحة الإرادة؛ لأن من أيقن بلقاء الله عزَّ وجلّ، وعلم أن الله يسائله

عن فرائضه كيف أداها؛ اهتم لمعرفة تصحيحها وإيقاع أحكامها على الوجه الذي أمر الله عزَّ وجلّ به، فكل من لا يقرأ ربع العبادات، ويعرف جملة من تفاصيلها، فلا يُطمع في فلاحه؛ لأنه مقصِّر في أمر الله عزَّ وجلّ في أول ابتدائه، فماذا ينتج منه في انتهائه؟

ويكفيه أن يكتب ربع العبادات، ويقرأه على شيخ مرة واحدة، ويطالع منه كل يوم بابًا، ويسأل ما أشكل عليه منه، ومتى حصل ذلك منه وقام به، كمل فرضه، وتوجه صلاحه من مطالبة الله عزَّ وجلّ، فعند ذلك يأنس العبد بالخلوة والوحدة، ويألف الأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات؛ كالبيوت المظلمة، والمغارات البعيدة عن الناس، فيحب الصلاة؛ فإنَّها تسد أبواب الحواس، وتجمع قواها في القلب، فيأنس بها مدة من الزمان، ويبقى أجنبيًا عن الخلق، مستوحشًا منهم ومن نظرهم، ولا يخالطهم إلَّا في جمعة أو جماعة أو ميعاد، ثم يفتح له حلاوة العبادة، ويجد الحلاوة في الصلاة، والركوع، والسجود، يحب أن يبقى يومه أجمع لا يشغله عن العبادة شاغل.

ثم يفتح له بحلاوة استماع كلام الله عزَّ وجلّ وترديده على الأسماع والقلوب، وحلاوة الذكر، فيرزق في التلاوة بوارقَ الشعور بالمتكلم سبحانه، ويرزق في الذكر الفناءَ والاستغراقَ فيه، حتَّى يغيب فيه، ويدخل بقلبه في عالم الغيب.

ثم يفتح له بعد ذلك إن شاء الله عزَّ وجلّ بالحياء من الله عزَّ وجلّ، وذلك أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يريه

النور أنه بين يدي الله عزَّ وجلّ، فيستحيي منه في الخلوات والجلوات وفي أوقات دخول الخلاء وغيره، ويرزق عند ذلك دوام المراقبة للرقيب، ودوام التطلع إلى حضرة الحبيب العلي الأعلى فوق العرش، وعلمه، ونظره، وسمعه في كل مكان، يحيط بالأشياء، فيستولي على العبد شاهد الحياء والمراقبة حتَّى يغطي عليه كثيرًا من الهموم، فيبقى كأنه في عالم آخر، والناس في عالم آخر، نعم؛ هو في عالم آخر، بين يدي الله عزَّ وجلّ، والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا، فهو يراهم وهم لا يرونه، ولا يرون مكانه، هم كما قيل:

فلو تُسأل الأيامُ ما اسمي ما دَرَتْ وأين مكاني ما عرفْنَ مكاني

وعند ذلك تقوى محبة التلاوة؛ لأنه مادة مشهودة، يشهد المتكلم به في أطوار الكلام وأثنائه، فيستحيي منه ومن اطِّلاعه.

وتارة يجمعه الذكر فيفنى ويستغرق، ثم يفتح له الشعور بأفعال الله عزَّ وجلّ، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريفها بيده، يراه مالك النفع والضر، فيتوكل عليه ويتخذه وكيلًا، ويقل تألمه من الحوادث المؤلمة؛ فإنَّه يراها صادرة منه لا من غيره، فيعفو عمن ظلمه، مشاهدًا للحكم القدري، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، مشاهدًا للحكم الشرعي، وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دلَّه على خالقه وبارئه، فلا يحجبه خَلق عن ربه عزَّ وجلّ.

فإذا استمر الأمر به على ذلك، ودام طلبه لربه؛ فتح له باب القبض والبسط، يقبض عليه حتَّى يجد الألم في قلبه؛ لقوة حال القبض، ثم يقبض وعاءه بالأنوار؛ أنوار الوجود، فيفنى عن وجوده،

وينمحي كما يمحو الشمس نور القمر، ويطوي الكون عن قلبه كما تطوى السموات يوم القيامة، ولا يبقى إلَّا الله الواحد القهار، وتنبع الأنوار من وسط قلبه كفيضان شعاع الشمس من جرم الشمس، فيغرق العبد في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر، وذلك إنما يكون بعد الرياضة والمجاهدة وزوال الطبيعة، العناصر الأربعة من العبد وطول الوقوف بالباب.

وهذا الغرق من حق اليقين، وما وجده من المراقبة والحياء هو من عين اليقين؛ فإن هو استمر على حاله واقفًا بباب مولاه، لا يعرج عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا يلتفت إلى زوجة ولا مال، ويعلم أن الأمر وراء ذلك، وأنه لم يصل بعد.

ومتى توهم أنه وصل؛ انقطع، وانقطع عنه المزيد، فيرجى أن يفتح له بالغرق في أنوار الجلال بعد ظهور أنوار الوجود ومحو وجوده، فيبقى كأنه في بحر من أنوار الجلال، فتنبع الأنوار من باطنه كنبع النور من القمر، أو الماء من العين المَعينة، فيبقى لذلك ما شاء الله أن يبقى، ويجد الملكوت الأعلى جميعه كأنه في باطنه وقلبه عال عليه كله، ثم يرقيه الله عزَّ وجلّ، فيغرق في أنوار الإكرام، فيبقى في بحر من أشعة الجمال، يفيض ذلك من قلبه على الوجه الذي تقدم ذكره.

وفي هذا المقام من تجلِّي الجمال الأحدي على الأرواح يرزق العبد المحبة الخاصة الملهية للأرواح والقلوب، فيبقى العبد مأسورًا مأخوذ القلب، مفتونًا بالحبيب، ولا يعرف ذلك من لم يفتتن بصورة حسنة تنجذب إليها قواه، فما ظنك بمن أشرب طوالع المحبوب قواه.

وفي هذا المقام يكون العشق وهو شدة الغرام، والمحبة بدايات العشق، وأنكر قوم لفظ العشق وأثبته آخرون، والمراد منه نار تتضرم في الأحشاء يقل معها الاصطبار، وذلك من أعلى المواهب وأسناها؛ أن يصير القلب مفتونًا، مأسورًا، مأخوذًا لما باداه من أشعة أنوار الجمال الأحدي إذا كان الناس مفتونين بما يفنى من المال والجاه والصور.

وأعلاهم من يكون مفتونًا بالحور العين، أو عاملًا على الدرجات العالية في الجنان، فهذا رجل قد ترقى في درجة المحبة على أهل المقامات بأسرهم، ينظرون إليه في الجنة كما ينظر إلى الكوكب الدري الغابر في الأفق؛ لعلو درجته، وقرب منزلته من الله عزَّ وجلّ.

ولكل عمل جزاء، وجزاء المحبة والوصال، والاصطناع، والقرب، والاتخاذ ـ بالخاء المعجمة والذال المعجمة بواحدة من فوق ـ، ونعوذ بالله من القول بالاتحاد، فهو بالمحبة يقال فيه: يصلح لهم، وكفى بقولك: يصلح لهم شرفًا وفخرًا، هذا من كراماتهم التي نالوها في عاجل الدنيا، فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مولاهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والعبد في ذلك كلِّه تارك الاختيار عند الله عزَّ وجلّ، لا يتقدم بين يديه بتدبير ولا إرادة ولا مشيئة، تقلبه يد القدرة، ويدعوه لسان الأزل؛ فإن هو صبر على ذلك؛ يرقيه الله عزَّ وجلّ ملكًا ملكًا، يغرقه في ملك ملك، ثم ينجيه منه، ويوقعه في غيره؛ كما غرقه في بحر

الوجود ثم نجَّاه منه، وأوقعه في بحر الجلال ثم في بحر الجمال، فكذلك يرقيه ملكًا ملكًا على قدر ما قسم له، إلى أن يوصله إليه، ويمكِّن له بين يديه، ويصير نجواه كفاحًا، أو يموت في الطريق، فيكون أجره على الله.

والموفَّق من لم يلتفت عن ربه عزَّ وجلّ يمينًا ولا شمالًا، ووفَّقه لقهر هواه وملك نفسه وضبطها عن الشر، فذلك من أول الفتح ـ أيضًا ـ أن يطهر العبد بنفسه وهواه.

وجميع ما ذكرناه من مراتب الوصول إنما هو شواهد وأمثلة؛ إذا تجلَّت له الحقائق في الغيب من حيث لا يراها؛ ظهر لتجلِّيها شاهدًا في قلبه، وذلك الشاهد دالٌّ عليها، وليس هو عينها.

مثاله: نورُ الجلال في القلب ليس هو عين نور جلال الله عزَّ وجلّ.

ذاك لا تقوم له السموات والأرض، لكنه شاهدٌ دالٌّ على ذلك، حيث قرب على قلبه في الغيب، قام له شاهد، والحق عزَّ وجلّ في جميع ذلك منزه عن الاصطناع على حقيقته أو على أنوار ذاته أو على حقائق صفاته، وإنما جميع ذلك رقائق تقوم بقلب العارف تدل على قرب الألطاف منه في عالم الغيب حيث لا يراها، وإذا فني فإنما يفنى بحال نفسه لا بالله، وإذا بقي فإنما يبقى بحال يجده لا بالله، ولا يبقى بالله عزَّ وجلّ إلَّا الله عزَّ وجلّ.

ومع ذلك فالوصول حق يجد الواصل آثار تجلي الصفات في قلبه، وآثار تجلي الحق في قلبه، ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين

يدي الحقِّ عزَّ وجلّ، ومن هناك يكاشف بآثار الجلال والجمال، فيجد العرش والكرسي تحت مشهد قلبه حكمًا، وليس الذي يجده تحت قلبه حقيقة العرش والكرسي، بل شاهد.

ومثال يدل على قربه من ربه عزَّ وجلّ أو قرب ربه منه، وبين الذوقين تفاوت كثير، يعرفه من يجده، فإذا قرب الرب عزَّ وجلّ من قلب المقرب بشاهدٍ يجده المقرب يدل له على ذلك، فتبقى الأكوان بالضرورة تحت مشهد قلبه، ووراء جميع ذلك طلوع شمس التوحيد التي تقطع ضباب الوجود، وعند العبد في هذه الحالة ليس إلَّا الله؛ يغيب بها عن نفسه، وفي الحقيقة هو باق لم يمح، ولم يفن، وهذه الأحوال واردة عليه، ولم يبق في سره غير ذكر الله.

هذا هو التحقيق، وإن كان يجد أنه ليس إلَّا الله، فذلك في شاهده وسره، وحقيقة الأمر كما ذكر؛ إذ لو كان كما يزعمه؛ لكان خالقًا، بارئًا، مصورًا، وليس كذلك إلَّا الله عزَّ وجلّ، فافهم ذلك كيلا تقع في المغاليط.

وهذا آخر ما تيسَّر، والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.



(٤٢)

قاعدة في المثل الأعلى

لقول الله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

وقول النبي ﷺ: «تبارك اسمُك وتعالى جدُّك»

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

لِيعلمِ السالكُ أنَّه: قد يقومُ في قلبِه عندَ التَّوجُّه شيءٌ يشهدُه فوق العَرْشِ، فلا يستوحِشْ مِنْ ذلك، فإنَّه ربَّما يقولُ: هذا الذي أَشْهَدُه جسمٌ، فإنَّ جميعَ ما تَتَخيَّلُه يكونُ جِسْمًا أو عَرَضًا يُعلمُ أنَّ حقيقةَ اللهِ سبحانَه وتعالى لا تَتَكيَّفُه الأوهامُ، ولا تَحويهِ الأفهامُ، ولا يُدْرَكُ بالقلوبِ ولا الأرواحِ، لكنْ قد يقومُ عندَ التَّوجُّه للعَظَمَة مثالٌ يكونُ ذلك المثالُ واسطةً بينَ من ليسَ كمثلِه شيءٌ، وبينَ مَنْ لَه مثلٌ.

واعلَمْ: أنَّ ذلك المثلَ الذي يقومُ في القُلوبِ عند التَّوجُّهِ والدُّعاءِ، له وجهانِ: وجهٌ يَلِي العبدَ، ووجهٌ يَلِي جهةَ العَظَمَةِ، ولا يُقال: إنه غيرُ اللهِ، ولا يُقالُ: إنه هو، إنَّما هو نور بحسبِ مرآة العبدِ وخَلْقِيته وضَعْفِه، فلا بُدَّ مِنْ هذا المِثلِ، فلا يستوحِشِ العبدُ منه، فإنَّه لا يُعرفُ اللهُ إلَّا بهِ، ولا يُدعى إلَّا به، ولا يُحبُّ إلَّا به، ولولاهُ لم يُعرفْ ولمْ يُعْبَدْ، فإنّه لا بُدَّ أنْ يقومَ لمن ليسَ كمثْلِه شيءٌ مثلٌ في القلوبِ يكونُ حِجابًا بينَ العبدِ وبينَ حقيقةِ الذاتِ، إذْ لا يمكنُ شهادةُ

حقيقةِ الذاتِ بالقلوبِ لأنها فانيةٌ، ولا تقوى عليهِ الأجسامُ والقلوبُ إلَّا في الدارِ الآخرةِ لأنها في عالمِ البقاءِ.

والتَّحقيقُ أنَّ ذلك المَثَلَ هو بمثابةِ الاسمِ والمسمَّى، والصفةِ والموصوفِ، فلا يُقالُ: هوَ هوَ، ولا يُقالُ: إنه غيرُه، إنما هو بحسْبِ المحلِّ وضعْفِه وخَلْقيَّته.

مثالٌ ليتضَّحَ هذا المعنى، فإنِّه مشْكِلٌ جدًّا تَهْرُبُ منه العقولُ الضعيفةُ، ولا يَقوى عليه إلَّا الموَفَّقُون:

الإنسانُ يَكْتُبُ بقَلَمِهِ: (الله)، وذلك هو اسمُ اللهِ حقيقةً، لكنْ بحسبِ المحَلِّ، وهي الكتابةُ، وكذلك تقولُ: (الله)، وقوله: (الله) هو اسمُ اللهِ، لكنْ بحسبِ اللفظِ المؤدي لذلك المعنى، ومِثْلُ ذلك إشارةُ القلوبِ إلى اللهِ تعالى ومعرِفتُها له، وتجلِّيه عليها، فتُحِبَّه وتخافَه وتشتاقَه، وذلك هو نورُ اللهِ تعالى حقيقةً، لكن بحسبِ المحَلِّ الذي يَرى ذلك المعنى، وإنما يرى منه بحسبِ ما يستعده، ولذلك وَجْهانِ كما سبق ذِكرُه.

ولهذا منعَ السلفُ رضي الله عنهم مِن وصفِ الإيمان بالخليقةِ، فإنَّ له اتصالًا باللهِ حقيقةً لا يُكيَّفُ، وله أيضًا اتصالٌ بالعبدِ يُعقلُ ويُدركُ، فَلَه بهذا الاعتبارِ وجهانِ كما سبَقَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الروم: ٢٧]، فبذلك المثل تعبدُه الملائكةُ والإنسُ والجانُّ، وهو مِثالُ عظَمَتِه في قلوبِهم، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ.

لكنْ لا بُدَّ للأمرِ الموجودِ ـ وإنْ كانَ لا يُمَثَّلُ ـ أنْ يقومَ له شاهدٌ في القلوبِ، وبحسبِ المحَلِّ، ويُعلَمُ حينئذٍ أنه ليسَ هو حقيقةَ

لأنه لا تَقومُ بحقيقتِهِ الجبالُ الرواسي، بلْ ولا لِبارِقَةٍ منه، وليسَ هو غيرُه لأنه منسوبٌ إليه، وهو أثرُ نورِه.

مثالٌ ليَتَّضِحَ هذا الإشكالُ في الشاهد:

نُورُ المصباحِ الواقعِ على الجدرانِ هو نورُ المصباحِ حقيقةً، لكنْ يُفَرَّقُ بينَ النورِ الواقعِ على الجدرانِ، وبينَ النورِ القائمِ بِجِرْمِ النارِ، ذاك نورُ المصباحِ بحسبِ محِلِّه، وهذا نُورُه بحسَبِ ذاتِه، وبهذا يَنْحلُّ الإشكالُ إن شاء الله تعالى، فإنَّ النورَ الذي على الجُدرانِ له وَجهانِ: وجهٌ إلى الجِدارِ، ووجهٌ إلى المصباحِ، وليسَ هو عينَ نورِهِ القائمِ بذاتِه، ولا هو غيرُ نورِهِ، فاعلمْ ذلك.

وإنما أطَلْتُ الكلامَ هاهنا لأنَّ كثيرًا من المتَعَبِّدَةِ يتَحَيَّرُونَ بينَ الإيمانِ والذَّوقِ، ويَرونَ الذوقَ مُغايرًا لنفيِ الكيفيَّةِ، والتحقيقُ أنه ليسَ بينَهما تنافٍ، واللهُ الموفِّقُ.

فليعتَمِدِ السَّالكُ ما أمكنَ فيما شُرِحَ في هذه القاعدةِ مُستعينًا باللهِ تعالى، مفوّضًا إليه، رافعًا بهِمَّتِه إلى أعلى المطالبِ، عساهُ أن ينالَ بعونِ اللهِ تعالى منها سَنِيَّ المراتبِ، وباللهِ المستعانُ.

والحَمْدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلام على محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.



(٤٣)

قاعدة في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمدُ لله واهب الفضل، القاضي بالعدل، لا إله إلَّا هو، مالك الممالك، الذي اصطفى من عباده صفوةَ قرَّبهم، وأدناهم، وعرَّفهم نفسه، وصافاهم.

بذلوا في حقه نفوسهم وأموالهم قربانًا، وراعوا شأنه بالمحبة والتعظيم في أسرارهم بالغيب، ولم يدَّخروا عنه منهم شيئًا، فجاد عليهم بأن قَبِلَهُم واشترى منهم ما باعوه، وقبل منهم ما قدَّموه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد:

فمَن جاد الله عزَّ وجلَّ عليه بمعرفته في طريق النظر والاعتبار، والتدبر للكتاب مع الاستبصار، حتَّى لاحت له شواهد اليقين، وخرقت أنوارها السَّاطع المبين[1] باطن سويداء سره، فلم يغب

(١) كذا.

عن البصائر شاهده طرفة عين، بل صارت مشاهدة عظمته مقرونة بمجاري الأنفاس، وحركات الجسم والحواس، ألفت الأرواح آثار الجلال فلم تسكن إلى سواه، ولم تنظر إلى غيره ممَّا عداه، فجدير أن يقرب نفسه بين يدي خالقه قربانًا؛ شكرًا لما وهبه من معرفته.

فمن عرف ربه في الدنيا؛ فكأنما زاره ووصل إليه، ومن عرف الرَّسول ﷺ ولاحت له شواهد معرفته وخصوصيته في معجزاته، فكأنما سافر إليه ورآه عيانًا، وقد رآه حقيقة ببصيرته، وهي أنفذ من رؤية الأبصار في الأسرار.

وإن كان الحس أقوى باعتبار الوجود الحسي، فالباطن أقوى باعتبار البصر القلبي، والانجذاب الروحي؛ فقد يرى البصر ما لا ينجذب إليه، فإذا رأى بالبصيرة ما جذب كليته؛ كان أقوى من مشاهدة المحسوسات.

وشُكْرُ هذه النعمة أن يقرب وجوده بين يدي محبوبه، وهذا شيء مجمل يعرف تفاصيله من دخل فيه.

ومن تفاصيله: تقديم العبد بين يدي مولاه عمله الظاهر، يعبد ربه بذلك؛ كصلاة، أو تلاوة، أو ذكر، أو مراقبة، مع تقدمة همومه وأفكاره وخواطره وإراداته وأعماله ونياته ومقاصده في جميع سعاياته الظاهرة والباطنة شيئًا فشيئًا على التدريج، حتَّى تسكن المحبة في جميع المفاصل والعروق، حتَّى يقرب المحبوب من جميع العبد؛ فإن همَّ فله، وإن نطق فله وبه، أو أراد فبأمره ومعونته، أو اختار فباختياره، أو أحب فإياه، والشيء الذي يحبه بحيث لا يخلو العبد قط

منه في فكره، ولا خاطر ولا هم ولا وسوسة ولا إرادة ولا عمل، وهذا شأن الصادق في محبة الحبيب.

ومن استعان بالله ودخل في هذا الشأن علَّمه الصدق كيف يصنع، ولا يتكلف ما لا يطيقه، فيبذل من نفسه ما لا يقدر عليه، لكن يبذل أولًا ما يقدر عليه من الأذكار والطاعات، والتَّسبيحات والتهليلات، ثم كلَّما سمحتْ نفسُه بشيء لمولاه استعان به وقربه.

وقد علمتَ شأن من تقرَّب إليه سبحانه بالنوافل بعد الفرائض، وما يكون في مقابلته من محبة الله له، كما ورد به الحديث الصحيح: «**وَمَن تقرَّب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا**»، فماذا يكون جزاء من قدَّم نفسه وجميع ما منه لمولاه؟

فصاحب هذا العمل يرجى له أن يجازى بالقَبول، وهو أن يقبل منه ما تقربه به العبد، ومتى قبل اختطف من وجوده، وجذبت روحه، بحيث لا يبقى له في ذلك تصرف، فتؤخذ حقيقته منه، ويبقى الجسم تبعًا لها، ويبقى الكل بيد الحبيب مخلصًا من أسْر النَّفْس والشيطان، إلى مملكة الرحيم الرحمن، الحنَّان المنَّان، وعند ذلك يحق له ما ورد به الحديث، يبقى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، فيبقى محبوبًا مرضيًّا عنه، وذلك غاية الغايات، ومنتهى الطلبات.

طوبى لمن وفِّق لذلك، وحسن مآب.

تتمة لهذه القاعدة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

أنفس الأشياء التي للعبد قلبه، فليتقرَّب إلى مولاه بأنفس الأشياء.

ومعنى التقدمة:

ألا يجعل نصيبًا لغيره ولا لغير أمره، فيقطعه عن جميع الأشياء، ويجعله نصيبًا خالصًا لمولاه.

ويندرج في ذلك نفي جميع الإرادات والخواطر المحرَّمة والمكروهة، وجميع السِّوى سِوى الأوامر، وقد سبق ذكر مضاعفة جزاء من تقرب بشيء، فمن تقرَّب بحقيقته الإنسانية؛ يرجى أن يجازى بقَبولها، وقَبولها اختطافها إلى القرب الأعظم، وذلك غاية الغايات.

وملاك التقرب بالقلب التقرب بالبدن الظاهر ـ أيضًا ـ، فيضبط الظاهر والباطن بعمل من أعمال البر؛ كالصلاة أو التلاوة أو الذكر أو المراقبة، فبذلك يكمل التقرب باطنًا وظاهرًا إن شاء الله تعالى.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٤٤)
قاعدة الروحانيات وفيها بيان لما قبلها

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

اعلم: أن الإنسان يسلك حتَّى يصل إلى أنوار المعارف، وأذواق الصفات والتجليات، ثم إلى المعرفة الحقيقية، فتتصل أوقاته وأحواله بشهودها في صلاته وذكره وتلاوته، وأكله وشربه، وسائر أحواله، فتبقى **الروح** مأخوذة بالجمال والجلال، **والقلبُ** متعلّق بأذيال التوكل والتفويض، والخوف والرجاء، **والعقل** متَّسع في ميادين الفهم، والنظر إلى تراتيب الأحكام والأفعال، **والنفس** راقدة عن تدبيرها واختيارها، **والقلب** مشتغلٌ بوظائف العبادات.

فمن وصل إلى هذه الرتبة السَّنية الشريفة، فيبقى عليه محبة الحق تعالى له ووداده له من ذلك الطرف، كما رزق الحب التام من هذا الطرف.

فيقول القائل: كيف الطريق إلى محبة الرَّب تعالى لعبده بعد معرفته؟

فالجواب: ما سبق في تلك القاعدة، وهو التعلُّق بروحانية الرَّسول ﷺ، والاحتظاء من نوره، كما أخبر سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فمن تحقق بروحانية الرَّسول ﷺ، وترك ما سواها؛ تنزلت عليه الروحانية المنسوبة إلى الحق عزَّ اسمه، فيرتبط الروح بها كما ارتبطت الروحانية بروحانية الرَّسول ﷺ، وتكون تلك الروحانية العلوية، واستقامتها على قدر الاستقامة، والارتباطِ بروحانية الرَّسول ﷺ وانحرافها عن الكمال على قدر انحرافها عن تلك، وهناك يرجى حصول المطلوب من محبة الله تعالى لعبده.

فيقول القائل: ما الدليل على ذلك؟

فيقال: أن تتنزل تلك الروحانية العلوية نتيجة للتحقيق بالمتابعة الظاهرة في العلوم والأعمال، فكان نتيجتها التحقق بالمتابعة في الأحوال، ومن حقق المتابعة في الأعمال والأحوال بحسبه أحبه الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وهذه هي الغاية المطلوبة من السير والسلوك، وبالله المستعان.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٤٥)

قواعد النُّبوات: قاعدة نبويّة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، لسلطان جبروتك ذلّت الأعناق، ولسُبحات وجهك الكريم سجدت الجِباه، خاشعة بالتذلل والإشفاق، وبجلال جمالك ووحدانيتك انجذبت الأرواح مشتاقة إلى التلاق، وتخلّصت من مضايق الكون إلى فسحات التقريب والانطلاق، فاستنارت أرجاؤها المظلمة بطلائع النور والإشراق.

ولقيومية ربوبيتك استراحت النفوس، من قيود التدبير والاختناق، إلى روح سعة بيداء التفويض وراحات التسليم، وطيب الأخلاق، مستشرفة إلى فيض الجود من خزائن المنّة التي لا يفْنِيها الإنفاق، بل حصل لها الغناء الكامل بالوجود البائن عن وجود السَّبع الطباق، وعاشت في قرب كنف مالك الممالك الرحيم الخلاق.

بذلك الوجود يستغني من لا يغنيه الأعراض الكونية من الأموال والأرزاق، والفقير من فقد ذلك الوجود ولو ملك ممالك الآفاق.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمَّدًا ﷺ عبده ورسوله؛ خاتم النبيين، الشافع المشفَّع يوم العرض والتلاق، الذي بعض معجزاته نبْع الماء من بين الأصابع، وإشارته إلى القمر

بالانشقاق، صلوات الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ما استنارت النجوم بالإبراق.

فصـل

فإن التابع لا بد أن تكتنفه كيفية من المتبوع، ولبسة من ملابسه، وكيف لا وقد امتزجت تلك الكيفية بأمشاجه، واختلطت بروحه وأخلاقه، فمن صحب فقيهًا من الفقهاء، أو شيخًا من المشايخ الفقراء؛ ظهرت على وجهه سيما علامته، وتكيف بالضرورة بجزئيات من كيفيته؛ فإنَّ الطباع تأخذ من المُلاحِف والمُعاشِر بحسب استعدادها، وتجذب من الخير والشر بحسب تلاؤمها لذلك المعنى، على انفرادها.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فمن سلك الله به طريق السعادة، وأراد به مواريث الإفادة؛ تعلَّقت همَّته بالأنبياء؛ ليحتظي بصحبتهم من أنوار الاجتباء، فإنَّ أنوارهم مواد الخير الموجود في العالم، وهم أقطاب الدوائر العلمية والعملية، والحالية، والأخلاق المتصفة بالمكارم.

إذا عُلم ذلك؛ فعليك بالتعلُّق بسيِّدهم، وخاتمهم الكامل المكمَّل، الهادي إلى طرق العلي الجميل المجمَّل، سيّد ولد آدم، الفاتحِ الخاتمِ، المؤيد بحُجَج الله القائم: محمَّد ﷺ.

وصفة التعلق به: أن تدخل تحت ربَّانيَّته، أولًا بكمال محبته، وذلك لا يتم إلَّا بأمور:

أحدها: معرفة أيامه وسيرته، ثم ملاحظة معجزاته وخصوصيته.

الثَّاني: اللَّهَجُ بذِكره وصفتِه، والتعلُّقُ به وبكيفيته.

الثَّالث: التقمُّصُ بشريعته، ومتابعته فيما أمر به واستحبه من سنَّته، ومجانبة ما حرَّمه أو كرهه من مخالفة ربه.

فإذا حقق العبد ذلك، وتقمَّص به، واختلط بعروقه ومفاصله، واحتظى من نور النبوة حقائق غوامضه، وعرف المناسبة بينه وبين الرسل من قبله، ورأى أنوارهم من مشكاة واحدة بصفاء بصيرته؛ وجد الاتحاد بينه وبين نبيّه ﷺ اتحادًا يجد ذوقه في بشريته، وخُلعت عليه كسوة من ملابسه، وصار بين روحه وروحه اتصال يحس به في معاملته، وكذا بين روحه وأرواح الأنبياء؛ يجد نسبة نورانية، فيعرفهم من دائرته، ويزورهم بروحه من طاقته.

فهنالك يُرجى أن تشتاق الروح إلى نصيب من قرب ربه، عالم سره وخفيته، فينظر إلى المعارف من مشكاة متبوعه ومعرفته، فيطالع ما وصف به متبوعه لربه في أسمائه وصفته، فيتوجه إلى ربه منها، موقنًا بها في ذوق فطرته، فيرجى أن ينكشف لقلبه ستور اللطائف؛ من مواهب المعارف، بمقتضى نسبته، وينظر إلى ربه من فوق عرشه وبريَّته بنظر الإيمان والإيقان، في أنوار الطاعة والإحسان، من أفق الغيوب والامتنان، منزهًا له عن حدّه وكيفيته، فهنالك لسان الحال يقول:

بدا لك أمرٌ طالَ عنك اكتتامُه ... ولاحَ صباحٌ كنتَ أنت ظلامه
وأنت حجابُ القلب عن سرِّ غيبه ... ولولاك لم يطبَع عليه ختامه

وأيضًا:

ظهرتَ لمن أبقيتَ بعد فنائه ... وكان بلا كَوْنٍ لأنك كُنْتَه

وأيضًا:

لقد ظهرتَ فما تخفى على أحدٍ ... إلا على أكمهٍ لا يعرف القمَرا

فعند ذلك يبدو منه خالص التوكل والتفويض، والاستناد إلى اللطيف الخبير؛ بترك الاختيار والتدبير، والخمودُ تحت الحكم الشرعي والمقادير، متى وصل العبد إلى ذلك؛ بقيت عليه واحدة، بها يتم أمره، ويصفو كدرُه، ويعلو بمشيئة الله قدره؛ وهو الزهد في الدنيا.

وحقيقة الزهد تركُ الإرادة والهوى، فعند ذلك يخلو الباطن من السِّوى، فبذلك يرجى - إن شاء الله تعالى - أن يضرب سرادق العزة في أعماق سرائره، ويصل حقائق الغيوب إلى حقائق ضمائره، ويصير واحدًا محقًّا، متخلصًا عن شؤمه وعوائده، تعبدًا لمحبوبه ورقًّا، قد وهب منه الكل له، فوهب له الكل بحسبه، وجاد بنفسه في محبة ربه، فعُوِّض عنها بالحياة الأبدية، والعيشة السرمدية، بإيصال محسوس لمن قُيض له بالحسنى.

كان ذلك الاتصال مع مشيئة الله تعالى، لا انفصال له، وكفى للعبد بذلك شرفًا، وباتصاله بمولاه وذهابه فيه فناءً وتلفًا.

أنتَ القتيلُ بكل من أحببته ... فانظر لنفسك في الهوى من تصطفي
ما لي سوى روحي وباذلُ نفسِه ... في حب من يهواه ليس بمُسرفِ
فلئن رضيتَ بها فقد أسعفتني ... يا خيبةَ المسعى إذا لم تُسْعِفِ

وبالله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٤٦)

قاعدة من دلائل النبوَّة

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

لمحمدٍ ﷺ ما تواتر النقل من طرق كثيرة، وروايات متنوعة في شأنه ﷺ.

فمن ذلك: صِدقه وأمانته قبل مبعثه، بحيث كانوا يسمُّونه: الأمين، وعِفّته، وحياؤه، وبراءته من الفواحش والدناءات ومساوئ الأخلاق، ثم قيامه بأعباء النبوة وحده في أول الأمر قبل كثرة أتباعه، ومعاداة الناس، والأهل والأقارب في دين الله، وكونه وعد أصحابه بظهور دينه؛ حيث جاء في الحديث: **«ليتمنَّ الله هذا الأمر؛ حتَّى يسير الراكب من كذا إلى كذا لا يخاف إلَّا الله والذئب على غنمه»**.

وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله ﷺ: **«لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق»**، فكان كذلك.

ثم ما حدَّث به الكهنةُ من ظهوره، ثم ما ظهر من الهواتف إعلامًا بنبوته، ثم تصديق أهل الكتاب المؤمنين به، العارفين بصفاته كما يعرفون أبناءهم؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه، وظهور الكذب والحسد على من كذَّبه من اليهود؛ حيث ظهر عليهم التحريف وتبديل

التوراة، بكتمان آية الرجم، وصفة محمَّد ﷺ، ثم قول هِرَقْل: قد كنت أعلم أنه يظهر الآن، ولكن ما كنت أعرف أنه منهم. يعني: العرب.

وشهادة الأحبار، ثم الرهبانيين ـ الذين لقيهم سلمانُ ـ له بالنبوة، ومعرفتهم بأنه قد آن أوان ظهوره من أرض الحجاز، ثم ظهور النسبة بينه وبين الأنبياء في الدعوة إلى الله، بشريعة ماحية لعبادة ما سوى الله، وإبطال الأوثان والأنداد من دون الله، ومجاهدة المكذبين له، العاكفين على عبادة غير الله، وكونه كان لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم صبره على العداوة والضر والجوع في شِعب بني هاشم، سنتين أو ثلاثًا، ثم دعوته إلى إقامة الحق والعدل؛ مثل الصدق، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، وعبادة الخالق بالصلاة والزكاة والحج، ونهيه عن التباغض والتقاطع والتدابر، وتحريم الزنا واللواط، والعقوق والكذب، وأعظمها رفض عبادة ما دون الله من مخلوقاته؛ كالنار والأنداد والأصنام؛ فإنَّ ذلك أشنع في العقول، أن يشرك بالله في العبادة بخلق من خلقه.

ثم إذا نسبْتَ بين دينه وبين كل دين كان على وجه الأرض؛ من دين المجوس، وعبادة النار، والذين اتخذوا العُزير ابنًا لله والمسيحَ وأمَّه، والذين اتخذوا الحجارة أندادًا لله، وعبادة النار والنور، والفلاسفة أهل المقاييس والعقول والهندسة، فمتى ناسبت بين أي دين أخذته وبين دينه؛ رأيت اتصال دينه بالله حقيقة، واتصال بقية الأديان بالشيطان، وتسويلات النفوس وآرائها، ولا تجد بين الأديان وبين دين الأنبياء نسبة، ليس بين المجوس والكهنة والفلاسفة، وبين دين الأنبياء

نسبة، وترى نسبة هذا الدِّين بدين الأنبياء ظاهرة؛ كأن الجميع من مشكاة واحدة، ولا يشك العاقل أن الله تعالى رحم الخلْق ببعْثِه، حيث بيَّن لهم بواسطة هذا النبي دينَه الذي ارتضاه لهم، فتميز دينه بهذه الخصائص عن سائر الأديان، فعافتْها القلوب وكرهتها، وعرفت زيغها وانحرافها، وانصبَّتْ إلى هذا الدين؛ عارفة أنه دين الذين هدى الله، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

وكلَّما ذكر فضل المعجزات الخارقة الكثيرة، التي جنسها انشقاق القمر، ونَبْع الماء من بين الأصابع، وإطعام النَّفَرِ الكثير من الطعام القليل، وتكثير الماء القليل في الآبار ويوم المزادتين، وإيصال التراب إلى أعين الكفار يوم بدر ويوم حُنين، وإبطال الكهنة بمبعثه ﷺ، وحنين الجذع إليه بين أصحابه في جمعهم ومشاهدتهم ذلك من الجذع، والدعاء على سراقة حين ساخت يدا فرسه في الأرض، واشتكاء البعير بحضرة أصحابه بدمع عينه، ودعا بشجرتين حتَّى توضأ تحتهما، وطاعتهما له بحضرة أصحابه، ورؤية أبي جهل لمَّا أراد أن يؤذيه خندقًا من نار بينه وبينه، وكونه مسَح ساق ابن عتيك حين انكسرت وكأنه لم يشكها، وضربه الكدية يوم الخندق فعادت كثيبًا أهْيَل، ومسح ضرع شاة فدرَّت في خيمتي أمِّ مَعْبد، ومرة أخرى كان بذلك إسلام ابن مسعود، ورد العين المقلوعة، فنبتت وصحَّت، وتَفَل في عين عليٍّ يوم خيبر فبرأ من ساعته، وأخذت الرعشة لرجُل حادَّه فلم يزل يرتعش حتَّى مات، وأعطى عكاشة جَذلًا من حطب فصار سيفًا، ونفث في عين رجل كانت مبيضَّة فأبصر بها حتَّى مات، ونادى شجرة بالحجون، فأجابته، ثم أمرها فرجعت.

واستخلص الحقَّ من أبي جهل، وكان ذلك ثمَنَ إبل؛ حيث رأى على رأسه فحلًا من الإبل، خاف أن يأكله، وسجدت له الغنم، ولم تَنْبُتْ رَباعية لمن كسروا رباعيته، وكانت رؤيته من ورائه كرؤيته من أمامه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، ويسمع أطيط السماء، وعذاب أهل القبور.

ومن ذلك إخباراته التي ما كذبتْ، ولا أخطأتْ قط؛ منها إنذار عثمان بالبلوى، والحسن بأن يصلح الله به بين الناس، وبأن عمار تقتله الفئة الباغية، وأخبر سراقة بأنه يوضع في يده سوار كسرى.

وقوله لجماعة: «**أحدكم ضرسه في النار مثل أُحُد**»، فمات الجميع على الإسلام إلَّا واحدًا.

وقال لآخرين: «**آخركم موتًا في النار**»، فسقط في النار فاحترق.

وأخبر عدي بن حاتم ارتحال المرأة إلى مكة لا تخاف إلَّا الله. قال عدي: وكان كما قال رسول الله ﷺ.

وأخبره ـ أيضًا ـ أنه سيفتح كنوز كسرى، وكان عدي فيمن افتتحها، وقال لأصحابه: «**ليتمنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلَّا الله**».

وقوله يوم بدر: «**هذا مصرع فلان وفلان**»، فما ماطَ أحدُهم عن موضع يده.

وإخباره عن المرتدِّ أن الأرض لا تقبله، فرآه أبو طلحة منبوذًا.

وأخبر بأن طوائف من أمته يغزون في البحر.

وأخبر بنساء كاسيات عاريات، رؤوسهن مثل أسْنِمةِ البُخْت.

وبقوم معهم سياط كأذناب البقر، ولم يرهم.

وأخبر ابنته فاطمة بأنها أول أهله لحاقًا به، وبأن أطول نسائه يدًا أولهن موتًا، فكانت زينب.

ومن ذلك بركته في عُكَّة المرأة التي كانت تهدي له سمنًا كلَّما أرادوا منها سمنًا.

ودعائه لتمرات[1] أبي هريرة، حتَّى حمل منها كذا وسق في سبيل الله.

ومن ذلك دعاؤه المستجاب منه على مضر حين دعا عليهم بالقحط، حتَّى أكلوا «العِلْهِز»، وهو الدَّمُ بالوَبَر.

ودعاؤه على الملأ من قريش بأسمائهم، فقتلوا يوم بدر.

ودعاؤه على عتبة بن أبي لهب، فقتله السَّبُع.

واستسقاؤه حتَّى مُطروا جمعةً، ثم دعاؤه حتَّى انجابَ السحابُ عن المدينة كالإكليل.

وجميع ذلك نطقت بها كتب المسانيد والصِّحاح والسُّنن، مع تحرِّي الرواة، ورحلتهم المشارق والمغارب لأجلها، وروايتها من الطرق المتعددة التي يصدق بعضها بعضًا.

---

(١) في المخطوطة: دعائه على تمرات...

فهذا خصوصية النبوة، الدعوى إلى الحق بما تقبله العقول، وإنكار الباطل الذي يأباه، والنهي عنه، وكون ذلك في فترة من الرسل عند فساد الأديان ورجوع الناس إلى آرائهم ونفوسهم وأهوائهم، وظهور البغي والفساد في الأرض، وعبادة غير الله؛ من النار والشجر والحجر، وكل ذلك كان في جميع الملل، حتَّى في اليهود والنصارى؛ فإنَّهم عبدوا عُزيرًا وعيسى، فجاء رسول الله ﷺ، بأمر يُقوِّم أديان العِباد، ويصلح فاسدها.

ثم تأييده بالمعجزات الخارقة للعوائد التي هذا جنسها بما تواتر النقل بها، وبهذا تقوم الحجة على الخلق؛ وقد قامت.

وشرط النبوة ظهور العدل والحق في دعوته، وصدق إخباراته في الماضي والحال، ووقوع إخباراته في المستقبل كما أخبر.

أما العدل فيما دعا به فظاهر، وقد سبق بيانه، وأما إخباراته في الماضي عن الأنبياء؛ فكان كما أخبر، وصدَّقه بذلك مؤمنو أهل الكتاب.

وأما إخباراته في الحال فصدقت؛ مثل إخباراته عن النجاشي وجعفر وأصحابه، وموت المنافق حين هبت الريح، وقصة الغال وكونه في النار.

وكذا إخباراته في المستقبل؛ من فتوح كنوز كسرى وقيصر، وأن عمود الكتاب ذُهب به إلى الشام، وكون أن دينه يتِمُّ حتَّى يسير الراكب من كذا إلى كذا، وظهور نار الحجاز تضيء لها أعناق البُخت ببُصرى، وظهور التتار، وكونهم فطس الأنوف؛ كأن وجوههم المجان

المطرقة، وقوله: «**كاسيات عاريات**»، وقوله: تفتح مصر، فيذكر فيها القيراط، وإخباره عن علي وعثمان وعمار والحسن بما آل أمرهم إليه، وأنه «**إذا ذهب كسرى فلا كسرى بعده، وإذا ذهب قيصر فلا قيصر بعده**»، وغزو أمته في البحر، فمتى ظهرت بشرى الأنبياء به في التوراة، كما صدَّق به ابن سلام وأصحابه وفي دين عيسى، كما ذكره الرهبان لسلمان، ثم ظهور الهواتف ببعثته، ثم ظهوره بالحق والعدل كما مر ذكره، ثم صدقه في إخباراته، فظهرتْ عَقيب الطِّلْبة؛ كانشقاق القمر، والسُّقْيا، ثم ظهور بقية المعجزات الخارقة على يده، ثم موافقته لأصول جميع الأنبياء في دعوتهم؛ **علمنا**: أنه المنتظر الذي كانت تنتظره العلماء من أهل الأديان، وأنه الذي كانت اليهود تنتظره في المدينة، حتَّى بشروا بطلوع نجمه، وكان يفخرون به على الأنصار، وهجرة ابن التيِّهان اليهودي إلى المدينة رجاء لقائه، وهو الذي قال هِرَقل: قد كنت أعلم بظهوره، ولكنني ما كنت أعرف أنه منكم، يعني: العرب.

وهذا الذي إذا ظهر من نبي قامت به حجَّة الله على عباده وزيادة؛ لأنه أتى بما ينبغي للأنبياء أن يأتوا به، ووافقهم في أصولهم، وإن اختلفت الشرائع، ولكل رسول شريعة كما يشاؤها المرسِل في كل حين وأوان، فللَّه الحجة البالغة علينا، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسلُ ربنا بالحق، وما بقي بعد هذا البلاغ بلاغ، ولا بعد هذا الصدق صدق، ولا بعد هذا الإعجاز إعجاز، إلَّا أننا نسأل الله حفظ هذا الإيمان، وأن يكتبه في قلوبنا؛ فإنا نخاف سلبه أو تغيره، لأن القلوب بين أصبعين من

أصابع الرحمن، وكان نبينا ﷺ، يسأل ربه ويقول: «**يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**».

وأيضًا فإنَّ الكفار أبصروا بعيونهم ما سمعناه وتحقَّقْناه لما تواتر به النقل، ولم تنفعهم الرؤية لذلك، وقد وصل إلينا من علم النبوة ـ بحمد الله ومَنِّه ـ ما يشفي ويكفي، وإلى الله نرغب في حفظ ذلك بمنِّه وكرمه ورحمته آمين.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



(٤٧)

قاعدة في تعرُّف النبوة أيضًا

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

النَّاس ثلاث طوائف؛ طائفة متمسِّكة بشريعة الأنبياء، وطائفة بالأديان المختلفة؛ كدين المجوس والفلاسفة، وأهل الأهواء والآراء، وطائفة ليسوا متمسِّكين بشيء، وهم الزنادقة؛ الذين لا مع العقل ولا مع الشرع.

إذا ظهر هذا، فالربُّ تعالى معلوم بالفطرة الإنسانية، إذِ الصنعةُ لا بدَّ لها من صانع، وكيف لا؟ وقد ظهرت حكمته في الأشياء، وعلمه بها في حسن تدبيره لها، وإتقانه مختلفات أشكالها وأجناسها، والعبد يعرف بالضرورة أنه عبد، وأن أمره ليس بيده، بل له مدبِّر مختار. هذا علم ضروري.

وبعد هذا العلم؛ **فالإنسان بين ثلاثة الأقسام**: المتمسِّك الذي سبق ذكره؛ فإن دخل في الانحلال والزندقة، وتحرَّك بمقتضى ما تشتهيه الجِبِلَّة والطبيعة من شهوة وفسوق وعصيان، فهذا حال ناقص؛ لأنه مناف للمعرفة الفطرية، بوجوب الرب الصانع، الذي تجب عبادته بشريعة يشرعها لعباده، فإنَّها من تمام حكمته وعلمه، إذ لا بد للعبادة من هيئة يعبدونه بها، فالانحلال باطل مناف للعقول

السليمة، والفطرة الصحيحة.

وإن ترك هذا ودخل في الأديان المختلفة؛ فإنَّه يظهر عليها الإصابة في شيء، والخطأ في آخر؛ لأنها مع تحسين العقول المختلفة والأهواء المتنوعة؛ هذا يعبد الحجارة، وهذا يعبد النار، وهذا يعبد الشجر، وهذا يعبد الكواكب بلا بينة تلوح عليها أنها من أمر الصانع الحكيم، بل يلوح عليها أنها من نتائج الفكر، والقلوبُ الصحيحة لا تنشرح بهذا أصلًا؛ لأنها تقول: كيف أعبد شيئًا من الأشياء باختياري، وتحسين عقلي، بلا شاهد يظهر، ممن يتقرب بذلك إليه؟

وهذا فيه نوع سفاهة واستبداد، فما بقي ثَمَّ إلَّا شرائع الأنبياء، فإنَّ الفِطَر قد قضت بحكمة الصانع، وحكمته تقتضي إبرازَ هيئة يعبده العباد بها، حتَّى لا يتحيروا في عبادة هذا المعبود بآرائهم وأهوائهم وعقولهم، فإنَّ عبادته واجبة عليهم قطعًا.

وتألّه الصانع فريضة، وإذا كان فريضة لا بد للعباد منها، فمن تمام الحكمة إبراز هيئة يعبده العِباد بها.

ودين الأنبياء هو الذي تشهد العقول الصحيحة: بأنه من عند الصانع الذي قضت به الفطر والعقول بالضرورة؛ فإنَّهم جاؤوا بصفاته وأسمائه، وأخبار تصرفاته في مخلوقاته، وإظهار حكمه في مبتدعاته، وكشفوا عن قهره وقدرته في ثوابه وعقابه.

ثم الهيئة التي شرعوها تناسب الرَّب تعالى في أن يعبد بها؛ من تحريم الفواحش، والعبادة بالركوع والسجود، وتقريب القرابين،

وغير ذلك، ينشرح لذلك صدور العقلاء، وتنقبض عن غير أديان الأنبياء.

إذا ظهر هذا؛ فإنَّ الأنبياء لم يأتوا بأكثر مما جاء به محمَّد ﷺ، من الآيات البيِّنات، والسور المنزلات، والمعجزات الخارقة للعادات، بل زاد هو عليهم في أشياء، وإن كان لغيره خصوصية من بعض الوجوه؛ كفلق البحر، والتكلم، والخلة، وتبريد النار الحامية؛ فلمحمَّد ﷺ أشياء تزيد عليها؛ من فلق القمر، ونبع الماء من بين الأصابع، وكسر الأعداء بالتراب الذي سفاه في وجوههم، وإخباره بالمغيبات، وغير ذلك، فتعيَّن اتباعه؛ لأنه ناسخ لما قبله، كما نسخت كل شريعة ما كان قبلها.

فإن قيل: أريد أمرًا أوضح من ذلك بلا واسطة؛ فإنَّ الأمور بالوسائط قد يشك فيها، كما شكَّت قريش، ولو أتاهم بما طلبوا منه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب، أو تسقط السماء، أو تزيل الأخشبَيْن عن مكانهما ليزرعوا؛ لم يبق ثَمَّ ريب عندهم، ولانكشف أمر المعبود ببرهان لا يخالطه شك أصلًا.

فيقال في جوابه: لو كان الأمر كذلك؛ لم يستحقوا الثواب على الطاعة؛ لأنه بهرهم أمر محسوس لا يحتاج إلى إيمان، لأنه يقين ظاهر، فلم يستحقوا بالطاعة ثوابًا؛ لأن الإنسان إنما يستحق الثواب على إيمانه بالغيب مع شواهد صحيحة يستدل العاقل بها، فإذا ما انكشفت الأمور انكشافًا لا يبقى فيه روية لمن يتروَّى، ولا فكر

وبصيرة لمن يتبصر، لم يكن لهم في إيمانهم كسب يستحقون عليه الثواب والعقاب، ولبطلت في ذلك.

والحكمة ضرورية للموحد ـ كما سبق ذِكره ـ، ومن الحكمة إبراز أمور يمكن الشاك أن يشك ويقول: هذا سحر؛ لنقصان عقله وفطرته، ولو كان صحيح الفطرة لعرف أنه الحق، فيستحق بهذا العمى النار، ويستحق لهذه البصيرة والفطرة الصحيحة الجنة، بخلاف ما لو انكشفت الحقائق؛ لم يكن للجاهل والأحمق كسب؛ فإنَّه يمكن كل واحد معرفة ذلك؛ أحمقَ كان أو عاقلًا.

إذا ظهر ذلك فليعلم العاقل: أن الإنسان لا يتم إيمانه حتَّى يحب هذا النبي الحب البالغ، ويحب جميع ما جاء به؛ من جليل المتابعة ودقيقها، ويرتفع الحرج وضيق الصدر عن جميع أحكامه وشريعته، وإنما يزول الحرج، وينكشف سر هذا المعنى إذا علم قاعدته، وهي شعوره بأن هذه الأحكام والجزئيات الشرعية هي أحكام الله تعالى، والرَّسول ﷺ فيها موافق لربه عزَّ وجلّ، متَّبع له، فاتباعه هو اتباع الفاطر الخالق الذي قضت العقول بوجوده وتدبيره، ولهذا وجب زوال الحرَج، وضِيق الصدر بجميع الأحكام؛ ما جلَّ منها وما دَقَّ.

ثم محبَّة النبي ﷺ ينبغي أن تكون ممزوجةً بالأرواح لوجوه:

أحدها: لمحبَّة الحبيبِ الأكبر له، والمحبُّ يُحِبُّ لمحبوبه، فهو المحَبُّ الأوَّل الذي من بين البريَّة.

الثَّانية: لمحبَّته هو لربِّه أعْلَى أقسامِ المحبةِ؛ إذِ المحِبُّ إذا شعَر بمن يحبُّ محبوبه ينجذب إليه طبيعةً وقلْبًا.

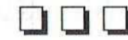
الثَّالثة: لأنَّه الطريق إلى هذه المحبة، فإنَّ بصحبته والاعتقاد فيه، ومتابعة سُنَّته، حصَّل ما حصَّل من الإيمان والسّنة والمعرفة والمحبَّة، ولأن طريقك إليه هو طريقك على ما حصل.

وبعد ذلك كلِّه فالالتجاءُ إلى الله تعالى واجبٌ في حفظ هذا الإيمان، وإنْ ظهرتْ شواهده شرعًا وعقلًا.

وبالله المستعان وعليه التُّكلان،

والحمد لله وحده،

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



(٤٨)

قاعدة في الصِّفات

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحَمْدُ للهِ مُنوِّرِ الصدور بطلائعِ المعرفة والإيقان، وشارحِها ببوارق النور الأعظم من الامتنان، باسطِ القلوب في ميادين الروح والريحان، من حَضَرات الأسماء المقدسة والصفات الموجبة لحقائق العرفان.

وكيف لا تبتهج القلوب سرورًا، وترفرف إلى العُلَى فرحًا وحبورًا، وقد خرجتْ من مضائق الشكوك والارتياب، وظلمات الطبائع والحجاب إلى فَسَحات التوحيد والاقتراب، في بواهر أنوار ميادينها كَبَرق السحاب، مؤدية إلى وجدانِ أشعةِ شُموسٍ تلمع كالشهاب.

فسبحان من ظهر إلى القلوب بأفعاله ومصنوعاته، فشهِدَتْهُ الفِطَن بآياته ودلالاته، فقَطَعتْ بوجود حكيمٍ عليم، متقن لمبتدَعاته ومخلوقاته، رحيمٍ بها في تيسير أسبابِ معايشها من قطرة يُرسل الرياح، فتُثير سحابًا ماطرًا من خزانته وآياته.

وجعلَ من الماء كل شيء حي، ليُوقن المعتبر بقدرته في تصرفاته، مُسخِّرًا الشمس والقمر لصلاح العالم، وجاعل الليل والنهار

آيتين، فمحا آيةَ الليلِ وجعل آية النهار مبصرةً، لتبتغوا فضلًا من صدَقاته.

ودحا الأرض على تيار الماء، ورفع السماء عليها بلا عماد لتظهر بواهر قدرته في بريَّاتِه.

هذا بعض حكمته في العالم الصغيرِ، المتضايق الأجزاءِ في كُرَةِ التراب، الملتوية على مركز السُّفلِ وطبقاته، فما ظنك ببدائع قدرته في ملكوت السماء، وما أودع فيها من الأفلاك الدائرة والنجوم السائرة، والأفلاك المسبِّحةِ العاكفة على امتثال مأموراته؟

ينزل الأمر بين الطباق العلوية والسفلية، فيكون بذلك ما يريده من تأثيراته، وما ظنك بعظيم ما يبرز من بواهر أفعاله وصفاته، في عالم الآخرة الذي لا تُكيِّفه العقول، بل يؤمن بوجوده وإثباتِه، حين ترتفع الوسائط التكوينية والشواهد العقلية الاستدلالية بظهور صريح القدرة الإلهية وسطوع بواهر أنوار العَظَمَة الإلهية، فيضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا من مثقال حَبَّة من خردلٍ، من طاعات العبد وجناياته.

فسبحان الإله الحكيم الفاطر المجيد، المبدي المعيد، الموفي كلّ عبدٍ ما اكتسبه من سعاياتِه.

تَعرَّفَ إلى قلوب العارفين بتعرُّفٍ خاصٍّ، فعرفوه به بعد أن ظهرَ لهم في المصنوعات في أنوار تجليات أسمائه وصفاته.

انكشفَ جلالُه وعَظَمته لأحداق البصائر؛ فامتلأت من إشراقات ظهوره وبيِّناته.

أَلِفَتْ الأرواح استنشاقَ نسيمِ التقريب بواسطة تلك الأنوار، فلم تلتفتْ عنه رغبة في غيره من تلذُّذِ عاجلِ العبد وراحاته، وإن خَطَفها عن ذلك أدنى خاطفٍ من العوارض الكونية، فهو سريع الرجوع والأوبَةِ من دركَاتِه.

صاعدًا مُتشامًّا بُروقَ الوصال، طائرًا بهِمَّتِه المحترقة إلى أعلى درجاتِه، لا يستقرُّ من شوقِه واضطرابه إلَّا في مقاعد الصدقِ، ومحالِّ العِنديةِ، بين أطنابِ العزِّ وسُرادِقاته.

لولا الآجالُ المكتومةُ، والأقدارُ المحتومة، لزهقتِ الأرواحُ طربًا، لما باشرها من أَنْصِبَةِ الإكرام والإجلال وإشراقاتِه.

حقيرة إذا نظرت إلى خسَّتها وسفالة قدرها، حين رامتْ عَزَماتُها أعلى المراقي، وأين الثريَّا من يدِ الملامس؟ نسبتُها الماء والطين، والصلصالُ والحمَأ المسنونُ:

أيها المنكح الثريا سهيلًا   عَمْرك الله كيف يجتمعان؟
هي شآمية إذا ما استهلت   وسُهيل إذا استهلَّ يماني!

فإذا ولَّت مدبرةً حياءً من طمعها، نازلةً إلى التُّخوم عبثتْ بها أيدي الغرام، وتأجَّجتْ بها نيران الوجد والهيام، وجدته يوم الميثاق من لذيذ الخطاب والتلاق، فنقول: قدري الترابُ وهِمَّتي تعلو السحاب:

بَرَقَتْ منكَ في الفؤادِ بُروقٌ   احتظى منه كلُّ عضوٍ برِفْقِ

فصلواتُ الله وسلامه على نبيِّ الرحمةِ وكاشف الغُمَّة محمد

النبي، وصحبه وآله ما ذرَّ شارقٌ، وحنَّ وامق، صلاةً دائمة لا انقضاء لها في الآباد، وأدامها إلى أن تقوم الأشهاد.

وبعد:

فأيُّها السَّالكُ: إنْ أردتَ التحقُّقَ بالعبودية، والخضوعَ لأحكام الرُّبُوبِيَّة، فعليك بالجلوس على بساط الصِّدق، ناظرًا إلى مولاك وما انفرد به منها في عَظَمَةِ شأنه، وقُدس جلاله ناظرًا ـ أيضًا ـ إلى صفاتكَ الفانية اللائقة بك. ثمَّ أفرِدْ مولاك بما انفردَ به من عَظَمَةِ شأنه، وقَدِّسْ صفاته، وتحقق أنت بصفاتك والزمها، ولا تتجاوزها، وانظر إلى صفاته، ثم إلى صفاتك راجعًا إليه منها، **فأول ذلك:**

أنْ تنظر إلى غناه عزَّ وجلّ، فمتى حققتَ ذلك عرفتَ نفسَك بالفقرِ، وعرفتَ مولاك بالغِنى، فتبرَّأتَ من صفته التي لا تستحقُّها أنتَ، واتصفتَ حينئذٍ بصفتك الذاتية لك، وهي الفقرُ، فكنتَ بذلك لمولاك الغني عبدًا.

وكذلك تنظر إلى قوته عزَّ وجلّ، وتنظر إلى ضعفك، فمتى حققتَ ذلك عرفتَ نفسك بالضعف، وعرفت مولاك بالقوة، فتبرَّأتَ من صفته التي لا تستحقها أنتَ، واتصفت حينئذٍ بصفتك الذاتية لك، وهي الضعف، فكنتَ بذلك لمولاك القوي عبدًا.

وكذلك تنظر إلى قدرته، وتنظر إلى عجزك، فتضيف القدرة إلى وليِّها، وتتبرَّأ أنت مما ليس لك، فتكون بذلك عبدًا، وكذلك تنظر إلى عزَّته وتنظر إلى ذلك فتضيف العزة إلى وليِّها، وتتبرأ أنت مما ليس لك، وتتصف بصفتك اللازمة لك، وهي الذُّل، فتكون بذلك عبدًا.

واعلم أنَّ لمولاك عزَّ وجلّ صفاتٍ ذاتية، وصفات فعلية، وصفات حالية، فصفاته الذاتية اللازمة لذاته المقدسةِ أزلًا وأبدًا وهي: الحياةُ، والعلمُ، والقدرةُ، والكلامُ، والسمعُ، والبصر، والإرادة، والجلال، والجمال، والقدس، والكمال.

والصفاتُ الفعليةُ كثيرةٌ، وهي: كلُّ ما تعلَّقَ منها بالمخلوقاتِ، كالخَلَّاقِ، والوهَّابِ، والرزَّاق، والفتَّاح، والقابض، والباسط، والخافض، والرافع، والمعِزّ، والمذلّ، والبارئ، والمصوِّر، والغفّار، والقهَّار، والمُحصي، والمُبدِي، والمُعيد، والمُجتبي، والمُميت، والمُقدِّم، والمُؤخِّر، والمُنتقم، والمُقسِط، والجامع، والمانع، والضار، والنافع، وغير ذلك.

وأما الصفات الحالية: كقوله سبحانه وتعالى يوم القيامة: «**يا آدم، قُم فابعثْ بعْثَ النار**»، وكصفة النزول، وقوله للشيء إذا أراده: «كُن»، وهو: ما يكون في حالٍ دون حال.

وله سبحانه أسماءٌ ذاتية، وأسماء صفاتية، **فأسماءُ الذات:** «الله» و«هو» و«أنت»[1].

والأسماء الصفاتية كالاسم: النور، والقدوس، والسَّلام، والعزيز، والجبار، والمتكبر، والمَلك، والرحمن، والرحيم

(١) المقصود بـ «هو» الضمير عند إخبارك عنه ـ سبحانه ـ كما تقول: هو الخالق، وبـ «أنت» عند خطابك له ـ جلَّ وعزَّ ـ في طلبك منه وثنائك عليه، كما تقول: أنت ربنا، وأنت نصيرنا.

والقوي، والغني، وغير ذلك من الأسماء الصفاتية، وكلها راجعةٌ إلى صفاتِ الذات، وهي مندرجة في قولنا فيما تقدم، والجلالُ، والجمالُ، والقدس، والكمال، فكلها مندرجةٌ في الكمال.

فصل

وكذلك أيضًا للعبد أسماءٌ عليَّة وأسماء دَنِيَّة، فأسماؤه العلية قد وصفه الله عزّ وجلّ بها فقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ...﴾ إلى آخرها [التوبة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ...﴾ وإلى آخر الآية [الأحزاب: ٣٥].

وأسماؤه الدنية: كالعاصي والمذنب والظالم وغير ذلك.

إذا علمتَ ذلك فاعلم أن العبودية إنما يقوم بها من صَفَتْ عناصره[1]، وابتهجت بالإشراق ظواهره، وسكَنَتْ عن الوساوس خواطره، وتحرَّكت بالمحبة ضمائره، وتجدَّدت أسراره عن غِلِّها وأغلالها وخَبَثِها وأعلالها، فهم القوم تراهم أروحَ الناس قلوبًا، وأوفرهم عقولًا، وأسكنهم عن الخنا نفوسًا، وأطيبهم بذكر الله أرواحًا، وأكثرهم بربهم أفراحًا؛ لأن بواطنهم بالمحبة إلى حظائر القدس مكتحلة بأكحال التقريب والأنس، سيماءُ المحبة عليهم لائحة، وبهجة المعرفة عليهم ظاهرة من حسن الأخلاق، ومطايبة الرفاق، والمكارمة في التلاق لتهذبهم في معاملة الملك الخلاق.

---

(١) في النسخة: (عن عناصره).

عرفوا نفوسهم بصفاتها الدَّنِيَّة فمحقوها بصفاتها العلية.

محقوا الاسم: المذنب بالاسم: التواب، ومحقوا الاسم: العاصي منهم بالاسم: الطائع، واسم: الظالم منهم باسم: العادل، فتبدلت أسماؤهم الدنيَّة بأسمائهم العلية.

بدّل الله بذلك سيئاتهم حسنات، محقوا أوصاف السيئات منهم بأوصافهم الحسنة، ثم رجعوا من جميع ذلك إلى مولاهم متبرِّئين من حولهم وقوتهم، فإن وجدوا منهم توبة وجدوا بدايتها من توبته عليهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ١١٨]، وإن وجدوا منهم محبة لربهم، وجدوا ابتدائها من محبته لهم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وإن وجدوا منهم علمًا أو معرفة وجدوا ابتداءها من فيض برّه عليهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥].

فصل

واعلم: أن مشاهدة الصفات تتنوعُ على قلوب العارفين كل منهم قد عرف مولاه بما كشف له منها، فعَبَدَ الله عزَّ وجلّ بالعبودية المناسبة لذلك الوصف، إذ كلُّ اسم، أو وصف، يقتضي من العبد عبودية بمقتضاه، فأول مشاهدة الصفات تبدو على قلوبهم:

مَشْهَدُ: علا فوق الممالك. وذلك يقتضي التضاؤل والتصاغر، للعبد المشتغل بالذات، عبوديةً للرَّبِّ العلي بالذات.

ثم مَشْهَدُ: متكلِّمٍ، آمرٍ، ناهٍ، مُحِلٍّ، مُحرِّمٍ. وذلك يقتضي من

العبد عبوديةَ الائتمارِ والاجتناب، لما أوجبَ فعلَه واجتنابَه الملكُ الوهاب.

ثم مَشْهَد: مُدَبِّر، قيُّوم. وذلك يقتضي من العبدِ تركَ التدبيرِ والاختيارِ، استسلامًا وتفويضًا، إلى الملك القهَّار.

ثم مَشْهَد: الديانةِ، وهو مَشْهَد الدين، فإنَّه مالكُ يوم الدِّين، أي: يوم الجزاء، وذلك يقتضي من العبد الاستعداد للقاء الله عزَّ وجلّ بالأعمال الصالحة، والمسارعة إليها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١].

ثم مَشْهَد: رقيب، عليم، فتستقيم بذلك الخواطر والسرائر عن الهمم الدنية، والأفكار المحظورة الردية، فكذلك عبوديتُها في مقابلة هذا الوصف، وإذا استقامت السرائر لزم من استقامتها استقامة الجوارح، لأن الحركاتِ الظاهرة إنما تصدر عن الخطرات الباطنة.

ثم مَشْهَد: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وذلك موجب لكمال المحبة والتعظيم، وظهور لواعج الأشواق إلى لقاء الحق عزَّ وجلّ يوم التلاق، فهذا هو عبودية هذا الوصف، وفي الحديث: «**مَن أحب لقاءَ الله أحب الله لقاءه**».

ثم «**كان الله ولا شيء معه**»، وهو مَشْهَد الأزلية، فينكشف بذلك ظلام الوجود، ويطلع فجر التوحيد، فيذهب به من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهو أول السباحة في بحر التوحيد، فما ظنك بالتوغل فيه؟

نعم، وذلك لا يُشرح إلَّا لأهله، الذين باشرَ صَفْوُ التوحيد بواطِنَهم، وطلع عليهم صُبحُه بعد طلوع قمره.

ثم مَشْهَد: شمس الفردانية بعد طلوع صبحها، وذلك موجب الهيَمان والالتهاب بنيران الوجد والغرام، وهو أول مشاهد البقاء بعد الفناء خصوصًا إذا تفَصَّلَ على تفاصيل الصفات، فيبقى العبد فيه مشهودًا ملحوظًا، بعد أن كان مراقبًا مشاهدًا.

ثم مَشْهَد: الحقيقة وهو التخلص من أنوار الأنوار إلى حقيقة الأنوار، فإنَّ للسراج نورًا يقوم بذات النار، ونورًا من ذلك النورِ يفيضُ على الجدرانِ.

ففي أول الأمرِ يكونُ نصيبُ العبدِ من أنوارِ الأنوارِ، فيرتقي منها إلى صاحبِ النور، ومَنْ لا يفهمُ من الأغبياءِ يَعْبُدُ المثلَ الأعلى، ولا يشعُر، والمحقِّق يعبدُ صاحبَ المثلِ حتَّى يخلُصَ إليه من أنوار الأنوار، وهذا أمر دقيق لا يُشرح ـ أيضًا ـ إلَّا لأهله، وهم الذين صبَروا على الصحبة، والتذويب في كِيْر السَّبْك، ولم يرجعوا من علوم الخاصة إلى علم العامة التي بها تستقيم العموم، وللخصوص قواعد أخرى، هي شفاء لأمراضهم، لا يجدون شفاهم إلَّا بها، وهي موصلة إلى العلمِ العام.

فصل

علامةُ المستعِدِّ لعلمِ الخصوص: أن يبقى بينه وبين السالكين من العوام حجاب، لا يقدِرُ على الاجتماع بهم، ومتى كانت نسبته معهم

إذا اجتمعوا يقررون الأمور العامة، فليست له نسبة بالخاصة، فأين مثل هذا من علم الأسماء والصفات وأذواقها؟.

فمتى اشتغلَ بها بطلَ عن وظيفته، وشغل من كلف تعليق شيء من ذلك عن مهم وقته، وواجب حاله، والأولى أن يشتغل كل من العبيد بما أقيم فيه، وبما يجد صلاح قلبه فيه، ولا ينظر إلى علم ما لم يبلغه حاله، فإنَّ عِلْمَ الخاصة فساد للعامة، وعِلْمَ خاصة الخاصة، وإنما كان فسادًا لأنه يشغلهم عن مهم وقتهم، عمَّا هم مطلوبون به، فلا يشرح علم الخاصة إلَّا لأهله، ولا علم خاصة الخاصة إلَّا لأهله ذلك، هو مهِمُّ وقتهم، وواجب حالهم، لكن في الحديث: **«لا تردُّوا السائل ولو جاء على فرَس»**.

وإجابة سؤال السائل مندوب إليه، إلَّا أنه ينبغي أن يعرف وجه الصواب في ذلك ليرجع إلى حكم وقته وواجب حاله، فالواصلون إنما وصلوا بمعرفتهم علم الحال، وقيامهم بحكمه، والداخل على السالكين إنما يدخل من جهلهم بعلم الحال، وإهمالهم القيام بحكمه، ومعنى علم الحال: علم ما يخص العبد من أمر دينه وحاله الذي أقيم فيه، فمتى تعداه إلى غيره، فقد ضيّع حُكمَ وقتِه، وضيَّع على الناس ـ أيضًا ـ حكمَ أوقاتهم.

وهذا آخرُ ما تيسَّرَ، والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

